□ عُلوُّ هِمّـة القَـادة □

تُشْرِقُ وتلألأ في سماءِ مَجْدِ الإِسْلام أَسْمَاءُ قَادَةٍ غيَّروا وَجْهَ التَّاريخِ .. كان الرَّجلُ منهم أُمَّةً .. لا بألف .. بل واللهِ أُمَّة .. قادوا جيوشَ الإسلامِ في معارك أغْرب من الخيالِ .. فللَّهِ دَرُّ خالد بن الوليد ، ولله دَرُّ أبي عبيدة ، وسعد بن أبي وقَّاصٍ ، والمثنى بن حارثة ، وعمرو بن العاص ، والقعقاع بن عمرو التميمي ، وعاصم ، وزهرة ، وعتبة المرقال ، وعقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وقتيبة بن مسلم ، ومَسْلمة بن عبد الملك ، رهبان الليل وفرسان النهار ... ملأوا المحاريب طاعةً وسجودًا ، والميادين بطولة تأخذ بالألباب .

أما واقِعُنا .. ويا بُؤْسَ واقعنا ، فكما يقول الشاعر :

يا بلادًا عزّ الفوارسُ فيها وتخلّى عَنْ سَاحِهَا الضِّرغامُ

وبكى الإِسْلامُ لغَيْبة فُرْسانِهِ ، وعلا الصوتُ « وامثناه » ... ولا مثنَّى للخيل ، « وامعتصماهُ » .

رُبَّ « وامعتصماهُ » انْطَلَقَتْ مِلْءَ أَفْواهِ الصَّبايا اليُتَّمِ
صادفتْ أسماعَنا لكنَّها لَمْ تصادفْ نَخْوةَ المعْتصمِ

وهذا حالُنا تصوِّرُه هذه القصيدة :

كَسَرْنا قوسَ حمزةَ عن جَهَالهْ وَحَطَّمْنَا بِلا وَعْيٍ نِبَالَهْ
فمزَّقَنا العدوُّ ولا جهادٌ وشرَّدَنا الطُّغَاةُ ولا عَداله
وباتتْ أُمَّةُ الإِسلامِ حَيْرَى وبات رُعَاتها في شَرِّ حاله
فلا الصدِّيقُ يرعاها بحَزْمٍ ولا الفاروقُ يُورِثُها فِعَالَهْ

ولا عُثمانُ يمنحُها عطاءً ويُرْخِصُ في سبيلِ اللهِ مالَهْ
ولا سَيْفٌ صقيلٌ من عَلِيٍّ يُفَيِّئُنَا إلى « عَدَنٍ » ظِلالَهْ
ولا زيدٌ يقودُ الجَمْعَ فيها لحَرْبٍ أو يُعِدُّ لها رجالَهْ
ولا القعقاعُ يهتفُ بالسَّرايا فتخشى ساحةُ الهَيْجا نِزَالَهْ
ولا حطينُ يصنعُها صلاحٌ طوى الجبناءُ في خَوْرٍ هِلَالَهْ
سرى صوتُ المؤذنِ في حمانا وقد فقدتْ مآذِنُنا بلالَهْ
وأَقْصانا يُدَنِّسُه يهودٌ ويَعْبَثُ في مَرابعه حُثَالَه
نَشُد رِحَالنا شرْقًا وَغَرْبًا وأولى أن نشدَّ له رحالَهْ
وَشَعْبٌ ضائعٌ في كلّ أرضٍ وجُلُّ مناهُ أَنْ يُرضي « جَمَالَهْ »
وراعي الشعب سجّانٌ غشومٌ وسفّاحٌ يَسِنُّ له نِصالَه
وحادي الركبِ بومٌ أو غرابٌ وقد قادَ الجموعَ « أبو رغالَه »
يُرمرمُ من فتاتِ الكفرِ قوتًا ويلعَقُ من كؤوسهم الثُّمالَهْ
يقبِّل راحةَ الطاغوتِ حينًا ويلثمُ دونما خجلٍ نِعَالَهْ
فيَرْتعُ في مرابعنا دخيلٌ يُطارِد في حضارتنا الأصالهْ
إذا سأَلَ الزعيمُ مزيدَ ذُلٍّ لشعب لا يَرُدُّ لَهُ سُؤالَهْ
وإن نَصَحَ الحكيمُ فلا سميعٌ ولا قلبٌ يَعِي صِدْقَ المَقَالهْ
وَهَمُّ الشعبِ ثوبٌ أو رغيفٌ و« صَكٌّ » من رصيدٍ أو « حوالَهْ »
وألقاب يتيه بِهَا قرودٌ وليس لها مَعَانٍ أو دلالَهْ
« سعادته » شَقَاءٌ في شقاءٍ وقد رَفعتْ « معاليه » السَّفالَهْ
« سيادتُه » يقيمُ على هوانٍ « سماحتهُ » يعيش مع الضلالهْ
« فخامته » هزيلٌ ليس يدري بأن النَّاسَ قد فضحوا هُزالَهْ
و« دولَتُهُ » يعيش مع الأماني ويخشى أن تُفاجئَه الإقالهْ
مَضَغْنا قلبَ حَمْزةَ وانْثنينا نذوقُ المرَّ أَوْ نجني وَبَالَهْ

مُؤامـرةٌ يُدَبِّرُهَـا يَهـودٌ ويرعاها عميلٌ لا أَبا لَهْ[١]

أبو عبيدة بن الجراح ، أمين هذه الأمَّة ، وفاتح بلاد الشام :

أمين الأمة ، أول من لقب بـ : « أمير الأمراء » ، مَنْ أمَّره رسولُ الله ﷺ في حياته ، على بعض سرايا المسلمين في ثلاث غزوات ، على جيشٍ فيه أبو بكر وعمر .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ لكلِّ أمة أمينًا ، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[٢].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء أهلُ نجران إلى النبي ﷺ فقالوا : ابعث لنا رجلًا أمينًا . فقال : « لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين » ، فاستشرف له الناسُ ، فبعث أبا عبيدة بن الجراح [٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح »[٤].

« وكما عاش أبو عبيدة مع الرسول ﷺ أمينًا ، عاش بعد وفاة الرسول ﷺ أمينًا .. يحمل مسئولياته في أمانةٍ تكفي أهلَ الأرضِ لو اغترفوا منها

---

(١) قصيدة « ضلال وخبال » من ديوان « في رحاب الأقصى » ليوسف العظم صـ ٢٠٧ - ٢١١ - المكتب الإسلامي .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي في فضائل الصحابة ، وأحمد ، وأبو يعلى ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن أبي شيبة في المصنف .

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والنسائي في الفضائل ، وأحمد ، والطيالسي ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن سعد في الطبقات ، وابن أبي شيبة .

(٤) حسن : رواه ابن سعد في الطبقات .

جميعًا »[١].

ولو لم يكن له إلا موقفه في سقيفة بني ساعدة لكفاه ، وهو يجمع شمل المسلمين على أبي بكر .

ولقد ساد تحت راية الإسلام أنّى سارت جنديًّا ، كأنه بفضله وبإقدامه الأمير .. وأميرًا كأنه بتواضعه وبإخلاصه واحدًا من عامة المقاتلين .

ولّاه أبو بكر القيادة العامة في أرض الشام ، فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك ، ولكنّ أبا بكر أصرَّ على رأيه ، فلما تحرّج موقف المسلمين في أرض الشام واجتمعوا باليرموك ، ولّى أبو بكر خالدًا منصب القيادة العامة في الشام بدلًا من أبي عبيدة الذي بقي على جند حمص ، ولكن عمر بن الخطاب أعاده إلى منصب القيادة العامة بعد وفاة أبي بكر ، وكان يقول عنه: « لا أمير على أبي عبيدة » .

وصيّر خالدًا موضع أبي عبيدة ، وذلك في أثناء حصارهم لدمشق ، الذي لم يتم فتح دمشق فيه ، وكتم أبو عبيدة هذا الخبر في نفسه ، طاويًا عليه صدر زاهدٍ فطن ، أمين .... حتى انتهت المعركة . وعلم خالد بأمر عزله ، فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة ، فقال : « يغفر الله لك ، أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمْني ، وأنت تصلي خلفي ، والسلطان سلطانك ؟! » فقال أبو عبيدة : « وأنت يغفر الله لك ، ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وما كنتُ لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله ، ثم قد كنتُ أعلمك إن شاء الله ، وما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، وإنَّ ما ترى سيصير إلى زوالٍ وانقطاعٍ ، وإنما

---

(١) رجال حول الرسول لخالد محمد خالد صـ ٢٦٢ دار الريان للتراث .

نحن إخْوانٌ وقوّامٌ بأمر الله عز وجل ، وما يضرّ الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه ، بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة ؛ لما يعرض من الهلكة إلّا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم » .

لمثل هذا كان الأمراء والفرسان يؤثرون قيادته على قيادة غيره .

فهذا خالد بن سعيد يتجهز بأفضل العُدَّة ويأتي لأبي بكر قائلًا له ولمن كان عنده : « إني أشهدكم أني وإخوتي وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيس في سبيل الله ، نقاتل المشركين أبدًا حتى يُهْلكهم الله أو نموت عن آخرنا » وينضم إلى جيش أبي عبيدة ، ولا ينضم إلى جيش ابن عمه يزيد بن أبي سفيان ، ولما يُسأل عن ذلك يقول : « ابن عمِّي أحبُّ إلي من هذا في قرابته ، وهذا أحبّ إلّي من ابن عمي في دينه ، هذا كان أخي في ديني على عهد رسول الله ﷺ ووليِّي وناصري على ابن عمي قبل اليوم ، وأنا أشَدُّ استئْناسًا إليه وأشد طمأنينة مني بغيره » .

ويفضله هاشم بن عتبة على يزيد .

يقول أبو بكر لهاشم : « يا هاشم ، إنا إنما كنا نَنْتَفِعُ من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره ، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته ، وإن الله عز وجل قد جمع لك تلك الخصال كلها ، وأنت حديث السن مستقبل الخير ، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر » ، فقال هاشم : « إنْ يُرد الله بي خيرًا يجعلني كذلك ، وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله ، وأنا أرْجو إن أنا لم أُقْتَلْ أن أقْتُل ثم أقْتُل إن شاء الله » . قال أبو بكر : « يا هاشم إن من سعادة جدّك ، ووفاء حظّك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمةُ على جهاد عدوها من المشركين ... وقد بعث إلّي المسلمون يستنصرون على

عدوهم من الكفار ، فسرْ إليهم فيمن تبعك ، فإني نادب الناسَ مَعَكَ ، فاخرج حتى تقدم على أبي عبيدة أو يزيد » . قال هاشم : « بل على أبي عبيدة » .

ويصبح أبو عبيدة أمير الأمراء بالشام .. ويصير تحت إمْرته أكثر جيوش الإسلام طولًا وعرْضًا .. عتادًا وعددًا .. وحين ترامى إلى سمعه أحاديث أهل الشام عنه ، وانبهارهم بأمير الأمراء هذا ؛ قام فيهم خطيبًا ، فقال لمن يفتنون بقوته ، وعظمته وأمانته : « يَـٰأَيُّهَا الناسُ .. إني مسلم من قريش .. وما منكم من أحدٍ - أحمر ولا أسود - يفضلني بتقوى إلا وددتُ أني في إهابه ، أو مسلاخه » .

حيّاك الله أبا عبيدة .. وحيّا الله دينًا أنْجبك ، ورسولًا علّمك .

و« لئن كانت شهرة خالد بن الوليد الحرْبيَّة سبقته إلى أهل الردة وإلى العراق وإلى الشام ، فتحدّث عنها العدو والصديق ، فإن شهرة أبي عبيدة في الحِلْم والرِّفْق ، وسعة الصدْر ، والأمانة والصدقة ، وحب السلام ، قد سبقته كذلك إلى أهل الشام»؛ لذلك أحبوه ويسّروا له مهمته ، وكان من أثر ذلك أن كثر تسليم مدن الشام له صلحًا ، وبذلك حُقنت كثيرٌ من الدماء ، واطمأنتْ كثيرٌ من النفوس .

لقد كان أبو عبيدة قائدًا مكيثًا ، والحرب لا يُصْلحها إلا الرجلُ المكيثُ ، كما يقول عمر بن الخطاب[١] . وكان قائدًا مُتَّبعًا يتلقى الأوامر وينفِّذُهَا بكل أمانةٍ وإخلاصٍ ، وقد بقي بعد معركة اليرموك في موضعه لا يبرحه حتى أتاه رأي عمر وأمره[٢] ؛ وهذا دليلٌ على شدة ضبط أبي عبيدة ،

---

(١) الطبري ٢ / ٦٣١ .

(٢) الطبري ١ / ٥٩٩ .

وإيمانه بضرورة إطاعة أوامر مرجعه الأعلى » .

ولعلّ هناك من يأخذ على أبي عبيدة تريثه الشديد قبل الإقْدام على خوض معركة من معاركه ، ويرد على هذه الفرية كبار الفرسان ، فقد بلغ معاذ بن جبل أن بعض أهْل الشام استعجز أبا عبيدة أيام حصار دمشق ، ورجَّح خالد بن الوليد ، فغضب مُعاذٌ وقال : « أَبِأَبي عُبَيْدَةَ يُظَنُّ ؟! واللهِ إنه لمن خير من يمشي على الأرض »[١] وسمع معاذ رجلًا يقول : « لو كان خالد بن الوليد ، ما كان البأس ذو كون » وذلك في أيام حصار أبي عبيدة بحمص ، فقال معاذ:« فإلى أبي عُبيدة تضطر المعجزة ؟! لا أبا لك ؟ والله إنه لَمِنْ خير مَنْ على الأرض »[٢].

ولقد كان رضي الله عنه من القادة الذين يستشيرون رجالهم في كل خُطْوةٍ يخْطونها ، وعندما تحشّد الرُّومُ لاستعادة أرض الشام ، استشار أصحابه ، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار في حمص ؛ أما خالد فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم ، ولكن أبا عبيدة أخذ برأي الأكثرية .

وكان رضي الله عنه مهيبًا ؛ مؤثرًا في نفوس رجاله حين كان يتجوَّل في معسكراتهم وهو يقول : « ألَا رُبَّ مبيِّضٍ لثيابه وهو مدنّسٌ لدينه ، ألا رُبّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين غدًا ! ادفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات » .

وكان يساوي نفسه برجاله بل يستأثر دونهم بالأخطار ، فلما أراد عمر بن الخطاب أن يستخرج أبا عبيدة من منطقة الطاعون بعد اشتداده ، فكتب إليه : « سلامٌ عليك . أما بعد . فقد عرضت لي إليك حاجة أريد

---

(١) الإصابة ٤ / ١٢ .

(٢) طبقات ابن سعد ٣ / ٤١٤ .

أن أشافهك فيها ، فعزمتُ عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ، ألّا تضعه من يدك حتى تُقبِل » فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر ، فكتب إليه : « يا أمير المؤمنين ، قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند المسلمين ، لا أجِدُ بنفسي رغبة عنهم ، فلستُ أريد فراقهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمره وقضاءه ؛ فخلني من عزيمتك » فلما قرأ عمرُ هذا الكتابَ بكى ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ! أمات أبو عبيدة ؟! فقال : « لا ، وكأن قد »[1].

لقد كانت لأبي عبيدة فكرة سوقية - استراتيجية - ممتازة ، فقد بعث بعضَ القوات لمشاغلة قوات الروم في « فَحْل » ، بينما حاصر هو دمشق حتى فتحها ، ثم قصد « فحل » بقواته كلها ، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن تتعاون القوتان المعاديتان في « فحل » و« دمشق » على مقاومة المسلمين في وقت واحد وفي مكان واحد .

كما أرسل خالدًا على رأس جيش ؛ لضرب الجيش الرومي الذي كان متوجِّهًا إلى دمشق ، مما أدى إلى فشل هذا الجيش في مهمته ؛ لأنه أصبح يقاتل في جبهتين في آنٍ واحد ؛ من الأمام يقاتل جَيْشَ يزيد بن أبي سفيان ، ومن الخلف يقاتل جيش خالد بن الوليد .

ولله دَرُّ القائد المكيث الذي يباغت قوات عدوه ... وسلوا « اللّاذِقيَّة » تجبْكُم ؛ فقد سار أبو عبيدة إلى « اللّاذقية » وكان لها باب عظيم لا يمكن فتحه ، إلّا بجماعةٍ كبيرةٍ من الناس ، فعسكر المسلمون على بعدٍ منها ، ثم أَمَرَ فحُفرتْ حفائر عظيمة ، تَستُرُ الحفرة منها الفارِسَ راكبًا ، ثم أظهر المسلمون أنهم عائدون عنها ورحلوا ، فلما أظلم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر ، وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا

---

(١) ابن الأثير ٢ / ٢١٦ .

عنهم ، فأَخْرجوا سَرْحَهُمْ وانتشروا بظاهر البلد ، فلم يَرُعْهم إلَّا والمسلمون يصيحون بهم ؛ ودخلوا معهم المدينة ، ففتحوها عنوةً[١] .

ولقد كانت معارك التطهير ، واستثْمار فوز اليَرْمُوكِ أكبر المعارك التي أظهرتْ مقدرة أبي عبيدة الفذّة « فقد فضّل أبو عبيدة التخلّي عن القيادة العامة في معركة اليرموك الحاسمة لخالد بن الوليد ، ولكن أبا عبيدة عَادَ إلى تولّي القيادة العامة بعد اليرموك ، فخاض معارك التطهير بنجاحٍ باهرٍ يكاد يعتبر معجزة عسكرية ، إذا أدخلنا في حسابنا تفوّق الروم السَّاحِق على المسلمين ، وسرعة إنجاز الفتح ، وقلة الخسائر بالأرواح التي ضحَّى بها المسلمون من أَجْلِ فتح البلاد كلها »[٢] .

لله دَرُّ أبي عبيدة ... من قاهر للروم وما أدراك ما الروم ... بنو الأصفر حدٌّ حديدٌ وركنٌ شديدٌ .

لله دَرُّه من قائدٍ زاهدٍ لا يكترث بمتاع الدنيا ، يرسل إليه عمرُ بن الخطاب بأربعةِ آلاف درهم وأربعمائة دينار ، وقال لرسوله : « انظرْ ما يصنع » ، فقسّمها أبو عبيدة ، فلما أخبر عمرَ رسولُه بما صنع أبو عبيدة بالمال ، قال : « الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا ! »[٣] .

ولما قدم عمرُ الشامَ ، تلقّاه أمراءُ الأجنادِ وعظماءُ أهلِ الأرضِ ، فقال عمر : « أين أخي ؟ » فقالوا : مَنْ ؟ قال : « أبو عبيدة » . قالوا : يأتيك الآن ، فجاء على نَاقَةٍ مَخْطُومةٍ بحبْلٍ ، فسلّم عليه ، فقال عمر

---

(١) ابن الأثير ٢ / ١٩٠ ، وفي البلاذري صـ ١٣٧ : أن الذي فتح اللاذقية هو عبادة بن الصامت . ولكنه بأمر أبي عبيدة ومشورته ، أو تحت قيادته .
(٢) قادة فتح الشام ومصر للواء الركن محمود شيت خطاب صـ ٨٠ دار الفكر .
(٣) طبقات ابن سعد ٣ / ٤١٣ .

للناس : « انصرفوا عنا ! » ، وسار مع أبي عبيدة حتى منزله فنزل عليه ، فلمْ يَرَ في بيته إلا سيفه وترسه ، فقال عمر : « لو اتخذْت متاعًا » - أَوْ قال : شيئًا - فقال أبو عبيدة : « يا أمير المؤمنين ، إن هذا سيبلّغنا المقيل »[1].

وفي رواية أن عمر قال : « اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عُبيدة » فقال له : « وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين ؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليّ ! » . ودخل عمر فلم ير في البيت شيئًا ، فقال : أين متاعُك ؟ لا أرى إلا لبدًا ، وصفحةً ، وشنًّا[2] وأنت أمير !، أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة[3] فأخذ منها كسيرات ، فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة : قلتُ لك : إنك ستعْصِرُ عَيْنَيْكَ عليَّ يا أمير المؤمنين ! يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحل !! فقال عمر : « غيّرتنا الدُّنيا كُلَّنا غيرك يا أبا عبيدة » !

رضي الله عن أبي عبيدة قائد القلب يوم اليرموك .. ومطهِّر الشام من دنس الروم : مرج الصفر .. فحل ، حمص ، بعلبك ، حماة ، شيرز ، معرة حمص ، اللاذقية ، وحلب ، أنطاكية ، يوقا ، الجومة ، وشرْمين ، ومرتحوان ، وتيزين ، وأنطاكية ، وقورس ، وتل عزاز ، ومنبج ، ودلوك ، ورعبان ، ودمشق ؛ كلها تعرف أبا عبيدة ؛ فاتحًا لَهَا ، إما عنوةً وإمّا صلحًا .

« كان هرقل إمبراطور الروم كلَّمَا حجَّ بيت المقدس ، ثم عاد مخلفًا سوريًّا ظاعنًا في أرض الروم ، التفت إلى سورية - وقال : « عليك السَّلام يا سورية ، تسليم مودِّعٍ لم يقضِ منك وطره وهو عائد » . أما هذه المرة فقد كان يدرك أن الأمر يختلف . فما خرج من شمشاط وحاذى سورية ،

---

(١) الإصابة ٤ / ١٢ ، وأسد الغابة ٣ / ٨٦ .

(٢) القربة الخلق .

(٣) السلة المستديرة .

وقف على مرتفع والتفت إلى سورية وقال : « قد كنت سلّمت عليك تسليم المسافر ، أما اليوم ، عليك السلام يا سورية تسليم المفارق ، سلام مودعٍ لا يرى أنه يرجع إليك أبدًا ، ولا يعود إليك روميٌّ أبدًا إلا خائفًا ، حتى يولد المولود المشئوم ، وليته لم يولد ، عليك يا سورية السلام ، ونعم البلد هذا للعدو »[١].

ومسك الختام فلسطين « إيلياء » بيت المقدس ، حاصرها حتى طلب أهلُها من أبي عبيدة أن يصالحهم على مثل ما صالح عليه أهل الشام ، وأن يكون المتولي لعقد الصُّلْح عمرُ بن الخطاب ، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك ، فقدم عمر وفتح بيت المقدس .

تُرى ماذا يقول أبو عبيدة ... لكأنِّي به ينادي من وراء الغيب : هلْ فَتَحْنَا فلسطينَ ليُسلِّمها أَحْفَادُنَا لليهود ؟ واحسرتاه ! واأسفاه .

مات القويُّ الأمين ... مات فوق الأرض التي طهرها من الروم ، وَخَمَدَ صَوْتُ القِسيِّسين والنواقيس .

وهناك اليوم تحت ثرى الأردن يثوي رُفَات نبيل ، كان مُسْتَقرًّا لِرُوح خيِّرٍ ونفسٍ مطمئنةٍ .

أما في واقعنا فَسَلْ ملوك الهرولة إلى التطبيع ، بل على حدِّ قول ملكٍ من ملوك العرب : « لا أهرول بل أركض ركضًا » ، قالها الملك الذي يحكم الأرض التي تحوي جثمان الأمين .

نعم يا أبا عبيدة ، هذا زماننا ... يقول ياسر عرفات : رابين ابن عمي ... رابين قائد شجاع .

---

(١) سقوط دمشق صـ ٥٢١ ، الطبري ٣ / ٦٠٣ ، والبلاذري ١٦٢ ، الأزدي ٢٣٤ .

رابين يتساءل إن كان عرفات يهوديا :

« في يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٩٥ م أثناء توقيع اتفاق توسيع الحكم الذاتي الفلسطيني في العاصمة الأمريكية واشنطن ... وخلال حفل استقبال في أحد متاحف واشنطن بعد توقيع الاتفاق ، بدأ رابين ملاحظته متوجهًا إلى من حوله من الضيوف والمراسلين ، فقال : « في تراثنا اليهودي قولٌ مأثور يرى أن رياضة اليهود هي فنُّ الخطابة ، ثم تابع بعد فترة من الصمت ، وبكثير من الجدية مخاطبًا عرفات : « بدأتُ أعتقد أيُّها الرئيس عرفات أنك قد تكون يهوديًّا ... » وفي حينها ضجَّ الجميع بالضحك ، وصفقوا طويلًا !!! »[1].

في موقف العشق يا قدسُ :

سافرتُ فِيكِ ولمْ يزلْ يَحْلو السَّفَرْ
سافرتُ فِيكِ ولم يزلْ سَفَري على دَرْبِي
يُقاومُ في عِنادٍ كُلَّ أَعْدَاءِ السَّفَرْ
نَصَبوا الحَواجِزَ في طَريقِ العِشْقِ
واسْتَدعُوا الخَفَرْ
حَفَروا بِدربِ الحُبِّ آلافَ الحُفَرْ
وَتَصَيَّدوا بِحرابِهِمْ وَكِلابِهِمْ
فُرْسانَ عشقٍ ما تراجعَ أو تَرَدَدَ أو كَفَرْ
يا عِشْقَ قَلْبِي مُنْذُ ما قَبْلَ الذي
يا حُبَّ رُوحي مُنْذُ ما بعدَ الذي
لا قبلَ قَبْلَكِ حَيْثُمَا
لَا بَعْدَ بَعْدَكِ أَيْنَمَا

(١) الوعي الإسلامي العدد ٣٥٨ جمادى الآخرة ١٤١٦ هـ صـ ٧٢ .

أنتِ العَشِيقةُ والقَصيدَةُ والأغاني والوَتَرْ
سافرتُ فيكِ وَلَم يزلْ يَحْلو السَّفَرْ
سافرتُ فيكِ وَأَنْتِ مِشْكاتي وَرُمْحي
والليلُ يَخْنقُ شُعْلَتي
وَتُحَاصِرُ الأنواءُ فَرْحي
وَقُرَيْشُ تَرْفُضُني وَتَطْرُدني
وَتَسْجِنُ فَجْرِيَّ الآتي وَصُبْحِي
فَصَفَعْتُ وَجْهَ اللاّتِ والعُزى
لِيَبْرقَ في صَحاري التِّيهِ جُرْحِي
عَرَّيْتُ صَدْري للخَنَاجِرِ والأَظَافِرِ
والنُّيوبِ المُشْرَّعَاتِ لِقَتْلِ آمالي وَذَبْحي
وَرَكِبْتُ ظَهْرَ اللَّيلِ
لَا أَخْشَاهُ
لَا أَرْجوهُ
بل يَطْوِيهِ إصراري وَكَدْحي
والعشقُ يَحْمِلُنِي وَيُسْلِمُنِي لِقَرْحٍ بَعْدَ قَرْحِ
وَأَنَا بهـٰذَا العِشْقِ مَأْخُوذٌ وَمَشْدُودٌ
فَفَرْحُكِ فِي لَيالي العِشْقِ صَدْحِي
يَا بَلْسَمَ الجُرْحِ المُرصَعِّ بِالضِيَّاءِ وبالسَّناء وَبالجَمَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحلو السَّفَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ عِشْقِي بِسَاحِك يَسْتَعِرْ
العِشْقُ مِجْدافِي وَكَشَّافي
وَسَيَّافي

وَجَلَّادي الأَشِرْ
العِشْقُ أَشْرِعَتي وَصَوْمَعَتي
وَنَاقُوسُ الخَطَرْ
دُقّي بِصَدْرِي يَا نَوَاقِيسَ الخَطَرْ
لَنْ تُوقِظِي ظَهْرِي
فَظَهْرِي قَدْ تَسَمَّرَ لِلْجِدَارِ وَلِلقَرَارِ وَلِلحَجَرْ
ظَهْرِي تَخَلَّى بَاعَني
هـٰذي ضُلُوعِي
تَطْعَنُ الرُّمْحَ المُسَدَّدَ والشَّظَايَا وَالمَطَرْ
وَتَذُودُ عَنْكِ الرِيحَ والإِعْصَارَ
في لَيلٍ تَدَثَّرَ بالشِّقَاقِ وبالنِّفَاقِ وبالخَورْ
هـٰذِي ضُلوعي تَلْطِمُ المَوْجَ المُعَرْبِدَ
في بِحارِ الجُبْنِ والتَّدلِيسِ فِي اللَّيلِ العَسِرْ
هـٰذِي ضُلُوعِي أَصْبَحَتْ جِسْرًا لِجَيْشِ العِشْقِ
حَتَّى يَنْتَصِرْ
سَافَرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحْلو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ مُحَجَّبًا مِنْ قَبْلِ آلافِ القرونْ
سافرتُ فِيكِ مُدَجَّجًا مِنْ بَعْدِ آلافِ القُرونْ
قَد كُنْتُ في الأُولى بحَشْدٍ مِنْ ذَراري
عاهَدتُ عَهْدَ الحَنينْ
عهدًا بلا شَكٍ يَمورُ ولا ظُنونْ

عَهْدَ الإرادةِ كي تَكونْ
وما يكونُ لِكي تكونْ
قد كُنْتِ أنتِ ... وأنتِ كُنْتِ لكي نَكونْ
وأتيتُ في الأُخْرى فَكُنْتِ العَهْدَ
نَفْسَ العهدِ
نَفْسَ القيْدِ
نَفْسَ النَفْسِ في حَشدٍ مِنَ البَشَرِ المُبَارَك
في الحياةِ وفي المَنونْ
فَحَملت دربي فوقَ كتْفي
وانطلقتُ إليكِ يا عِشْقِي المعتقِ بالسنونْ
العِشْقُ في زيفِ الحيَاةِ مُصنَّفٌ بعض الجُنونْ
والعِشْقُ في أصْلِ الحياةِ
هو الحياةُ ... هو النعيمُ المُنتظَرْ
سافرت فيكِ ولم يزلْ يَحلو السَّفَرْ

* * *

سَافرتُ فِيكِ ولم يزلْ
قَدَري المُقدَّرُ أَنْ أُسَافِرْ
لَسْتُ المكابرَ في دروبِ العشقِ لكني أُصابِرْ
لَستُ المُغامِرَ إنما عِشْقِي على دَرْبي يُعلمني ويلهِمُني
وَينْبتُ لي أَظَافِرْ
عِشْقِي المُحاصرُ في الشعابِ وفي المَوانِئ والمَغاوِرْ
عِشْقِي المُقيدُ في السطورِ وفي الصُدورِ وفي الحَناجِرْ

عِشْقي المُكَبَّلُ يُرعِبُ السَّيافَ
والهَتَّافَ
والشَّبَقَ المُقامِرْ
لا الشَّمْسُ يمكنُ أنْ تَقَرَّ بِراحتي يَومًا
ولا القَمَرُ المُثابِرْ
وسُراقةُ المخدوعُ لَنْ يُثني جِمالي
في دُروبِ العشقِ أن تَأتيكِ في أَقْصى المَهَاجِرْ
جَاءتْكِ فَوقَ خُيولِهِمْ
جاءتْكِ عَبْرَ فُلولِهِمْ
جاءتْكِ رَغْمَ طُبولِهِمْ
جاءتْكِ تَقْتَحِمُ الحَواجِزَ والمغاوِرَ والغرائِزَ والخطرْ
سَافرتُ فِيكِ ولمْ يزلْ يَحلو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزلْ
سَفَري يُصارِعُ كُلَّ أَشْكَالِ الوَهَنْ
سَافرتُ فِيكِ وأنتِ عَذْراءُ الوَطَنْ
سَافرتُ فِيكِ وَلستِ خَضْراءَ الدِّمَنْ
لا أَصْلَ جَدِّكِ ساقطٌ
لا فَرْعَ أُمِّكِ هَابطٌ
لا اسْمَ أَهْلِكِ يُخْتَبنْ
يا عِطْرَ كُلِ الأنْبِياءِ المُخْلِصِينْ
يَا زَهْرَ كُلِّ الأولياءِ المتَّقِينْ

مَنْ قَالَ إسْمُكِ مُمتَهَنْ
مَنْ قَالَ سَيْفُكِ يُرْتَهَنْ
هٰذا حَدِيثُ الإفْكِ مَصْنوعٌ وَمَدْفوعٌ
لِتَشْتَعِلِ الفِتَنْ
قِديسَةُ الآباءِ والأَجْدَادِ والتَّارِيخِ
والفَرْعِ الحَسَنْ
قِديسَةُ التُّربِ المبارَكِ حَوْلَهُ
يَا عِشْقَنَا
قِديسَةُ الرُؤيا الجليلَةِ والأَمَانِي والصُورْ
سَافرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحلو السَّفَرْ

* * *

سَافرتُ فِيكِ وَفَوْقَ راحِلَتي عُمَرْ
وَأنَا رَفِيقُ رِكابِهِ والقُدسُ فِي مَرمى البَصَرْ
وَصَهِيلُ خَيْلِكِ فِي الشَّمال وفي الجنوب
وفِي البَوَادِي والحَضَرْ
وَفَوارِسُ الجِيلِ العَظِيم تَدُقُّ أبوابَ الظَّفَرْ
وأبو عُبَيْدة والمُثنى وابن وَقاصٍ وَخالِدٌ في دَمي
وَسيوفُهمْ نَشوى تَذودُ عن الأَقصى الخَطَرْ
كُنتِ الإعَادَةَ للبداية والبدايةُ للشرُوقِ المُنْتَظَرْ
أَحْرَقْتُ إسطولي بِشاطِئِكِ العَظيمِ تَقَحُّمًا
وَنَشَرْتُ رَايَاتي على هامِ القَمَرْ
وَحَمَلْتُ دِرْعكِ لا أُبَالِي قَيصَرًا في الساحِ

أَوْ كِسْرى ولا حَشْدَ التتَرْ
عُمْرِي عَلى مُهْري
وَمُهْرِي فَوْقَ ساحِلِكِ لا يُبالي
بالجنودِ وبالقرودِ وبالذئابِ وبالْحُمُرْ
هٰذَا يَميني فَوْقَ سَيْفِ الحَقِّ إيمانًا وَعَهدًا
لَنْ يُزَعْزعَه المَوالي في رِحَابِكِ تَنْتَحِرْ
سافرتُ فِيكِ ولم يَزَلْ يَحلو السفَرْ

* * *

سافرتُ فِيكِ وَعِشْقُنَا
ينمو علي لهبِ الطهارةِ والغضبْ
ما كُنْتِ خَائِنَةَ العَزيزِ
ولستِ زانِيَةَ العَربْ
إني أُعيذُكِ بالذي أَجْلاكِ في سِوَرِ الكتابِ
فَكُنْتِ جَوْهَرَةَ الزَّمان المُرتَقَبْ
إني أُعيذُكِ بالذي سَوَّاكِ عاصفةً بِكَفِّ الحَقِّ
تكتسحُ العفونَةَ والعطبْ
إني أُعيذُكِ أن تَهُزي الأَثْلَ مِن أجلِ الرطبْ
لا نَخْلَ في وادِ السَّرابِ ولا رُطَبْ
هٰذي المشانِقُ فاحذري أنْ تَقْربيها
وارقُبيها عَنْ كَثَبْ
فَعَسَى الطَّليقَةُ تَحْتَ ظِل العَرْشِ بَاتَتْ تَقْتَرِبْ
فإلى مَتى ؟!

تَأتي وَتَنْتَصِبُ العَسى ؟!
لا تَسألِيني فَالعَسى
نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابلَ قَابَ قوسٍ واقتربْ
فَلْتُرضِعيهِ مِن الشرايينِ التي
لَمْ تَأكل الثَّمَرَ المُحَرَّمَ
لم تُصَلِّ لِلكراسي والرُّتَبْ
فَلْتُرْضِعِيهِ مِنَ الشرايين التي
ما لاكت الكَبِدَ الشريفَ
ولا نَمَتْ فِي حُضْنِ حَامِلَةِ الحَطبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشَّرايينِ التي
ما حاصَرتْ شِعْبَ الصُّمودِ
ولم تُدَنْ للمستبدِ أبي لَهَبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايينِ التي
لَمْ تَحْتَسِي بَحْرَ السَّرابِ
وَلَمْ تُلقَّنْ مِن مُسَيْلمَةَ الكَذِبْ
فَلتُرضِعِيهِ من الشرايينِ التي
لَمْ تَحْمِلِ السيفَ الذي
ذَبحَ الحسينَ
وَلَمْ تَنم في صَدْرِهَا
نَارُ الجراحِ العاصفاتِ ولا الغضَبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايين التي ما سَلَّمتْ
لِبني قُرَيْظَةَ خَلْفَهَا أو أَنْفَهَا أو سَيْفَهَا أو حَرْفَهَا
أو أهل يَثْرِبَ أو صَبَاحًا يَقْتَرِبْ

لا تَسأليني فَالْعَسى
نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابلَ قابَ قَوسٍ واقترَبْ
فإذا غَدِيْ شمسًا يُعانقها الضُّحى
تُلْقِي على الأقصى أكاليلَ الضِّياءِ المُرْتَقَبْ
هٰذي العسَى سَطَعَتْ وَكانت في الخبرْ
سَافَرْتُ فِيكِ ولم يزلْ يحلو السفرْ[1].

الأمير أبو إسحاق ، سعد بن أبي وقَّاص ، خال رسول الله ﷺ ، بطل القادسيَّة ، وفاتح « المدائن » ، ومُطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد :

سعدُ بنُ مَالك لَيْثٌ في براثِنِهِ قَدْ قَالَ عمرُ إِنَّه الليثُ غَادِيَا

عن جابر قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ ، فأقبل سعد بن أبي وقاص ، فقال النبي ﷺ : « هذا خالي ، فَلْيُرني امرؤٌ خالَه »[2].

وهو أول من أراق دمًا في الإسلام ؛ لَمَّا ضرب أَحَدَ المشركين بِلَحْيِ جملٍ فشجَّه .

وهو البطل أول رامٍ بِسَهْمٍ في سبيل الله .

قال سعد رضي الله عنه : إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله ، وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر ، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خِلْط ، ثم أصبحت بنو أسد تُعزِّرُني

---

(١) قصيدة في موقف العشق ، لسعيد المزين ٣٠ يناير ١٩٨٦ المنشورة بمجلة ديوان القدس ، العدد الثاني رجب ١٤٠٦ - مارس ١٩٨٦ ص٥٨ - ٦١ .

(٢) إسناده صحيح : رواه الحاكم في « المستدرك » ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

على الإسلام ، لقد خِبتُ إذن وضلَّ عملي . وكانوا وَشَوْا به إلى عمر ، قالوا : لا يُحسن يصلي[١] .

قال سعد :

ألا أبلغ رسـول اللهِ أني حَمَيْتُ صَحابتي بصدور نُبلي
أذودُ بها عـدوَّهمُ ذيادًا بكلِّ حـزونة وبكلِّ سهلِ
فَمَا يُعتد رامٍ مِن معدٍ بسهْمٍ يا رسول الله قَبلي[٢]

وهو البطل الذي جمع له رسول الله ﷺ أباه وأمَّه .

قال عبد الله بن مسعود : لقد رأيت سعدًا يقاتل يوم بدر قتال الفارس في الرِّجال[٣] .

وعن سعد أن رسول الله ﷺ جمع له أبويه ، قال : كان رجلٌ من المشركين قد أحرق المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ : « ارم فداك أبي وأمّي » فنزعْتُ بسهْمٍ ليس فيه نصل ، فأصبت جبهته ، فوقع وانكشفتْ عورته ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[٤] .

فداك أبي وأمي سعد في يوم « تقذف المشركين بألف سهم »[٥] .

وفي الإصابة لابن حجر (٤ / ١٦٣) : قال أبو إسحاق : أشد

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، والترمذي ، والنسائي في « الفضائل » ، وأحمد في « فضائل الصحابة » وأبو نعيم .

(٢) الإصابة : (٣ / ٨٥) ، والاستيعاب : (٢ / ٦٠٧) . والحزونة : هي الوعر من الأرض .

(٣) طبقات ابن سعد : (٣ / ١ / ١٠٠) .

(٤) أخرجه مسلم ، والطبراني في الكبير .

(٥) « أحد » لمحمد أحمد بشاميل صـ ١٣٨ .

الصحابة أربعة : عمر ، وعلي ، والزبير ، وسعد .

بأبي وأمي من كان له سلاحان : رمحه ، ودعاؤه ؛ فقد كان مستجاب الدعوة .

عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال : سمعت سعدًا يقول : قال رسول الله ﷺ : « اللهم استجب له إذا دعاك »[(١)] .

ولما تجهز الفُرسُ لقتال العرب ، قال عمر بن الخطاب : « واللهِ لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب » وكتب عمر إلى عماله : « لا تَدَعُوا أحدًا له سلاحٌ أو فرسٌ أو نجدةٌ أو رأيٌ إلا انتخبتموه ، ثم وجهتموه إليّ ، والعَجلَ العَجلَ »[(٢)]. وأراد عمر أن يتولى قيادة هذا الجيش ، فصرفه عن ذلك أهل مشورته ، فجمع عمر الناس ، وقال لهم : « إني كنت عزمتُ على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم ، وقد رأيت أن أُقيم وأبعث رجلًا ، فأشيروا عليَّ برجل » ، وكان سعد يومذاك على صدقات هوازن ، فلما وصل كتاب منه - حين كان عمر يستشير الناس فيمن يبعثه - فقال عمر : وجدته ! قالوا : مَنْ هو ؟ قال : « الأسدُ عاديًا سعد بن مالك »[(٣)] وقال : « إنَّه شجاعٌ رامٍ »[(٤)].

وقال عبد الرحمن بن عوف : « الأسد في براثنه : سعد بن مالك الزهري » .

---

(١) إسناده صحيح : رواه ابن حبان والترمذي والحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٢) الطبري : (٢ / ٦٦٠) ، وابن الأثير : (٢ / ١٧٢) .

(٣) الطبري : ٣ / ٤ .

(٤) البلاذري : صـ ٢٥٥ .

ويستدعي عمر سعدًا ويقول له : « إنِّي قد ولّيتك حرب العراق ، فاحفظ وصيَّتي ، فإنك تقدم على أمرٍ شديدٍ كريه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعوِّد نفسك وَمَنْ معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أنَّ لكلِّ عدةٍ عتادًا ، وعتاد الخير الصبر ، فاصبر على ما أصابك »[1] .

وفي القادسيَّة نظَّم سعدٌ الجيش ، وعبَّأه للحَرب ، وجعل على كلِّ عشْرة رجالٍ عريفًا ، وأمر على الرايات رجالًا من أهل السابقة ، وولَّى الحروب رجالًا ، فولَّى على مقدِّماتها ومجنَّباتها وساقاتها وطلائعها ومشاتها وفرسانها ، ولم يتقدم بعد ذلك إلا على تعبيةٍ ، حتى يحول دون مباغتة العدوّ لقواته .

ولم ينسَ سعد القضايا الإدارية في جيشه ، فعيَّن مسئولًا عن القضاء ، وجعله مسئولًا عن قِسْمة الفيء أيضًا ، وعيَّن مسئولًا عن الوعظ والإرشاد ، وعيَّن مترجمًا يجيد اللغة الفارسية، كما عيَّن كاتبًا تنتهي إليه الأمور الكتابية .

ووصل جيش المسلمين القادسية ، فبعث عيونه ليعلموا له خبر أهل فارس ، ثم أرسل بعض المفارز للإغارة على المناطق المجاورة ، فعادت كلُّها بالفتح والغنائم والسلامة ، وأرسل وفودًا من رجالات المسلمين إلى كسرى وإلى رستم ، يفاوضونهما ويعرضون عليهما مطالب المسلمين : الإسلام ، أو الجزية ، أو السَّيف ، فكان لهذه الوفود تأثير معنوي حاسم على كسرى وقائده رستم .

وتهيَّأ الفريقان للقتال ، وقبل أن يأذن سعد بالقتال ، بعث ذوي الرأي والعقل والنجدة إلى الناس ، ليحرِّضوهم على القتال ، وأمر سعد بقراءة سورة الجهاد وهي سورة الأنفال ، فلمَّا قرئت هشَّتْ قلوبُ الناس وعيونهُم

---

(١) تاريخ الطبري : ٣ / ٤ - ٥ .

وعرفوا السكينة مع قراءتها[1].

ونادى منادي سعد في جيشه : « أَلَا إنَّ الحسد لا يحلُّ إلا على الجهاد في أَمْر الله يَا أَيُّهَا الناس ، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد » .

وتحالفت الأمراض على البطل القائد العام سعد ، فأصابته بِعِرْق النَّسَا ، وبحبون ودماميل منعته من الركوب ، بل حتى من الجلوس ، فلم يستطعْ أن يركب ولا أن يجلس فاعْتلى القصر وأكبَّ من فوقه على وسادةٍ في صدره يُشرف على الناس ، وأسفل منه في الميدان خليفتُه ؛ خالد بن عرفطة ، يرمي إليه من أعلى بالرِّقاع فيها أمره ونهيه ، وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر[2].

وأكبّ سعدٌ على وجهه مطلعًا على جيشه ، فخطبهم وقال : « إن الله هو الحق ، لا شريك له في الملك ، وليس لقوله خُلْف قال جلَّ ثناؤه : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالحون** ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] إنَّ هذا ميراثُكم وموعود ربِّكم وقد أباحَهَا لكم مُنذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها ، وتأكلون منها وتقتلون أهلها وتجبونهم وتسبونهم إلى هذا اليوم ، بما نال منهم أصحاب الأيام منكم ، ولقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كلّ قبيلة وعزّ من وراءكم ، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يُقرِّب ذلك أحدًا إلى أجله ، وإن تفشلوا وتَهِنُوا وتَضْعفوا تذهب ريحُكم وتوبقوا آخرتكم » . ثم قال : « إني قد استخْلفتُ عليكم خالد بن عرفطة ، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون ، فإني

---

(١) الطبري : ٣ / ٤٧ ، وابن الأثير : (٢ / ١٨١ - ١٨٢) .
(٢) الطبري ٣ / ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٧٣ .

مكبٌّ على وَجْهي ، وشخْصي لكم بادٍ ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه إنما يأمركم بأمري ، ويعمل برأْيي » .

قال الطبري : « فَقُرِئ على الناس فزادهم خيرًا ، وانتهوا إلى رأيه ، وقبلوا منه وتحادثوا على السمع والطاعة ، وأجمعوا على عذْر سعد والرضا بما صنع »[1] .

لك الله أيها « الليث في براثنه » تدير أشرس المعارك .. المعركة الفاصلة ، وأنت منبطحٌ على وجهك في شرفتك ، وباب دارك مفتوح ، وأقل هجوم من الفرس على الدار يسقطك في أيديهم حيًّا أو ميتًا .

دماملك تنبح وتنزف ، وأنت عنها في شغلٍ ، فأنت من الشرفة تكبّر ، وتصيح أوامرك لجنودك : « الزموا مواقفكم ، لا تحرِّكوا شيئًا حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإني مكبرٌ تكبيرةً ، فكبِّروا وشدُّوا شِسْعَ نعالكم واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يُعْطَهُ أحدٌ قبلكم ، واعلموا أنما أعطيتموه تأييدًا لكم ، فإذا كبرتُ الثانية فكبّروا وتهيأوا ولتستتم عدتكم ، فإذا كبّرت الثالثة فكبّروا ، ولينشِّط فرسانُكم الناسَ ليبرزوا ويطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة فشدّوا النواجذ على الأضراس ، واحملوا وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوَّكم ، وقولوا : (لا حول ولا قوة إلا بالله) » .

وبعد ثلاثة أيامٍ ونصف يوم تهاوى جنود الفرس كالذبابِ المترنح .. وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار ..!!

إن المسلمين لم يلقوا في جميع حروبهم - باستثناء بلاط الشهداء في فرنسا - مقاومةً أعنف مما لقوا من الفرس في معركة القادسية ، فلقد

---

(١) الطبري ٣ / ٥٣٢ .

صبر الفرس في هذه المعركة صبرًا عجيبًا وغير معهودٍ منهم ، وأظهروا قدرة قتالية فائقة ، وأجبروا العرب على أن يقاتلوا في هذه المعركة أربعة أيام ، وخسر المسلمون في القادسية أكثر من خمسة وعشرين في المائة من قوّاتهم .

والقادسية أعظم أثرًا في تاريخ الإنسانية من غزوات تيمورلنك ونابليون ، بل من كل الغزوات التي وقعت إلى عصرنا الحاضر ، لقد كشفت معركة القادسية عن معدن سعد النفيس وفرط شجاعته ، وما إقامته بالقصر مع ما به من علَّة تمنعه من مباشرة القتال إلّا إفراطًا في الشجاعة ، فكما ذكر الراوية عثمان بن رجاء السعدي : « ولو عرّاه الصف فواق ناقة لأخذ برمّته ، فوالله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه » .

هذه المعركة التي سارت بها الجن قبل الإنس ، فبدرت امرأة ليلًا على جبل بصنعاء لا يُدرى من هي ؟ وهي تقول :

حيّيتِ عنَّا عكرم ابنة خالدٍ ... وما خيْر زادٍ بالقليل المصرَّدِ
وحيّتك عنِّي عُصْبةٌ نخْعيّة ... حِسان الوجوهِ آمَنوا بمحمدِ
أقاموا لكسْرَى يَضْرِبُون جنودَه ... بكلِّ رقيقِ السفْرتين مهنّدِ
إذَا ثوَّبَ الدَّاعي أُناخُوا بِكَلْكَلٍ ... من الموتِ تسودّ الغياطل مجردِ

وسمع أهلُ اليمامة مجتازًا يغنّي بهذه الأبيات :

وجـدْنا الأكثرين بَني تميمٍ ... غداة الرَّوْعِ أصْبرهُم رِجالَا
هُمُ ساروا بأرْعَنَ مُكْفَهرٍّ ... إلى لجبٍ فزرتهم رعالَا
بحورٍ للأكاسر مِنْ رجالٍ ... كأُسْدِ الغَابِ تحسبُهم جِبالَا
تَرْكَن لَهُم بقادِس عزّ فخر ... وبالخِيفَيْنِ أيّامًا طِوالَا

....

مقطَّعـــةٌ أكُفّهـــم وســـوقٌ ... بمردى حَيثُ قابلتِ الرِّجالَا[١]

وكتب سعد إلى عمر بخبر النَّصر على المجوس فقال : « أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتالٍ طويلٍ ، وزلزالٍ شديدٍ ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرَ الراؤون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سُلِبُموه ، ونقله عنهم إلى المسلمين ، واتَّبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام ، وفي الفجاج ، وأُصيب من المسلمين سعد بن عُبيد القارئ ، وفلان وفلان ، ورجالٌ من المسلمين ، لا نعلمهم الله بهم عالم ، كانوا يدوُّون بالقرآن - إذا جنّ الليل - دويَّ النَّحْل ، وهم آساد النَّاس ، لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل مَن مضى منهم مَن بقي إلا بفضْل الشّهادة إذ لم تُكتب لهم »[٢].

هَلْ دَحَرْنَا في القادسيَّة جَيْشًا ... بخَميسٍ مُهلْهِلٍ مُسْتَأْجَـرْ
أَمْ بِجَيْشٍ شِعَارُه دون خَوفٍ ... لا يَهابُ الحِمامَ « اللهُ أكبرْ »
مَـزَّقَ الظُّلـمَ زحفُه يَتَحـدَّى ... جَحْفلَ الظُّلْمِ بالعَقيدةِ يَزْخَرْ
عَلَّمَ الفُرْسَ والعروش تهاوى ... أنَّ عَرْشَ القُلوبِ أنْقَى وأطْهَرْ[٣]

نعم :

سَلوا فخامة كِسْرَى عن كتائبنا ... وَجَيْشَه الضَّخْمَ لمَّا مدَّت القضبُ
سرى يَجرُّ ذُيولَ الخِزْي مُنكسرًا ... وَكُسِّرَتْ عنده التِّيجانُ والحُجُبُ[٤]

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٨٣ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٥٨٣ .
(٣) من قصيدة جواب لسؤال من ديوان « في رحاب الأقصى » ليوسف العظم صـ ٦٤ .
(٤) من ديوان « لحن الخلود » لعائض القرني صـ ٨٣ - طبع هجر .

نعم يا أخي :

ومشى سَعْدٌ على أصدائِهِ يَسْتَبيحُ الفرسَ قَتلى وأُسارى

فتح البيت الأبيض :

عن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « عُصْبَةٌ من أُمَّتي يفتحون البيت الأبيضَ ؛ بيت كسرى » . رواه أحمد ومسلم .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لتفتحنّ عصابةٌ من أُمَّتي كَنْز آل كسرى الذي في الأبيض » .

أمضى سعد شهرين في القادسية بعد المعركة ، وكاتبَ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فيما يفعل ، فكتب إليه عمر بالمسير إلى « المدائن » عاصمة كسرى . وتحرّك الجيش المنتصر باتجاه المدائن ، وسار المسلمون من نصرٍ إلى نصرٍ في « برس » وفي بابل وفي « بهرسير » . وبذلك أصبح جيش المسلمين في الضفة المقابِلة للمدائن ، وحاول سعد أن يُؤمِّن عبور جيشه في السفن ، فلم يقدر على شيء منها ؛ لأن الفرس ضمُّوا السفن ليحرموا المسلمين من الإفادة منها[1] . وكان النهر عريضًا طافحًا بالماء ، يقذف بالزَّبَد لشدَّة جَرَيانه ، وموجُه متلاطِم ، وزاد المدُّ فيه ، وارتفعتْ مياهه ارتفاعًا كبيرًا ، وفي ليلةٍ من ليالي سعد ، رأى رؤيا خلاصتها أن خيول المسلمين اقتحمتْ مياه دجلة الهادرة وعبرتْ ، وقد أقبلتْ من المدّ بأمرٍ عظيم .

عبور لا مثيل له في التاريخ :

فصدّق الرؤيا ، وعزمَ على عبور النهر ، فجمع الجيش وقام فيهم خطيبًا ،

---

(١) الطبري ٣ / ١١١٩ .

فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « إن عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلُصُون إليه معه ، وهم يخلُصون إليكم إذا شاءوا فيُناوِشُونَكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تُؤتَوْا منه ، فقد كفاكُمُوهُ أهل الأيام ، وعطَّلُوا ثغورهم ، وأفنَوْا ذادتهم ، وقد رأيت من الأوفق أن تبادروا جهاد العدو بنيّاتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إني قد عزمتُ على قطْع هذا البحر إليهم . فقالوا جميعًا : عزمَ اللهُ لنا ولك على الرُّشد ، فافعل »[١] .

وندب سعد الناس للعبور ، ثم قال : « من يبدأ ويحمي لنا الفراض[٢] لكيلا يمنعونا من العبور » . فانتدب عاصم بن عمرو التميمي ، وانتدب معه ستمائة من أهل النّجدات ، فعبر هؤلاء المغاوير ، وعبر سعد مع جيشه بعدهم ، ففاجأوا أهل فارس بأمرٍ لم يكن في حسابهم .

سبحان الله !! نهر هادر لا يقلّ عُمق مياهه عن ستة أمتار تخوضه الخيول سباحةً وعلى رأسها الفرسان يقاتلون .

قال لهم سعد وهم يخوضون ليصلوا إلى شاطئ أسبانير : « قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم »[٣] .

لقد اقتحموا دجلة ما يكترثون ، وإنهم ليتحدثون أثناء عبورهم النهر الهادر كما يتحدثون في مسيرتهم على الأرض .

نجحت خطة سعد نجاحًا يذهل له المؤرخون ، نجاحًا أذهل سعدًا

---

(١) الطبري ٣ / ١١٩ ، وابن الأثير ٢ / ١٩٨ ، وفتوح الشام للواقدي ٢ / ١٢٧ .

(٢) الفراض : جمع فرضة ، وهي ثغور المخاضة من الناحية الأخرى ويُسمَّى في المصطلح العسكري رأس جسر .

(٣) الطبري ٤ / ٤٨ .

نفسه وأذهل صاحبه ورفيقه في المعركة « سلمان الفارسي » . « عامت بهم الخيل وسعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليّه ، وليُظهرنّ الله دينه ، وليهزمنّ الله عدوّه ، إن لم يكن في الجيش بغيٌ أو ذنوبٌ تغلب الحسنات » . فقال له سلمان : « الإسلام جديد ، ذُلِّلتْ لهم والله البحور ، كما ذُلِّلَ لهم البرُّ . أما والذي نفسي بيده ليخرجُنّ منه أفواجًا كما دخلوه أفواجًا . لم تَضِع منهم شكيمةُ فرسٍ »[1]. فطبّقوا الماء حتى ما يُرى الماء من الشاطئ ، ولهم فيه أكثر حديثًا منهم في البر لو كانوا فيه ، فخرجوا منه - كما قال سلمان - لم يفقدوا شيئًا ، ولم يغرق منهم أحد ، إلا رجلًا من بارق يُدعى غرقدة زال عن ظهر فرسٍ له شقراء ، قال أبو عثمان النهدي : كأني أنظر إليها تنفض أعرافها عريًا والغريقُ طافٍ ، فثنى القعقاع عنانَ فرسه إليه ، فأخذه بيده فجرّه حتى عبر ، فقال البارقي - وكان من أشدّ الناس - : عجز الأخواتُ أن يَلِدْنَ مثلك يا قعقاع . وكان للقعقاع فيهم خؤولة .

يوم الجراثيم :

روى أبو جعفر في تاريخه ، أن سعدًا لمّا أقحم الناس في دجلة ، اقترنوا - أي صار لكل رجلٍ قرين يُلازمه أثناء العبور - فكان سلمان الفارسي قرين سعد إلى جانبه يُسايره في الماء ، فقال سعد : ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ ، والماء - لشدّة جريانه - يطمو بهم ، وما يزال فرس يستوي قائمًا ، إذا أعيا يُنشِز له تلعةً فيستريح عليها كأنه على الأرض ، فلم يكن بالمدائن أعجب من ذلك ، وذلك يوم الماء ، وكان يُدعى يوم الجراثيم . ومن عناية الله تعالى بالجيش المجاهد ، أنه لا يعيى فرس أحدٍ أثناء عبور النهر

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ٤ / ١١ .

إلّا جرثومة يريح عليه .

وعن قيس بن أبي حازم قال : خُضنا دجلة وهي تطفح ، فلمّا كُنّا في أكثرها ماءً ، لم يزل فارس واقفًا ما يبلغ الماء حزامه ، قال المسلمون : ما تنتظرون بهذه النطفة ؟ فاقتحم رجلٌ فخاض الناس ، فما غرق منهم إنسان ، ولا ذهب لهم متاع[١].

تموت المبادئ في مهدها ويبقى لنا المبدأُ الخالدُ
مراكبُ أهلِ الهوى أُتخمتْ نُزُولًا ومركبُنا صاعِدُ
سوانا يَلُوذُ بعرّافةٍ وأسطورةٍ أصلُها فاسدُ
يحدِّثنا الليلُ عن نَفْسِهِ وفيه على نفسه شاهدُ
إذا عدَّد الناسُ أربابهم فنحن لنا ربّنا الواحدُ[٢]

وأثناء العبور لم يذهب لأحدٍ من الجيش شيءٌ ، إلّا قَدَح كانت له علاقة رثّة فانقطعتْ ، فذهب به الماء ، فقال صاحبه : والله إني لعلى جديلة ، ما كان الله ليسلبني قدحي من بين أهل العسكر . فلمّا عبر ، قذفتِ الرياحُ والأمواج قدحه فأخذه .

ما تُقاتلون إلَّا الجِنَّ :

نظر جنود « يزدجرد » إلى هذه الخيل التي ملأت دجلة ، وجعلوا يردِّدون بالفارسية (ديوان آمد) ويقول بعضهم لبعض : « والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن » .

قال أبو عثمان النهدي : « طُبقت دجلة خيلًا ودوابَّ حتى ما يرى

---

(١) القادسية لمحمد أحمد بشاميل ٧٤٤ - ٧٤٦ .

(٢) قصيدة موقف من ديوان « شموخ في زمن الانكسار » لعبد الرحمٰن صالح العشماوي صـ ٥ طبع مكتبة الأديب بالرياض .

الماء من الشاطئ أحد ، فخرجتْ بنا خيلُنا إليهم تنفض أعرافها ، لها صهيل ، فلمّا رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء » .

وفزع يزدجرد ملك الفرس ، وما استطاع أن يخرج من باب قصره المواجه للشاطئ ، وكان بينه وبين الشاطئ ثلاثة كيلو مترات ..... فدلّاه من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض في زنبيل .. ليفرّ من المدائن ومعه ألف طبّاخ وألف فهّاد وألف بازيار .

إي والله ، في زنبيل !! هذه نهاية الطواغيت .

حتى خيولهم أصابها الرعب نصرًا لأنصار الله ؛ فقد جاء في تاريخ الطبري (٤ / ٥٣) : « أن أوائل كتيبة الأهوال بقيادة عاصم أدرك رجالها مؤخرة المجوس ، وفيهم فارس منهم يعترض على طريقٍ من طرقها ، يحمي مؤخرة أصحابه في فرارهم ، وهو يضرب فرسه للإقدام فيُحجم ، ثم يضربه للهرب فيتقاعس ، حتى لحقه رجل من جيش سعد يُدعى ثقيفًا من بني عدي بن طريف ، فضرب عنقه وأخذ ما كان عليه . ودخل سعد المدائن ، وانتهى إلى إيوان كسرى ، فأقبل يقرأ قوله تعالى : ﴿ **كَمْ تركوا من جنات وعيون * وزروعٍ ومقامٍ كريم * ونعمةٍ كانوا فيها فاكِهين * كذلك وأورثناها قومًا آخَرين** ﴾ [الدخان : ٢٥ : ٢٨] »[١] .

الفـاتح العظـيم :

وجّه سعدٌ هاشمَ بنَ عتبة بن أبي وقاص ومعه القعقاع لفتح محور ديالي ، فانتصر هاشم في معركة جلولاء ، وفتح القعقاع وجرير بن عبد الله البجلي خانقين وحلوان وقصر شيرين .

---

(١) الطبري ٤ / ١٦ .

كما وجّه عبد الله بن المعتم وربعي بن الأفكل وعرفجة بن هرثمة البارقي إلى محور دجلة ، ففتح عبدُ الله بن المعتم تكريت ، وفتح ربعيُّ ابن الأفكل الموصلَ ، ولمّا رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن ، بلغ سعدًا أن الفرس قد حشدوا قواتهم في سهل ماسبذان ، فأرسل سعد إليهم ضرار بن الخطاب الفهري ، فانتصر المسلمون على الفرس ، وفتح ضرار ماسبذان .

ووجّه سعدٌ عمرَ بنَ مالك الزهري والحارث بن يزيد العامري لفتح محور الفرات حتى قرقيسياء الواقعة في ملتقى خابور الفرات بنهر الفرات ، ففتحا هذه المنطقة .

كما وجّه سعدٌ عتبةَ بن غزوان لفتح جنوب العراق ، ففتح منطقة البصرة والأهواز .

كما وجّه عتبةَ بنَ فرقد السلمي لفتح شمالي العراق وأذربيجان ، ففتح تلك المناطق .

ووجّه سعدٌ عياضَ بن غنم وسهيلَ بن عدي وعبدَ الله بن عبد الله ابن عتبان لفتح الجزيرة ، ففتحوا منطقة الرّقّة ونصيبين وحرّان والرّها .

فالفتوحات الإسلامية إذن التي جرت في العراق ، وفي شرقه وشماله حتى نهاية سنة عشرين الهجرية ، فتحها سعدٌ بنفسه ، أو أرسل إليها الجيوش والقادة لفتحها ، وحتى الجيش الذي فتح نهاوند أرسله سعد ، ولكن فَتْحَهَا جرى بعد عزله .

ولقد كان فتح سعد لهذه البلاد فتحًا مُستدامًا . لقد فتح سعد العراق ، وأكثر بلاد فارس ، وأذربيجان ، والجزيرة وبعض أرمينية ، أي أنه فتح بصورة مباشرة العراق الحديث ، وأكثر إيران بحدودها اليوم ، وفتح

القسم الجنوبي من تركيا المتاخمة لإيران ، والقسم الواقع في شمالي إيران والذي يحدّ روسيا . وفوق ذلك مَصَّر الكوفة وكوَّفها ، فأصبحت القاعدة الأمامية للفتح الإسلامي في الشرق كله ، وأمدّت العالم الإسلامي بعددٍ ضخم من قادة الفتح والفاتحين .

فرضي الله عن سعد الفاتح العظيم .

وأخيرًا تبقى كلمة :

سأل عمرُ بن الخطاب فارسَ اليمن عمرو بن معديكرب عن سعد فقال : « متواضع في خبائه ، عربي في نمرته[١] ، أسد في تاموره[٢] ؛ يعدِل في القضية ، ويقسم بالسَّوِيَّة ، ويبعد في السَّرِيَّة ؛ يعطف علينا عطف الأُمِّ البَرَّة ؛ وينقل إلينا حَقَّنا نَقْلَ الذَّرَّة »[٣] .

خالد بن الوليد القرشي المخزومي ، سيف الله تعالى وفارس الإسلام ، وَلَيْثُ المَشَاهِد ، السيد الإمام الكبير ، قائد المجاهدين ، أبو سليمان :

ابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث .

عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابنَ رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : « أخذ الراية زيد فأُصيب ، ثم أخذ جعفر فأُصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم »[٤] .

---

(١) كساء فيه خطوطٌ بيض وسود ، تلبسه الأعراب .
(٢) التّامور : هو عرين الأسد ، وهو بيته الذي يأوي إليه .
(٣) أسد الغابة ٢ / ٢٩٢ ، والبيان والتبيين للجاحظ ٢ / ٦٨ .
(٤) رواه البخاري والنسائي ، وأحمد ، وأبو يعلى ، والبيهقي .

« عن أبي قتادة فارس رسول الله ﷺ قال : بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أُصيب فجعفر ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة الأنصاري » . فوثب جعفر فقال : بأبي أنت يا نبي الله وأمي ، ما كنت أرهب أن تستعمل عليّ زيدًا ! قال : « امضوا ، فإنك لا تدري أيّ ذلك خير » . قال : فانطلق الجيش ، فلبثوا ما شاء الله ، ثم إن رسول الله ﷺ صَعِدَ المنبر وأمر أن يُنادى : الصلاة جامعة ، فقال رسول الله ﷺ : « تاب خبر - أو ثاب خبر . شكَّ عبد الرحمٰن - ألا أُخبركم عن جيشكم هذا الغازي ؟ إنهم انطلقوا حتى لَقُوا العدوَّ ، فأُصيب زيدٌ شهيدًا ، فاستغْفِرُوا له » فاستغفر له الناسُ « ثم أخذ اللواءَ جعفرُ ابن أبي طالب ، فشدَّ على القوم حتى قُتل شهيدًا أشهدُ له بالشهادة ، فاستغفِرُوا له . ثم أخذ اللّواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميْه حتى أُصيب شهيدًا ، فاستغفروا له . ثم أخذ اللِّواء خالد بن الوليد ، ولم يكُن من الأمراء ، وهو أمَّر نفسه » فرفع رسول الله ﷺ أصبعيه وقال : « اللهم هو سيفٌ من سيوفك فانصُرْهُ » . وقال عبد الرحمٰن - مرةً - : « فانتصر به » . فيومئذٍ سُمِّي خالد سيف الله ، ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « انفروا فأمِدُّوا إخوانكم ، ولا يتخلفنّ أحد » . فنفر الناس في حر شديد مشاةً وركبانًا »[1].

لمَّا أتى خالدٌ مسلمًا هو وعمرو بن العاص قال ﷺ : « ألقت إليكم مكةُ أفلاذ أكبادها » . وقال النبي ﷺ : « اللهمَّ اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أوضع فيه من صَدٍّ عن سبيلك » .

قال خالد : فوالله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمتُ يعدِلُ بي

(١) إسناده صحيح . أخرجه أحمد ، والنسائي في فضائل الصحابة .

أحدًا من أصحابه فيما يُجزئه .

وفي رواية : فيما كان حَزَبَه . وفي رواية عمرو : في أمرِ حَرْبِهِ[(١)] .

في مؤتة :

كانت هذه أول معركة يشترك فيها خالد بعد إسلامه ، وبعد قتْل قادة الجيش الثلاثة ، وانكشاف صفِّ المسلمين ، دَفَعَ ثابتُ بن أقرم اللِّواء إلى أبي سليمان خالدٍ قائلًا : « خذ اللواء يا أبا سليمان ، فأنت أدْرَى بالقتال مني ، والله ما أخذتُه إلا لك » .

تلقَّى خالد اللواء ، وأصبح قائدًا عامًّا لقوات المسلمين في أصعب ظروف .. جيش أنهكه القتال الشديد الضَّاري طيلة الأيام الستة .. ثلاثة آلاف مسلم يواجهون جيشًا قوامه مائتا ألف مقاتل ، جيش قد انفرط عقده وفقد تنظيمه ، موقف جعل هذا الجيش مُهَيَّأً لأن يُدمَّر تدميرًا كاملًا ، أو يقع بكامله أسيرًا في قبضة الرومان وأحلافهم من العرب .

« واعتلى العبقري جواده ، ودفع الراية بيمينه إلى الأمام ، كأنما يقرع بها أبوابًا مغلقة آن لها أن تُفتح ، على طريق طويل لَاحِب سيقطعه البطل وثْبًا وثبًا في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته ؛ حتى تبلُغ المقادير بعبقريته أمرًا كان مقدورًا »[(٢)] .

وقد كانت خطة انسحاب خالد بالجيش رائعة ... فقد قام بتبديل كلِّيّ في الميمنة والميسرة والقلب من جيشه ، فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة ، كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة ، كما استبدل

---

(١) طبقات ابن سعد ٤ / ٢٥٢ ، ٧ / ٣٩٤ .

(٢) رجال حول الرسول صـ ٣٠٩ .

رجال القلب برجال آخرين ، كل هذا في ظلام الليل ، وجعل مقدمة الجيش ساقةً ، وساقته مقدمةً ، أي أنه سحب جيشه من ساحة المعركة ، وأبقى ساقةً تحمي الانسحاب ، نَشَر هذه الساقة ليحتلّ فرسانها مساحةً شاسعة من الأرض ، وأمرهم أن يُحدثوا أصواتًا مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول حربية ، وإثارة الغُبار بالخيل تدور بسرعة في دوائر ضيقة . كل هذا ليدخل في نفوس قادة الروم ويوهمهم أن جيشًا جديدًا ومددًا كبيرًا ، قد جاء لجيش المسلمين . هذه هي الخطة التي وضع القائد المحنَّك الفذّ ، فأنقذ بها جيش الإسلام من فناء محقق . فقد وجد الرومان أنفسهم – أثناء تقابُل الصفوف في اليوم السابع – أمام قادة وجنود وهيئات وراياتٍ غير التي كانوا يواجهونها في الصفوف الأُولى أثناء القتال في الأيام الستة الماضية . ووجد الرومان غبارًا يسدُّ الأفق من بعيد ، ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامي ، ودوَّتْ أصوات التهليل والتكبير ، منبعثةً من بين ثنايا ذلك الغبار الذي حجب الأفق ، ثم انشقَّ هذا الغُبار عن كتائب من الفرسان ، تتبع إحداهما الأُخرى في تنسيقٍ وإحكامٍ راكضةً نحو المسلمين في مؤتة ، قد رجفتِ الأرضُ رجفًا لوقْع حوافر خيلها المنطلقة ، وأصوات فرسانها تصمّ آذان الرومان بالتهليل والتكبير ، واهتزّ معسكر المسلمين المواجه للرومان بالتهليل والتكبير . ودبّ الفزع في نفوس الروم وسادهم الهرج والمرج ، ولسان حالهم يقول : إذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالرومان هذه الأفاعيل طيلة الأيام الستة ، فما عساهم فاعلين بعد مجيء هذا المدد ؟!

نعم ، إن ثبات المسلمين في وجه الرومان طيلة الأيام الستة ، هو أرقى مراتب النصر والغَلَبة .

وأدرك خالد بحسّ القائد المحنّك ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوفٍ ورعبٍ ، نتيجة خدعته الحربية البارعة المحكمة ، فاغتنمها فرصةً ،

فأمر في الحال بالهجوم على خطوط الرومان ، وبأسلوب عامّ صاعِق كاسِح فتمَّ له ما أراد .

« وتضعضعتْ خطوط الروم الأمامية ، وركبهم المسلمون وأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمة ، كانت بكل معاني الكلمة « مذبحة » وَصَفَهَا الواقدي في كتابه « المغازي » بقوله : « فرُعِبوا فانكشفوا منهزَمين ، فقتلوا مقتلةً لم يُقتلها قوم قطُّ »[(١)].

وقال ابن سعد في طبقاته : « ثم أخذ خالد اللواء ، ثم حمل على القوم ، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتُها[(٢)] قطُّ ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا »[(٣)].

كان القتال ضاريًا ، خاضه المسلمون بحنقٍ وغيظ ، وكان الرومان في تراجعهم أمام هجوم خالد يقاتلون بشراسةٍ ، وليس أدلّ على عنف المعركة من قول خالدٍ نفسه : « لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسيافٍ ، فما بقي في يدي إلّا صفيحة يمانية »[(٤)].

لله دَرُّك يا خالد ، تسعة أسيافٍ تتكسَّر في يدك !! ومن أوْلى منك بهذا .

أناضـل عن دينٍ عظيم وهبتُهُ عطاء مُقِلٍّ مهجتي وحياتيـا

---

(١) مغازي الواقدي ٢ / ٧٦٤ تحقيق الدكتور مارسدن جونس - طبع جامعة أكسفورد .

(٢) الرواي هنا أحد الصحابة وهو أبو عامر .

(٣) الطبقات الكبرى ٢ / ١٣٠ ، مؤتة لمحمد أحمد بشاميل صـ ٢٠٧ .

(٤) رواه البخاري ، وأحمد في فضائل الصحابة ، وابن سعد ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك .

ومُمْتَثِـــل لله أسْـــلَمَ وجهَـــهُ يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
وخالدُ سيفُ الله أسلم وجهَهُ يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
بظهري ببطني بالذراع بمقلتي بجنبي بعظمِ الصدرِ حتى التَّراقِيا
فلم أرَ يومًا كالتقـدُّم لـذَّةً ولم أرَ عيشًا كالتقـدم هانـيا
على ذروة التوحيد تخفق رايتي وتحـت روابيها تصبّ دمائيا

وانسحب الجيش الإسلامي بكل هدوء وضبط وانتظام ، فقد انسحبت قوات القسم الأكبر[1] من المسلمين ، ومع ذلك لم يكن سَحْبُ الساقة سهلًا ، وذهل الروم أمام هذه المفاجأة والخدعة الحربية البارعة ، وما استطاعوا أن يتعقّبوا المسلمين أثناء انسحابهم مسافة ستمائة ميل ، حتى وصل الجيش سالمًا إلى المدينة ، فلمّا وصل الجيش إلى ضواحي المدينة (الجرف) ، جعل أهل المدينة يصيحون بالجيش « يا فُرّار .. فررتم » ... ويحثون في وجوه الجند والقادة التراب . وأتت كلمة الوحي ناصعة تردّ الأمر إلى موضعه ، فقد قال رسول الله ﷺ : « ليسوا بفُرَّار ، ولكنهم الكرّار في سبيل الله » . وتكفي شهادة الرسول ﷺ شهادة .

ثم علم المسلمون بعدُ قدْر تضحية خالد وبذْله ، وأن انسحابًا كهذا كان من الاستحالة بمكان .. ولكن لا مستحيل على القلب الشجاع ، ومن أشجع من خالدٍ قلبًا ، وأروع عبقريةً وأنْفَذ بصيرةً ؟!

في فتح مكة :

قال النبي ﷺ للزبير وخالد : « لا تقاتلا إلَّا من قاتلكما » . وكان خالد على ميمنة قوات المسلمين ، وكان عليه أن يدخل مكة من أسفلها

(١) القلب والميمنة والميسرة والمقدمة كما يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب .

من « اللِّيط » ، إلّا أن بعض رجالات قريش جمعوا ناسًا بالخندمة أسفل مكة ؛ ليقاتلوا المسلمين ويصدّوهم عن فتح مكة ، وكما قال خالد : « بدءونا بالقتال ، ورمونا بالنَّبل ووضعوا فينا السلاح ، وقد كففتُ ما استطعتُ ،ودعوتُهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى إذا لم أجد بُدًّا من أن أقاتلهم ، فظفَّرَنا الله بهم ، فهربوا من كل وجه »[1]. وقتل من المشركين ثمانية وعشرون رجلًا ثم انهزموا .

يقول ابن حماس الدّيلي فارسُ مكة ، لما عاتبتْه زوجُه على فراره في الخَنْدَمة :

وأنتِ لو شهدتِنا بالْخَنْدَمَهْ ... إذ فَرَّ صفوانٌ وفَرَّ عِكْرِمَهْ
وأبو يزيدَ كالعجُوزِ المُؤْتِمَهْ[2] ... إذ يلحقونا بالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ ... ضَرْبًا فلا يُسْمَعُ إلَّا غَمْغَمَهْ
لهمْ زئيرٌ خَلْفَنَا وَهَمْهَمَهْ ... لم تَنْطِقِي في اللَّوْمِ أدْنَى كَلِمَهْ[3]

وعاد المسلمون إلى مكة على صهوات جيادهم الصّاهلة ، وتحت رايات الإسلام الخافقة ، وتكبيراتهم الصّادِعة الرائعة ، ترجّ مكة رجًّا ، وتهليلاتهم الباهرة الظافرة ، يبدو الكون معها ، وكأنه كلّه في عيد .

خالد يقتل العُزَّى ويهدمها :

وهذا البطل مرة أخرى يستبدّ به تَوْقٌ عارِم إلى هدم عالمه القديم كله ، ومظاهر الشرك ، فعن أبي الطُّفيل قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه

---

(١) السيرة الحلبية ٢ / ٢٠٩ .

(٢) هي المرأة التي قُتل زوجها فبقي لها أيتام .

(٣) سيرة ابن هشام ٤ / ٥٠ ، ومغازي الواقدي ٢ / ٨٢٧ ، والبداية والنهاية ٤ / ٢٩٧ .

وآله وسلم مكة بعث، خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العُزَّى ، فأتاها خالد بن الوليد،وكانت على تلال السَّمُرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « ارجع فإنك لم تصنع شيئًا » . فرجع خالد ، فلمّا نظرتْ إليه السَّدَنةُ - وهُمْ حُجَّابُها - أمعنوا في الجبل وهم يقولون : يا عُـزَّى خَبِّليه ، يا عزى عَوِّريه ، وإلَّا فموتي برغم . قال : فأتاها خالد ، فإذا هي امرأة عريانة ناشرةٌ شعرها تحثو التراب على رأسها ، فعمَّمها بالسيف حتى قتلها ، ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره قال : « تلك العزى »[1].

وفي رواية : فلما سمع سادِنُها بمسير خالدٍ إليها ، علّق عليها سيفه ، والتجأ إلى الجبل الذي هي فيه وهو يقول :

أيا عُزّ شدّي شدّةً لا شوًى لها[2] على خالدٍ ألقي القناعَ وشمِّري
ويا عُزّ إن لم تقتلي اليوم خالدًا فبُوئي بإثمٍ عاجلٍ أو تنصَّرِي

فلما انتهى إليها خالد هدمها وهو يقول :

يا عُـزّ كُفـرانك لا سبحانكْ إني رأيـتُ الله قـد أهـانكْ

وعند الطبري (٣ / ٦٥) :

يا عُزّ شُدِّي شدَّةً لا سِواكِها على خالدٍ أَلقِي الخمارَ وشَمِّرِي
فإنَّك إن لا تَقْتُلي المرءَ خالدًا تبوئي بذنبٍ عاجـلٍ وتُقَصـِّرِي

فشد خالد عليها ، فقتلها ، وقال : ذهبت العزى ، فلا عزى بعد اليوم .

---

(١) حسن . رواه أبو يعلى في مسنده (٢ / ١٩٦) . وهو حسن .
(٢) أي لا تُبقي على شيء .

هَدم خالدٍ لِوُدّ :

ويعود البطل راسخ العقيدة ثانيةً إلى الأصنام ، فقد « بعث النبي ﷺ خالدًا لهدم « ود »[1] في دومة الجندل ، وقد بعثه من غزوة تبوك ، فحالتْ بنو عبد ودّ وغيرهم بينه وبين هدمه ، فقاتلهم خالد ، وبعد دحرهم هدمه وكسّره جذاذًا »[2].

أسْرُه لأُكَيْدِر صاحب دومة الجندل :

وفي أثناء مقام النبي ﷺ في تبوك ، أرسل خالدًا في أربعمائة وعشرين فارسًا إلى أُكيدر بن عبد الملك الكِنْدي ثم السكوني صاحب « دومة الجندل » ، وكان أُكيدر قد خرج من حصنه في ليلةٍ مقمرةٍ إلى بقر الوحش يطارده هو وأخوه حسان ، فهاجمته خيل خالد ، فاستأسر أُكيدر ، وامتنع أخوه وقاتل حتى قُتل ، ثم هرب من كان معهما ، وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله ﷺ ، على أن يفتحوا له دومة الجندل ، فدخلها المسلمون ، وصالحه خالد على ألفيْ بعيرٍ وثمانمائة رأس وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، ثم خرج خالد بأكيدر وأخيه « مصاد » قافلًا إلى المدينة ، وهناك صالحه النبي ﷺ على الجزية وحقن دمه ، ودم أخيه ، وخلّى سبيلهما ، وكتب له كتابًا فيه أمانهم وما صالحهم عليه .

لله دَرُّ خالدٍ .. **إن فترة إسلامه التي قضاها إلى جانب الرسول** ﷺ لا تتجاوز أربع سنوات ، بينما قاتل شمالًا على حدود أرض الشام ، وجنوبًا في اليمن ، وشهد أحد عشر مشهدًا ، قاتل في ثلاثة مشاهد منها تحت لواء

---

(١) تمثال رجل كبير الجسم ، عَبَدَهُ بنو كلب بن وبرة من قضاعة بدومة الجندل .

(٢) قادة فتح العراق والجزيرة صـ ٩٠ ، نقلًا عن « خالد بن الوليد » لأبي زيد شلبي صـ ٨٦ – ٨٨ .

الرسول القائد ﷺ ، وقاتل في ثلاثة مشاهد منها قائدًا مستقلًا ، ولم يُقاتل في خمسة مشاهد منها ، بل أنجز واجبه سِلمًا ، فمن أين له الوقت الكافي لتحقيق كل هذه الأعمال !!

لقد كان خالد موضع ثقة الرسول ﷺ ، وكانت له قابليّات نادرة في القيادة العسكرية خاصَّة لا يجود بها الزمان إلا نادرًا ، فلا عجب أن يقول الرسول ﷺ عنه : « نعم عبد الله وأخو العشرة ، وسيف من سيوف الله سلَّه الله على الكفار والمنافقين »[١] .

خالد وحروب الرِّدَّة :

لقد كانت حروب الردة - التي استمرت ملتهبةً حوالي سنةً كاملة - أعنف ما شهد العرب المسلمون في تاريخهم العسكري ، وأبرزتْ هذه الحروب وكشفتْ معادن الرجال ، وخالد بن الوليد لم يقم أي محاربٍ مقامه في منازلة أهل الردة والقضاء على فتنتهم ، وكانت مسرح أعماله الرئيسية منطقة « بزاخة » ببلاد بني أسد ، ومنطقة البطاح في ديار بني تميم ، ومنطقة اليمامة موطن بني حنيفة وكانوا أكثر وأشرس قوةٍ قارعها خالد في حياته .

مع طليحة في بزاخة :

التقى خالد مع طليحة الأسدي في بزاخة ، فتقاتل الطرفان قتالًا شديدًا ، ولما رأى طليحة أن كفَّة المسلمين رجحت على كفّة أتباعه ، ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها ، وقال : « يا معشر فزارة ، من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته ، فليفعل » . وبذلك قضى خالد على فتنة طليحة وأعاد الإسلام إلى بزاخة . ولقد حطّم انتصار خالد معنويات أسد وغطفان والقبائل الأُخرى كبني عامر وسُليم وهوازن ، فبايعوه وعادوا إلى الإسلام ،

---

(١) الاستيعاب ٢ / ٤٢٩ ، وقادة فتح العراق والجزيرة صـ ٩٤ ، ٩٥ .

ولم يقبل منهم إلَّا أن يأتوه أوّلًا بالذين حرّقوا ومثّلوا وَعَدَوْا على الإسلام ، فأتوْا بهم ، فمثّل بهم وحرّقهم ، ورضخهم بالحجارة ، ورمى بهم من الجبال ، ونكّسهم في الآبار[1] .

في اليمامة مع مسيلمة الكذّاب :

بعد أن فشل عكرمة بن أبي جهل وشرحبيلُ بن حسنة في القضاء على المرتدين في اليمامة ، سار إليها خالد ، فلمّا كان على بُعْد ليلةٍ من معسكر مسيلمة ، هجم على مفرزة من بني حنيفة بإمرة « مجاعة بن مرارة الحنفي » قوّتُها ما بين ثلاثين أو أربعين فارسًا ، فأسرهم وقتل أصحاب « مجاعة » ، واستحياه رهينةً لشرفه في بني حنيفة . **والتقى الجمعان في عقرباء ، واشتدّ** القتال ، وتكسّرت في يد خالد تسعة سيوف ، واشتدّ القتال بشكلٍ لم يسبق له مثيل ، **وانهزم المسلمون حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد ، ولكنّ** المسلمين عادوا فاستقتلوا ، فقال خالد : « يَاأَيُّهَا الناس ، امتازوا ؛ لنعلم بلاء كلِّ حيٍّ ولنعلم من أين نُؤتى » . وكان النصر بعد جهدٍ جهيدٍ لأنصار دين الله ، وانتصر ثلاثة عشر ألف مسلم على رجال مسيلمة وعددهم حوالي أربعين ألف مقاتل أو أكثر ، وقُتل من بني حنيفة في معركة اليمامة أربعة عشر ألفًا ، وقُتل منهم في الطلب سبعة آلاف[2] ، وقُتل عدو الله مسيلمة ، وقُتل من المسلمين ثلاثمائة وستون من المهاجرين والأنصار ، وثلاثمائة من المهاجرين من غير أهل المدينة ، وثلاثمائة من التابعين ، وقتل من القُرّاء خمسمائة ، فكان جملة من قتل من المسلمين ألفًا ومائتي شهيد ، أي أن نسبة شهداء المسلمين إلى قتلى المشركين تُعادل ستة بالمائة فقط ، وهذا يعدُّ من أروع الانتصارات .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٣٣ .

(٢) الطبري (٢/ ٥١٦) ، وابن الأثير (٢/ ١٤٠) .

فللَّه درُّك يا خالد وأنت تريد قتل مسيلمة ، وما تطلب من الفرسان حين تشدُّ عليه إلّا حماية ظهرك فقط ، وتقول : « لا أُوتينّ من خلفي » . فلا يثبت لك الكافر .

لقد أبلى خالد في قتال أهل الردة بلاء عظيمًا .. ولله دَرُّ أبي بكر حين قال فيك : « ما كنتُ لأَشِيمَ سيفًا سلَّه الله على الكافرين »[١] .

هازم الفرس في أرض العراق :

« عجزت النساء أن يلدن مثل خالد » . [الصديق أبو بكر] .

لقد كان خالد قائدًا لا يُجارَى ولا يُبارى في خططه وأسلوب قتاله وشجاعته ، وأُقسِمُ بالله أن معاركه كانت أغرب من الخيال ، وله في كل معركة ذكْر ونبأ تطير بذكره الرّكبان .

كاظمة ميدان المعركة الأولى مع الفرس :

وفيها كان قائد قوات الفرس « هرمز » ، أرسل إليه خالد رسالةً مع رجل اسمه « ازاذبة » وكان نص رسالة خالد الخالدة : « أمّا بعد ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذِّمَّة وأقرر بالجزية ، وإلّا فلا تلومنّ إلّا نَفْسَكَ ، فقد جئتُك بقومٍ يحبّون الموتَ كما تحبون الحياة » . وفي رواية : « جئتكم بقومٍ يحبون الموتَ كما تحبون شُرب الخمر » . قد كان ابن الوليد قمة في سياسته العسكرية ، وقدرته على المناورة وخداع العدو ، لإنزال الهزيمة به بأقلّ خسارة ممكنة في جيش الإسلام ، فتوقّع هرمز أن خالدًا سيتجه بجيشه إلى كاظمة في أول الأمر ، فوجّه كافة قواته إلى كاظمة ، واستعدّ جندُه وحفروا الخنادق ، ولكن خالد الذي قسم جيشه وفرّقه إلى ثلاث فرق ،

---

(١) الطبري (٢ / ٥٠٣) ، وابن الأثير (٢ / ١٣٧) .

لم يحملهم على طريق ليُعمِّي وجهته عن عدوه ، فيظل في حيرةٍ من أمره حتى آخر لحظة ، وأربك خالد القائد الفارسي وفتّت أعصابه ، فتخطّى كاظمة ، واتجه نحو الحفير الواقعة شمال كاظمة وغربي الأبلَّة . وعندما لم يجد هرمز أي أثرٍ لخالد في كاظمة ، وأنه تخطَّاها نحو الحفير ، اغتاظ وأصدر أمره إلى الكتائب في جيشه بأن يعودوا جميعًا إلى الحفير لمصادمة جيش خالد ، وأمر هرمز قواته بأن تُجهد نفسها في التّحرّك ؛ ليسبق خالدًا إلى الحفير ، وهذا هو الذي هَدَفَ إليه القائد الفذّ خالدٌ ؛ أن يُرهق عدوه نفسيًّا وجسديًّا قبل نشوب المعركة ، وعن عمدٍ تباطأ خالد بجيشه في السير نحو الحفير ليسبق إليها القائد هرمز ، وفعلًا وصل هرمز الحفير على عجلٍ ليسبق إليها خالدًا ، ثم أمر جنده بحفر الخنادق في الحفير استعدادًا لمواجهة خالد ، ولما تلقّى خالد من استخباراته أن هرمز قد أرهق جنده بحفر الخنادق والتعبئة للقتال ، عطف بجيشه راجعًا إلى كاظمة ، وكان المغاوير من مقاتلي الفرس - بعد حفر الخنادق في الحفير - قد ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل ؛ توطينًا لأنفسهم على الموت ، أو إحراز النصر ، ولما أبلغتْ هرمز استخباراتُه أن خالدًا وجيشه قد عطف نحو الكاظمة راجعًا ، استشاط غضبًا وتوتّرتْ أعصابه للغاية ، فأصدر أمره إلى جيشه بالعودة نحو كاظمة ، وهناك وجد خالدًا في انتظاره ، قد عبَّأ جيشه للقتال ، وكانت قوات الفرس أضعاف أضعاف المسلمين ، وحال هرمز وقواته بين المسلمين وبين نهر الفرات ، ومنعوهم الماء ، فقال خالد كلمته الخالدة : « ألا انزلوا وحطّوا رحالكم ، فلعمري ليصيرنّ الماء لأصْبر الفريقين وأكرم الجُنْدَيْن »[1]. ودعا هرمز خالدًا للبِراز ، وسرعان ما أجابه خالد ، ولكن هرمز الخبيث - الذي ضُرب به المثل فيه فقيل : أَخْبَثُ من

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٤٩ .

هرمز ، وأكفر من هرمز - قد عهد إلى فرسانه عهدًا للغدر بخالد ، فلما نزل خالد نزل هرمز ، ومشى إليه خالد ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتَيْن ، واحتضنه خالد ، **وحملت حاميةُ هرمز وغدرتْ ، فاسْتلْحموا**[1] خالدًا ، فما شغله ذلك عن الهرمزان ، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز ، فأبادها جميعًا ، أمَّا خالد فقد تمكّن في الحال من ذبْح هرمز ذبح النِّعاج ، وركن الفرس إلى الفرار بعد قتل قائدهم ، فركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون إلى الليل ، ولم ينجُ من الفرس إلَّا من استطاع ركوب السُّفُن ، وجمع خالد الرثاث[2] وفيها السلاسل ، فكانت وقر بعير ؛ ألف رطل ، فسُمِّيَتْ « ذات السلاسل » ونفَّل أبو بكر خالدًا قلنسوةَ هرمز ، وكانت قيمتها مائة ألف . وقدم زر بن كليب بالفيل مع الأخماس إلى المدينة ، فطيف به في المدينة ليراه الناس ، فجعل ضعيفات النساء يقلن : أَمِنْ خلْق الله ما نرى ؟! وردَّه أبو بكر مع زرّ .

وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك :

نعم ، الإسلام رفع من شأن العرب ، وقد كانوا قبله حُفاةً عُراةً رُعاةً ، لا شأن لهم في الأرض ، ولا ذِكْر لهم في السماء ، أذلَّهم الفرس ، حتى إنَّ سابور الثاني والملقّب بذي الأكتاف كان يقوم بتعذيب الأسرى من العرب ، فيقتلهم عن طريق نَزْع أكتافهم ، فنزع أكتاف خمسين ألف عربي من تميم وبكر بن وائل ، حتى قالت له عجوز عربية : « إن لهذا قصاصًا ولو بعد حين » . الفرس الذين كانوا أشجع وأشدّ بأسًا من العرب ، بجيشهم الكبير الذي يقوده ألمعُ وأمهرُ قادة الفرس ، يُذِلّهم خالد ويقتلهم ويأسرهم ...

(١) تبعوه .

(٢) المتاع .

حتى صار ذِكْره يُقضّ مضاجع الفرس .. ويبدو هذا في معركة الأُبُلّة .

معركة الأُبُلَّة ، وفرار الفرس من اسم خالد :

سار خالد بجيشه إلى الأُبُلَّة ، وفيها جيوش كثيفة للفرس ، وسبق سويد بن قطبة الذهلي - وكان من جيش خالد - في جماعةٍ من قومه خالدًا في اتجاه الأبلة ، وعسكر حولها ، ولما وصل خالد بقواته مكان البصرة اليوم ، وجد سويدًا يتعقّب أهل الأبلة في انتظار أن يُهاجموه ، فيُقاتلهم خارج مدينتهم ، ولكن سويدًا أخبر خالدًا بأن أهل الأبلة يهابون مقامه ، وأنهم سيظلّون معتصمين بقلاعهم ما دام خالد موجودًا في المعسكر ، فقال سويد لخالد : إن أهل الأبلة قد جمعوا لي ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك ؛ أي خوفًا منك . وهناك رسم خالد بالاتفاق مع سويد خُطّة يخدعون بها الفرس ، حتى يأمنوا فيخرجوا لمُقاتلة سويد ، وذلك بحيث يعتقدون أن خالدًا الذي بثَّ في قلوبهم الرعب بعد قتله هرمز ، قد ترك معسكر سويد ، وأنه لم يبق قائد للمسلمين في المعسكر سوى سويد فقط ؛ فقال خالد لسويد : فالرأْيُ أَخْرُجُ من المعسكر نهارًا ، ثم أعود إليه ليلًا ، فأدخل بأصحابي ، فإن صبّحوك حاربناهم ، ونفّذ خالد خطّته لتضليل حامية الأُبُلَّة الفارسية واستدراجهم لمهاجمة سويد ، فتوجّه خالد بمعظم قوّاته في وضح النهار في اتّجاه الحيرة ، فاطمأنَّ الفرس إلى تَرْك خالد للمكان ، وعاد - رضي الله عنه - بقواته إلى المعسكر ليلًا ، فلمّا خرجت جيوش الفرس من الأُبُلَّة قاصدين مهاجمة سويد ، وما كادوا يصلون مدخل معسكر سويد ، حتى رأوْا كثرة العساكر وهم على أهبة الاستعداد ، فأُسقط في أيديهم لمَّا علموا بوجود خالدٍ في المعسكر ، ولم يشرع الفرس سيفًا ولا رمحًا في وجه خالد ، وما كان همّهم إلَّا الفرار للعودة إلى الأُبُلَّة المحصَّنة ، فولوا الأدبار مسرعين نحو أبواب المدينة ، ولكنّ خالدًا حال بينهم وبين ذلك ، وانفرط عقد جيش

الأُبُلَّة ، وتمزّق شملهم ، وكثُر القتل فيهم ، وقذف كثيرٌ منهم نفسه في نهر دجلة والفرات فغرقوا وبعث خالدٌ معقل بن مقرن المزني إلى الأُبُلَّة التي كانت خاليةً من المحاربين ، فسيطر عليها بدون قتال ، وجمع ما فيها من غنائم وأسلحة .

الخـربية :

وبعد ذلك سيطر خالد على نقطة حربية مهمة يُقال لها : الخربية ، وكانت من مسالح العجم ، وقال خالد لجنوده قبل المعركة ، لمّا رأى وجوه قادة الفرس وجنودهم ، وأدرك الرعب المسيطر عليهم : « احملوا عليهم ، فإني أرى هيئة قومٍ ألقى الله في قلوبهم الرعب » . فحملوا عليهم ، فهزموهم ، وكثر القتل فيهم ، وغرقٍ طائفة منهم في دجلة .

الجولة الثالثة : معركة المذار وقتل قُوَّاد الفرس الثلاثة :

جهّز شيرويه ملك الفرس جيشًا جرّارًا ، وأعطى قيادة الجيش لأكبر قائد من قوّاده وهو « قارن بن قرباس » يسانده قائدان كبيران وهما : «الأنوشجان » و« قباذ » ، وكان هذا الجيش يضم أيضًا فلول الأُبُلَّة والكاظمة وأهل الأهواز وفارس والسواد والجبل ، وتعاهدوا بعدم الفرار .

وبلغت قوات فارس ما يقارب الثمانين ألفًا ، بينما خالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا . وبدأت المعركة اللاهبة بدعوة قارن إلى البزار ، فاستبق إليه اثنان من المسلمين : خالد بن الوليد ، وأبيض الركبان معقل بن الأعشى النباشي ، فسبق معقل على فرسه خالدًا ، وبارز قارنًا فقتله في الحال . وهجم عاصم بن عمرو على الأنوشجان فقتله في الحال ، وبادر البطل الميمون عدي بن حاتم إلى القائد قباذ فقتله ، وقاتل الفرس على حنقٍ وحفيظةٍ ، واضطرب شمل الفرس بعد مقتل قارن ، وكان شرف قارن قد انتهى ؛ أي

أنه وصل إلى أعلى رتبة عسكرية في فارس . وقُتل من الفرس في الميدان ثلاثون ألفًا ، سوى من غرق في دجلة بحديده . « ولولا المياه لأتى المسلمون على آخرهم ، ولم يفلت منهم إلا عراة أو شبه عراة »[1] .

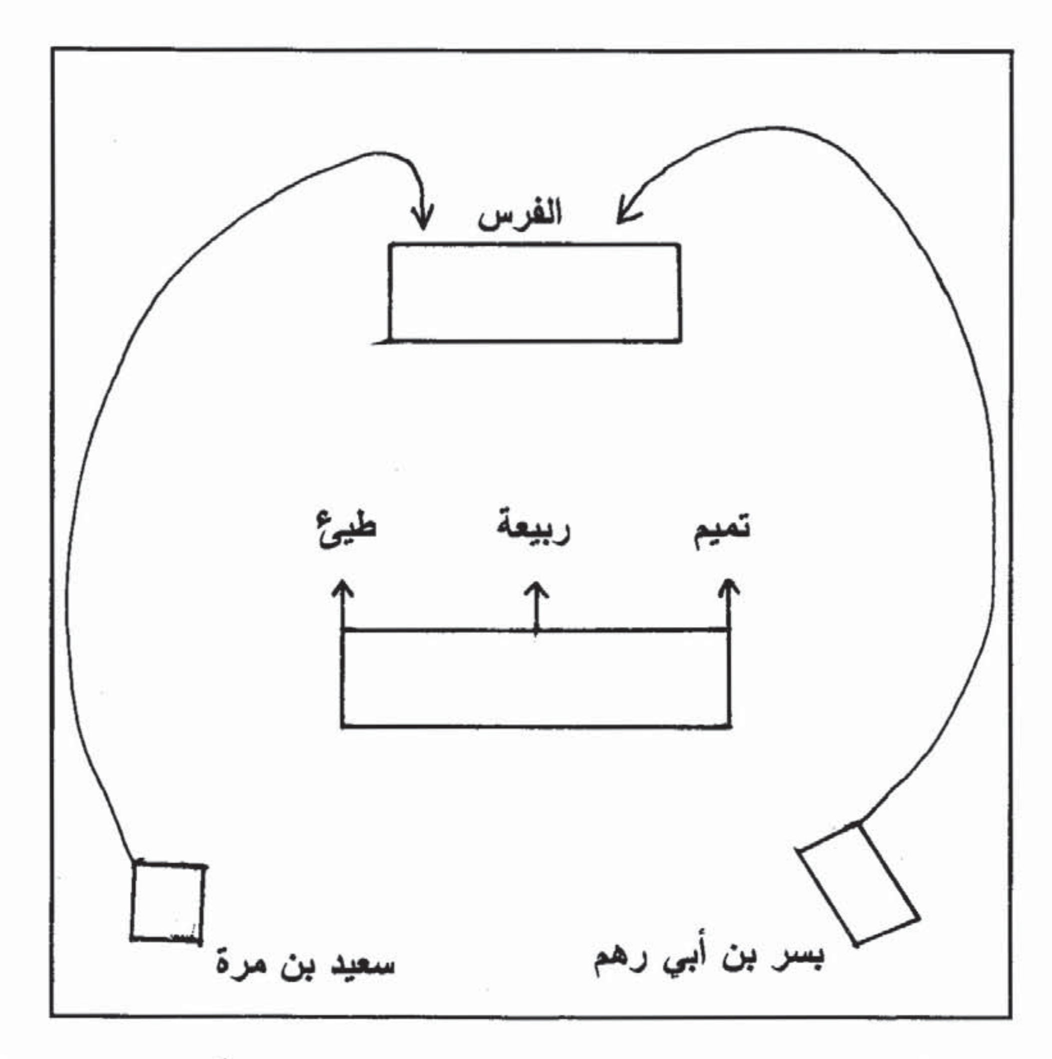
الولجة أو (واترلو الفرس) :

أقام خالد - رضي الله عنه - بمنطقة المذار يجمع المعلومات ويرقب اتجاه مسارات العدو ، وعلم أن القيادة العامة في المدائن أعدت جيشين يقودهما أعظم قائدين مجرّبيْن وهما : « الأندرزغِر » و« بهمن جاذويه » . وأراد بهمن جاذويه أن يوقع خالدًا بين فكّيْ كماشةٍ ، إن هو اتّجه من الشرق إلى الغرب رأسًا : بين جيش الأندرزغر الذي يعسكر غربًا في الولجة ، وبين جيش بهمن الذي يتحرك في السواد شرقًا ، ثم إنه مع وقوعه في الكماشة ، سيقع بين حاجزين مائيين كبيرين . وفكر خالد - وهو الألمعي - في اتّباع أسلوبٍ يجعله يتصل بالأندرزغر في الولجة ، دون أن يوقع بجيشه في كمّاشة ، فانحدر جنوبًا في طريق طويل بمُحاذاة نهر دجلة ، حتى إذا ما وصل الأُبُلَّة عَبَرَ نحو الغرب ، ثم أخذ يتجه شمالًا نحو الولجة غربي الفرات حيث يعسكر الأندرزغر . لقد كان خالد من أبرز قادة الجيوش في العالم ، وأقدرهم على استخراج النتائج من حساب المعارك قبل وقوعها ، ورغم أنه محارب جريء ممتاز ، فإنه كان أبعد القادة عن الغرور ، وكان شديد التَّيقُّظ والحذر ، وأوقع جيش الفرس في كماشته بدلًا من أن يوقعوه هم . ولكي يختصر خالد المعركة ، ويكسب النصر بأقل خسارةٍ ممكنةٍ من رجاله ، أقام قبل أن يصل إلى مكان المعركة خلفه كمينيْن من خيرة رجاله ، كمين في مواجهة الفرس من اليمين على رأسه بسر بن أبي رهم الجهني ، وكمين من يسار الفرس وجعل على

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٣٥٢ .

قيادته سعيد بن مرة العجلي ، وأخفى الكمينيْن ، وطلب من قائديهما أن لا يسرعا في الهجوم على الفرس ، وهذه الخطة التي رسمها خالد بالكمينيْن تجعل جيش فارس بين فكّيْ كمَّاشة ، مع انشغاله بالرمح المُشْرَع في صدره وهو جيش خالد ، وأُعْطِيت الأوامر بألا يهجم الكمينان على الفرس إلَّا عندما



يحتدم القتال ، وتظهر بوادر الوهن على الفرس . واشتبكت قوات خالدٍ مع قوات « أندرزغر » في قتالٍ ضارٍ عنيفٍ ؛ ذلك أن الفريقين صبروا صبرًا عظيمًا على أن يتلقّى أحدهما مدده قبل الآخر ، واشتدّ القتال في الولجة ، وثبت الفرس ثباتًا أزعج خالدًا حتى بات يخشى الهزيمة ، وظنَّ الفريقان أن الصبر قد فرغ ، ولكن النصر في اللحظة الحاسمة كان من نصيبه ،

فقد أطبق الكمينان على جيشِ الفرس من الشرق ومن الغرب ، ثم شكّلا رأس حربتين إذ انقضّا على جيش الفرس من وراء ظهره ، في الوقت الذي كان يرقب الأفق بقلق ، ينتظر أن يظهر عليه بهمن جاذويه فينقذه . وأُسقط في يد الفرس ، وانتابهم الذعر ، وشرع العرب في إبادة جيش الفرس ، ولم يَرَ رجلٌ من الأعاجم مقتل صاحبه ، ومضى الأندرزغر في هزيمته إلى مجاهل الصحراء فمات عطشًا .

وتعلّم الغرب من خالد .. فهذه معركة « واترلو » التي دارت في بلجيكا بين نابليون بونابرت ، وبين قائد جيوش الحلفاء « ولنجتون » الإنكليزي عام ١٨١٥ ، وفيها انهزم نابليون بوقوعه في كمين القائد « بلوخر » وجيشه ، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنىٰ من النصر ، واستقال من منصبه ، ودخل الحلفاء باريس ، ولجأ نابليون إلى انجلترا ، فلم تقبله لاجئًا سياسيًّا ، بل عدّته أسيرًا وَنَفَتْهُ إلى جزيرة القديسة هيلانة .

وخطب خالد بن الوليد بعد انتهاء المعركة ، وحثَّ جنده على تحقيق المزيد من الانتصارات ، فقال : « ألا ترون إلى طعام كرفغ التراب[1] ، وبالله لو لم يُلزمنا الجهادَ في الله والدعوة إلى الله عزّ وجلّ إلَّا المعاشُ ، لكان الرأي أن نُقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونُولّي الجوع والإقلال مَنْ تولاه ممَّن اثّاقل عمّا أنتم عليه »[2].

معركة أُلَّيْس أو « نهر الدم » ؛ الجولة الرابعة بين خالد والفرس :

حَقَدَ نصارى العرب وهم من تغلب وبكر بن وائل على المسلمين بعدما أصابهم في الولجة ، فاستغاثوا بكسرى (شيرويه) ليمدّهم بجيش فارسي ؛

(١) أي كثير التراب .

(٢) تاريخ الطبري (٢ / ٥٥٩) ، وابن الأثير ٢ / ١٤٨ .

ليشتركوا سويًّا في القضاء على خالد وجيشه ، وكان على العرب في أُلَّيْس عبد الأسود العجلي ، ووصل « جابان » على رأس جيش كثيفٍ من الفرس ، وتولّى جابان القيادة العامة ، وكان عبد الأسود قائد خليط نصارى العرب ، وهم من بكر بن وائل وبني عجل ، وتيم اللّات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة ، وانضمَّ إليهم زهيرٌ ومالكٌ ابنا قيس من قبيلة جذرة العربية النصرانية . وصل خالد بجيشه ، والمجوس قد مدُّوا البُسُط يستعدُّون للغداء ، وقد وُضع الطعام الفاخر على البُسُط ، وأصابهم الغرور وهم فيما يقارب المائة والخمسين ألف محارب ، وخالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا ، فلم يحفلوا بخالدٍ وأقبلوا على طعامهم ، فقال لهم قائدهم جابان : « اتركوا الطعام ، واستعِدُّوا للصدام » . فلمّا عصوْه قال : « إن القوم سيعجلونكم قبل أن تَطْعَمُوا الطعام ، وإنكم إنما هيأتموه لهم ليأكلوه بدلًا منكم » . فعصوه ، وبسطوا البُسُط ، ووضعوا الأطعمة ، ودعا بعضهم إلى بعضٍ ، وتوافوا إلى البُسُط ، وزحف خالد والمسلمون ، فأجبروا الفرس على القيام عنه ، وأجهضوهم عنه قبل أن يطعموه . ودعا خالد للبراز ونادى « أين أبجر بن عبد الأسود ، أين مالك بن قيس ؟ » . فجبنوا جميعًا عن مبارزته إلَّا مالك بن قيس ، فإنه خرج إلى خالد ، فقال له خالد مُوبِّخًا ومُحتَقِرًا : « يا ابن الخبيثة ، ما جرَّأك ؟! لستَ لي عليّ من بينهم ، وليس فيك وقاء » . أي أنك لست لي بكُفْءٍ . ثم ضربه ضربةً قتلته في الحال . ومع ذلك فقد اقتتلوا اقتتالًا شديدًا كان أشدَّ من أي قتالٍ سبق ؛ لأن نصارى العرب كانوا شديدي الغيظ لخالدٍ ؛ لقتله ابْنَيْ زعيميْهم في الولجة ، وصبر الفرس صبرًا شديدًا ، ولقي المسلمون مقاومةً عنيفةً ، حتى شقَّ عليهم الأمر ، قال خالد : « ما لقيتُ قومًا كقومٍ لقيتُهم من أهل فارس ، وما لقيتُ من أهل فارس قومًا كأهل أُلَّيْس » . ونذر خالد لله أن يُجري نهرًا

من دمائهم إنْ مَنَحَهُ الله النصر عليهم ، فقال : « اللهم إنّ لك عليّ إن منحتَنا أكتافهم ، ألَّا أستبقي منهم أحدًا قدرْنا عليهم حتى أُجرِيَ نهرهم بدمائهم » .

وانتاب الفرس والنصارى الذعرُ والخوفُ عندما رأوْا ثبات المسلمين وشدَّة ضرباتهم ، وركنوا إلى الفرار ، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون ، ونادى منادي خالد حتى يفيَ بنذره : الأسر ، الأسر ، لا تقتلوا إلَّا مَنْ امتنع . فأقبلت خيولُ المسلمين بهم أفواجًا مستأسرين يُساقون سوْق الأنعام ، فجمعهم خالدٌ وقد حَبَسَ الماء عن النهر ، فوكَّل بهم رجالًا يضربون أعناقهم في النهر يومًا وليلةً ، على رجاء أن يسيل النهر بدمائهم ، وهنا قال القعقاع وغيره لخالدٍ : لو أنك قتلتَ أهل الأرض ، لم تُجْرِ دماءهم ، ولكنْ أرسِلْ على الدماء الماءَ ، فيجري النهر دمًا لتبرّ بيمينك . فعمل خالد بمشورة القعقاع ، وأُعيد الماء إلى النهر ، فجرى أحمر قانيًا ، فسُمِّي لذلك : نهر الدم ، وعُرف بذلك إلى قرونٍ طويلة . قالوا : وكانت على النهر طواحين تُدار بالماء ، فطحنت بالماء وهو أحمر اللون قوت العسكر ثمانية عشر ألفًا - أو يزيدون - ثلاثة أيامٍ ، وأكل المسلمون طعامَ الفرس الذي وضعوه على البُسُط ، بعد أن قتلوا من الفرس ونصارى العرب سبعين ألفًا ، أكثرهم من أهل « أمغيشيا » ، وَزُفَّ خبر النصر إلى الصِّدِّيق ، فتوَّج خالدًا بشهادةٍ من أرقى الشهادات ، وحَسْبُكَ بها من شهادةٍ ، فهو لا يرى لخالدٍ نظيرًا في عبقريته وشجاعته ، ولا نظير له في عسكريته .

أعَجَزَتِ النِّساءُ أن يُنشِّئن مِثْلَ خالدٍ :

قال الصِّدِّيق في خالد - وهو يخطب في الناس بعد نصر أُلَّيْس -: « يا معشر قريش ، عدا أسَدُكم على الأسدِ ، فَغَلَبَهُ على خراذيله[1]، أعجزتِ النساء

---

(١) أطايب اللحم المقطّع الوافر ، وخردل وخرذل بمعنى واحد .

أن يُنشِّئن مثل خالد !! » .

« يوم أمغيشيا » نَصَرَ اللهُ خالدًا بالرُّعب :

كانت أمغيشيا أعظم وأهمّ من أُلَّيْس ، وكانت على بُعْد أربعين كيلو مترًا من أُلَّيْس ، فتملَّكهم الرعب ، وفرَّ أهلها من مدينتهم خوفًا من خالد ، وتركوا وراءهم كل شيء قال ابن جرير : « لمَّا فرغ خالد من وقعة أُلَّيْس ، نهض فأتى أمغيشيا ، وقد أعجلهم عمّا فيها ، وقد هرب أهلُها ، وتفرّقوا في السَّواد ، فأمر خالدٌ بهدم أمغيشيا وكل شيء فيها ، وكانت مِصْرًا كالحيرة . ولم يُصِبِ المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مِثْل ما أصابوا في أمغيشيا ؛ بلغ سهمُ الفارس ألفًا وخمسمائة سوى النَّفْل الذي نفله أهل البلاء » .

معركة المقر واستسلام الحيرة :

قدّر صاحب الحيرة ومَرْزُبانُها (أزاذبه) أن خالدًا لن يتركه ، وأنه سيركب إليه النهر ، فقدَّم ابنه ، وأمره أن يسدّ قناطر الفرات ، ويفتح للروافد التي تمدّه مسالك جديدة ، حتى يجفّ النهر وتتوقّف السفن عن الحركة . وكان خالد قد قسّم جيشه إلى قسمين ؛ القسم الأول : وهم المشاة تحملهم السفن مع المُؤَن . والقسم الثاني : وهم الفرسان وراكبوا الإبل . وسارت السفن شمالًا ، ولم يَفْجَأ المسلمين إلا السفن جوانح ، ولم تفُتّ المفاجأةُ المزعجة في عضُد أبي سليمان بعد أن أخبره الفلاحون : أن الفرس قد فجَّروا الأنهار ، فسلك الماء غير طريقه ، فتعجَّل خالد في جريدة من الخيل نحو ابن صاحب الحيرة ، فباغتَ خيلَهُ وهم على فم العتيق - مَصَبّ الفرات الأصلي - وهم آمنون من الغارة في تلك الساعة ، فاقتتلوا بموضع المقر - فم العتيق - حتى هزمهم بعد أن قتل ابن صاحب الحيرة ، وأعاد الماء يجري في النهر ، فعادت سفن المسلمين إلى المسير ، وقصد خالد الحيرة ، فوجد أهلها متحصِّنين داخلها، بعد أن فرَّ المَرْزُبان صاحبُها ، فعسكر خالد بين

« الغريين »[(١)] والقصر الأبيض ، وأجال خيله في عَرَصَاتهم ، وبعد قتالٍ افتتح المسلمون الدور والدّيرات ، وأكثروا القتل ، فنادى القسّيسون والرّهبانُ أهلَ الحصون : يا أهل القصور ، ما يقتلنا غيركم !! فنادى أهلُ القصور : يا معشر العرب ، قد قَبِلنا واحدةً من ثلاثٍ فكفُّوا عنّا . وفاوضوا خالدًا ، وأقروا بدفْع الجزية مائة وتسعين ألف درهم ، تُقبل كل سنة ، وأصبحت عاصمة المناذرة وعاصة الأقاليم وعاصمة كسرى الثانية تحت سيطرة المسلمين وحمايتهم.

ولِيُّ اللهِ خالدٌ يشرب السُّمَّ فلا يضرُّه ، ويتعجَّب منه ويُبْهَرُ حكيمُ نصارى العرب :

عن قيس : أُتي خالدٌ بِسُمٍّ فقال : ما هذا ؟ قال : سُمّ . فَشَرِبَهُ[(٢)].

وفي أُمّهات كتب التاريخ : أن ابنَ بقيلة حكيم نصارى العرب ، ومعمّرهم وأرجح قومه عقلًا ، لمّا دخل على خالدٍ ، اصطحب معه إلى مقر قيادة خالد خادمًا يحمل كيسًا صغيرًا في وسطه ، فتناوله خالد وقال : ما في هذا الكيس ؟ ونشر ما فيه في راحته ، ثم قال : ما هذا يا عمرو ؟ فقال عمرو : هذا والله سُمُّ ساعةٍ . فقال خالد : وَلِمَ تحتقبُ السُّمَّ ؟- وكان رأسَ أهل الحيرة وكبيرَ الذين فاوضوا خالدًا من أهل الحيرة - قال عمرو : خشيتُ أن تكون على غير ما رأيتُ من العَدْل ، وقد أتيتُ على أجلي[(٣)] ، والموت أحبُّ إليَّ من مكروهٍ أُدخله على أهل قريتي . فأخذ خالد السُّمّ المذكور ، وتلا هذا الدعاء : « إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها ، بسم الله خير الأسماء ، رب الأرض والسماء ، الذي لا يضرّ مع اسمه داء ، الرحمٰن

---

(١) بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة .

(٢) صحيح . رواه أحمد في « فضائل الصحابة » ، والطبراني في الكبير .

(٣) وكان سِنُّه عند التفاوض ثلاثمائة وخمسون سنة .

الرحيم » . ثم وضع السم في فمه ، وبادروه ليمنعوه ، ولكنَّه قد سبقهم فابتلعه ، وانتظروا ساعةً ليصرع السم خالدًا ، فمضت ولم يضرّ السم خالدًا ، كيف لا وهو من أكابر أولياء الله المتقين ، وسيد المجاهدين في الشام والعراق ، فقال عندها ابنُ بقيلة : « والله يا معشر العرب لتملكُنَّ ما أردتم » .

أهل السَّوَاد يُصالحون خالدًا على الجزية :

ومثلما فعلَ أهلُ الحيرة ، صالحَ أهلُ السواد من الفرس ووفودُ الدهاقين ، خالدًا على دَفْع الجزية مليونين من الدراهم سنويًّا للمسلمين .

إعجاز عسكري : فتح خالد ثُلُثي العراق خلال أربعين يومًا :

لله دَرُّكَ يا خالد .. تمَّتْ لجيوشه السيطرة على أكثر من ثلثي العراق خلال أربعين يومًا عام ١٢ هـ ، فيما بين أواخر محرم وأوائل ربيع أول ، وهذا إنجاز عسكري عظيم مدهش ، تعجز اليوم عن تحقيق مثله أعتى الجيوش المدجَّجة بالصواريخ والطائرات والأساطيل والدبابات ... فَبُورِكَ زَنْدُكَ وبورك ساعدُك ، وبورك سيفك ورمحك ، وبورك جوادك ، وبوركتْ همَّتُك أعلى الهِمَم وأشرفُها وأنبلها وأعزُّها وأغلاها .

معركة الأنبار وفَقْءُ ألفِ عَيْنٍ من الكفار :

سار خالد إلى الأنبار ، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، وكان من شجعان البادية ، فلمّا بلغها طاف بها ، فرأى أهلها قد تحصَّنوا بها ، وخندقوا عليها خندقًا عميقًا عريضًا ، وأشرفوا من حصونهم ، فأنشب خالدٌ القتال ، وكان قليل الصبر عنه ، وتقدَّم إلى رماته ، فأوصاهم قائلًا : « إني أرى أقوامًا لا علْم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ، لا توخّوا غيرها ، فارموا رشْقًا واحدًا ثم تابِعُوا » . وانطلقتِ السهام دفعةً واحدةً ولها أزيزٌ فأصابت مراميها ، ثم

تتابعَ الرَّمْي ، فأُصيب الرّماة من العدوّ الذين كانوا فوق جدران الحصن بكارثةٍ ، إذ فقأتْ سهام المسملين منهم ألفَ عينٍ ، ولذلك سُمِّيتْ موقعةُ الأنبار « ذات العيون » . واضطرب أهل الحصن وماجوا متصايحين : ذهبت عيون أهل الأنبار . وراسل مَرْزُبان الأنبار « شيرا زاد الفارسي » خالدًا بشروطه التي رفضها خالد ، وقرر خالد أن يردم الخندق ، ولكن بماذا ؟ أمر خالد أن ينحر المسلمون الإبل الهزيلة العجاف ، ويقذفوا بها في نقط الخندق الضيِّقة حتى تطمرها ، فإذا طمرتها عبر الجيشُ على الجمال المنحورة ، ونجحت الحيلة ، واستقام الجسر اللحمي ، وعبر عليه الجيش مشاةً وركبانًا إلى أبواب الأنبار ، واستسلمت الأنبار لخالد .

خالد يختطف القائد العامَّ للنصارى من قلبِ صَفِّهِ في معركة عين التَّمْر ويأسره أوَّلَ المعركة :

كان على عين التمر « مهران الفارسي » في جمعٍ عظيم من العجم والعرب ، وكان على العرب عقَّة بن أبي عقة ، وحين سمعوا بمسير خالدٍ إليهم ، قال عقة لمهران : « إن العرب أعلم بقتال العرب ، فَدَعْنَا وخالدًا » . قال : « صدقت ، لعمري أنتم أعلم بقتال العرب » . وكانت قوات عقّة في العراء ، وقوات مهران في الحصن حين قدم خالد على تعبيةٍ ، فقال لمجنبتيْه : « اكفوني ما عنده فإني حاملٌ عليه » . ووكّل بنفسه حوامي ، وأراد خالد أن يفاجئ قائد النصارى لا بقتْله ، ولكنْ بأخْذه أسيرًا ؛ كي يفهم ذلك المغرور أيّ رجال حربٍ ومهارة هم المسلمون ، ثم ليُدخل الرعب والفزع في قلوبهم .

قد كان المتَّبع في الحروب المبارزة ، فكيف بخالدٍ عاشق المفاجآت يريد ما هو أعظم من المبارزة ؛ وهو اختطاف قائد الأعداء وانتزاعه من قلب صفوف جيشه . وانقضَّ خالد على عقّه كما ينقضُّ الصقر على فريسته ،

وعقّة مشغولٌ بتسوية صفوف جيشه ، واندهش العرب المتنصِّرة للجريدة الصغيرة من الخيل التي خرجت تركض نحوهم ، وماذا عسى أن يفعل عشرة رجال مع عشرات الألوف من قوم عقَّة !! وَبَيْنَا هم غارقون في دهشتهم ، إذا بخالدٍ يتجه نحو عقَّة يحتضنه ، ثم يحمله ويعود به حيًّا - كالبرق - أسيرًا إلى صفوف المسلمين . وتجمَّدتِ الدماء في عروق المُتَنَصِّرة وهي ترى انتزاعَ خالدٍ لعقّة من بينهم في أسلوب صاعقٍ مفاجئ ، ما كان أحدٌ يتوقّعه ، وحَمْلَهُ بين يديه على فرسه كأنه طفل رضيع ، فلم يتحمَّلوا الصَّدْمة ، واختطاف قائدهم من بين أيديهم وهم ينظرون إليه ، فلاذوا بالفرار ، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون ، وقد كثُر من بينهم الأسرى الذين استسلموا بدون مقاومة ، وهرب الباقون ودخلوا حصن عين التمر ، ونجا القائد الفارسي مهران ، وهرب من الحصن ومعه العناصر الفارسية المسلحة . وهكذا دمَّر خالدٌ جيشًا بأكمله دون أن يخسر جنديًّا واحدًا . وفتح خالد عين التمر بعد أن نزلوا على رأي خالد ، فقتل خالد مُقاتلتهم ، وبدأ بعقّة فأُعدِم ثم رمى بجثته على الجسر ليكون عبرةً لغيره ، ثم أعدم نائبه ، وعمرو بن الصعق ، ثم نفّذ حكم الإعدام في كلِّ مَنْ حمل السلاح في وجهه ممَّن تحصَّن بعين التمر ، وسَبَىٰ النساء والذَّرارِي .

لله دَرُّكَ يا خالد .. « لا أَحَدَ أَيْمَنُ طائرًا منك ، ولا يرى قومٌ وجه خالد - قلُّوا أو كثُروا - إلَّا انهزموا أمامه » . هذا قول ملك دومة الجندل أُكيدر ... والفضل ما شهدتْ به الأعداءُ .

ولله دَرُّ فارسنا حين يبعث إلى عياض بن غنم : « من خالد إلى عياض ، إياك أريد » .

لَبِّثْ قليلًا تَأْتِكَ الحَلَائِبْ ... يَحْمِلْنَ آسادًا عليها القاشبْ

كتائب تتبعُها كتائِبْ

خالد صاحب المفاجآت ومعاركه اللَّيْلِيَّة :

قد كان خالد من طرازٍ نادر ، فهو وإن كان دقيقًا في رسم خطة المعارك ، إلا أنه يمتاز أيضًا بسرعة التنفيذ وحُبّ المخاطر ، والقُدرة الفائقة على ابتكار أساليب مُفاجِئة للعدو ، ولا أضَرَّ على الجيوش - وإن كانت عظيمةً - من أن تتعرَّض للهجُوم بغتةً وبأسلوبٍ مفاجئ وهي على غير استعداد . فمشاهير القادة العظام حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ، كانوا ينفرون من القتال الليلي ، ويذهبون إلى عدم جدواه ، ويقْرِّر « فردريك الأكبر » أنه يستبعِد دائمًا التفكير في القيام بأي عمليةٍ ليليَّةٍ ؛ نظرًا لما ينشأ عنها من اضطراب وانحلال في الضبط بين الصفوف للجنود ، نتيجة لتعذُّر الرؤية بين الضُبّاط ورجالهم ، ويقرر « بلوفر » أنه يخشى العمليات الليلية .

وكان القتال ليلًا قليلًا ما يلجأ إليه المحاربون في ذلك العصر . ولكنَّ خالدًا هو خالد .

معركة المصيّخ :

أبلغ خالد خُطَّته إلى قادة الفرق المحتشدة ، وأخبرهم بكتمان الخطة حتى على جنودهم ، وأخبرهم بأن الهجوم سيكون بعد منتصف الليل بساعتين ، فالقمر لا يطلع في مثل هذا الوقت إلا قبل منتصف الليل بقليل ، وقبل طلوع القمر وفي غَلَس الظلام ، قام خالد بتطويق المصيّخ على شكل دائرةٍ ، دون أن يشعر بوجودها أهل المصيّخ الذين كانوا نيامًا ، وَمَنْ ظَلّ مستيقظًا كان يحتسي الخمر في عرس حرقوص بن النعمان أحد زعمائهم . وقال لهم حرقوص : « اشربوا شراب وداعٍ ، فما أرى أن تشربوا بعدها ، هذا خالد في عين التمر ، وجنوده بحصيد ، وقد بلغه جَمْعُنا وليس بتاركنا » . ولم يعلم

أن جيوش خالد قد طوّقتهم في ظلام الليل في انتظار طلوع القمر . ثم أنشد حرقوص :

أَلا فاشربوا مِنْ قَبْلِ قاصمةِ الظَّهْرِ بُعَيْدَ انتفاخِ القومِ بالعَسْكَرِ الدّثْرِ
وَقَبْلَ منايانا المُصيبةِ بالقدْرِ لِحِينٍ لَعَمْري لا يزيد ولا يحْرِي
ألا فاسقياني قَبْلَ جيشِ أبي بكرٍ لعلَّ منايانا قريبٌ ولا ندري
أظنُّ خيول المسلمين وخالدًا ستطْرُقُكم عند الصباحِ على البشْرِ
فهل لكمو بالسير قَبْلَ قتالهمْ وقبل خروج المُعصراتِ من الخِدْرِ
أريني سلاحي يا أُميمةُ إنني أخافُ بياتَ القومِ أو مطلعَ الفجرِ

وكان ما قال ، فعندما غمر القمر بنوره الأرض ، شَنَّ خالدٌ وقادته الهجوم الصاعق من جميع الجهات ، وكان حرقوص أوَّل الذين قُتلوا ، فقد أطاح المسلمون برأسه وهو سكران ، وسقط في جفنة الخمر التي كانوا يشربون منها ، وقُتل جميع أبنائه ، وصحا النائمون من أهل المصيّخ على وقع السيوف ، وانهزم وقُتل الذين استعدّوا للقاء خالد ، وكانت غارة موفّقة ، وأُبيد أكثرُ أهل المصيّخ ، ولم يَنْجُ منهم إلا القليل .

الثني والزميل :

وبعدها بأربع ليالٍ ، طَبَّقَ خالدٌ نفس خطته في المصيخ على الثني ، فأباد رجال الثني عن آخرهم وسبوا كلَّ النساء . وفعل بالزميل ما فعل بالثني والمصيّخ ، **وقسم جيشه فرقًا ثلاثًا** ، وأحاط بالزميل **من جهاتها الثلاث** ، وباغتهم عند بزوغ القمر ، وأوقع المسلمون فيهم السلاح ، فأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمةً لم يقتلوا مثلها ، ونجا مَنْ أفلت من الموت تاركين نساءهم وأطفالهم غنيمة للمسلمين .

* * *

خالد هازم الروم والفرس ونصارى العرب في معركة الفِراض الخامس عشر من ذي القعدة عام اثني عشرة هجرية :

اتَّحد النقضيان الفرس والروم لقتال خالدٍ ، فقد كاتبَ الرومان الفرس والعرب المتنصِّرة الموتورين ؛ للاندماج في جيشٍ واحدٍ للقاء خالد ، واحتشد الجميع في جيشٍ لا يقلّ عدده عن مائة وخمسين ألفًا ، وكان عدد المسلمين لا يزيد على عشرين ألفًا في الفِراض بحدود الشام ، ونصحهم العقلاء بأن لا يُقاتلوا خالدًا وقالوا لهم : « احتسِبُوا ملككم !! هذا رجل يقاتل عن دينٍ وعقلٍ وعلمٍ ، والله ليُنصرنّ ولتُخذَلُنَّ » . وخيّر الروم والفرس والمتنصِّرة خالدًا بين أن يعبر الفرات إليهم ، أو يخلّي عنهم فيعبروا هم الفرات ، فقال لهم : « بل اعبروا إلينا » . فطلبوا من خالد أن يتنحَّي عن موقعه حتى يعبروا وتنشب المعركة حيث تنحّى . فقال خالد : « لا نفعل ، ولكن اعبروا أسفل منا ، ولن نتعرَّض لكم حتى تستكملوا العبور » . ولم يعبر خالدٌ ميمونُ النَّقيبة حتى تكون الصحراء خلف ظهره ، وتصاعد لَهَبُ القتال ، وبدا الاضطراب واضحًا على القوات المشتركة ، وبدأت كفَّة الميزان ترجح لصالح العسكر الإسلامي ، ولحظ خالد ذلك ، فأصدر أمره إلى جنده بأن يُضاعفوا حملاتهم عليهم ، فصاح فيهم : « ألحوا عليهم ولا تُرفِّهوا عنهم » . فصار المسلمون يحصدونهم حصدًا ، ولجأ فرسان المسلمين إلى أسلوبٍ رائع في القتال ، إذ صار هؤلاء الفرسان يحشرون الزمرة من الحُلَفاء بالرِّماح ، فإذا جمعوهم ، قتلوهم عن آخرهم ، ثم عمَّتِ الهزيمة جيوش الحلفاء الثلاثة ، فأخذتْهم سيوفُ المسلمين من كل ناحيةٍ ، فقتل المسلمون منهم يوم الفِراض - في المعركة وفي المُطاردة بعدها - مائة ألفٍ ، في روايات جميع المؤرِّخين . وكانت معركة الفراض خاتمة معارك خالد في العراق .. وما أحلاها من خاتمة .

يقول القعقاع بن عمرو عن هذه الموقعة :

لقينا بالفِراضِ جموعَ رومٍ ... وفُرْسٍ عَمَّهَا طُولُ السَّلامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ لمَّا التقيْنا ... وبيَّتْنَا بِجَمْعِ بني رزامِ
فما فَتِئَتْ جنود السِّلْمِ حتى ... رأينا القومَ كالغَنَمِ السَّوَامِ

قال أهلُ التاريخ عن خالد : « كان الفرس قد هابوه هيبةً شديدةً ، وكان خالدٌ إذا نزل ، نزل عذابًا من عذاب الله عليهم ولَيْثًا من اللُّيُوثِ » .

وأمر الصِّدِّيقُ خالدًا بالتَّوجُّه لقتال الروم في الشام وَتَرْك العراق ، وأثنى على خالدٍ ثناءً عطرًا ؛ بأن أحدًا لن يستطيع قهر الروم وإنزال الهزيمة بهم إلا خالدٌ ، فكتب إليه : « أمّا بعد ، فَدَعِ العراق وخلّفه في أهله الذين قدمتَ بهم عليهم وهم فيه ، وامضِ مُختفيًا في أهل القوة من أصحابك ، الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك في الطريق ، حتى تأتي الشام ، فتلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين ، فإذا الْتقيتم فأنت أمير الجماعة . والسلام » . وعند الطبري : « أن سِرْ بالمسلمين حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأَشْجَوْا ، وإياك أن تعود لمثلها[١] ، فإنه لم يُشجِ الجموع من الناس - بعون الله - شجاك ، ولم ينزع الشجيُّ من الناس نَزْعك ، فَلِيَهْنِكَ أبا سليمان النِّيَّة والحظوة ، فأَتْمِمْ يُتمم الله لك ولا يَدْخُلَنّكَ عُجْبٌ فتخسر وتخذل ، وإياك أن تُدِلَّ بعملٍ فإن الله له المَنُّ ، وهو وليُّ الجزاء »[٢].

خالد قمّة في الطاعة والانضباط العسكري :

لله دَرُّكَ يا خالد .. ما كدتَ تذوق حلاوة نصرك ، ويذيع صِيتُكَ بين أعداء الله الفُرس ويرهبون اسمك .. وبينك وبين المدائن التي تتوّج نصرك

---

(١) يقصد الحج بدون إذن الخليفة .

(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٣٨٤ .

قاب قوسين أو أدنى ، حتى يصدر أمرُ الصِّدِّيق إليك بِتَرْكِ العراق ، فلم تعتذر للخليفة ولا حتى تُناقشه ، وحينما قال لك زعيم البدو وفارسُهم دسين العجلي : « أصلحك الله ، والله ما جعل الله في الشام من العراق خلفًا للعراق ، أكثر حنطةً وشعيرًا وديباجًا وحريرًا وفضةً وذهبًا ، وأوْسَع سعةً وأعْرَض عرضًا ، والله ما الشام كلّه إلا كجانبٍ من العراق » . فرددت - لله دَرُّك - وما تُريد إلَّا عزَّ الإسلام : « إن بالشام أهل الشام ، وقد تهيَّأتُ لهم وتسيَّرت ، فإنَّما أنا مُغيثٌ وليس لهم مَدَد ، فكونوا أنتم على حالتكم التي كنتم عليها ، فإن نفرغ ممَّا أُشخِصنا إليه عاجلًا ، عجلْنا لكم ، وإن أبطأْتُ ، رجوتُ أن لا تعجزوا ولا تَهِنوا ، وليس خليفة رسول الله ﷺ بتاركٍ إمدادكم بالرجال حتى يفتح الله عليكم هذه البلاد ، إن شاء الله تعالى » .

حـرب المفاجـآت :

إذا أردنا كلمةً جامعةً لحرب خالدٍ مع الفرس ، فنكاد نجزم بأخْذ خالدٍ بزمام المُباغتة والمُفاجآت التّكتيكيّة فأربكتْ صفوفَ أعدائه ... نرى ذلك واضحًا في تغيير مكان اللقاء من كاظمة إلى الحفير ، إلى كاظمة مرة ثانية ، ثم مفاجآته لعدوه في كمين الولجة ، وفي اقتحام خندق الأنبار بردمه بالإبل العجاف ، وفي مفاجأة « عقّة » في عين التمر باحتضانه وحمْله إلى صفوف المسلمين أسيرًا . فهذا أسلوب في القتال لم يكُن مألوفًا ، وفي الهجوم اللَّيلي على عدوّه وكسبه في المصيّخ وفي الثني وفي الزميل ، في سرعةٍ وخفَّةٍ ، لم تَدَعْ لهم فرصةً أو مجالًا للتَّصرُّف أو القتال . رضي الله عن خالد ، لقد كان أسدًا إذا احتاج الأمر إلى تأسُّد ، ثعلبًا إذا احتاج الأمر إلى ثعلبة ، وهكذا الحرب مكْرٌ وخدعة وقوة . « بارز خالد يوم « الولجة » رجلًا من أهل فارس يَعْدِل ألف رجلٍ فقتله ، فلمَّا فرغ منه اتَّكأ عليه ودعا ....

بغدائه »[١].

ورضي الله عن عمرو بن العاص ، القائل في مدح خالد : « له أناةُ القَطاةِ ووثوبُ الأسد »[٢].

وفي واقعنا المعاصر :

تحطَّمتِ الطائرات عند الفجر :

ينقل الدكتور عبد الله عزام في إحدى رسائله ، عن المستشار العسكري للقيادة الجوية في ٦٧ وكان يهوديًّا ولا يعرفون .. وهو صاحب كتاب « وتحطَّمت الطائرات عند الفجر » وقد طُبع بأكثر من لغةٍ : « كيف أنهم أعدوا حفلة ماجنة لكبار قُوَّاد القوات الجوية وطياريها مع بنات الهوى والراقصات ، ليلة الخامس من يونيو ٦٧ ، وكيف أنهم أسموها الميج والميراج المصري والإسرائيلي ، وانتصر الميج المصري على الميراج الإسرائيلي ... أي الطيارون المصريون الغارقون في الفاحشة على الراقصات وبنات الهوى ، واستمرَّت إلى قُبيل الفجر ، وعند الفجر كان ضرب المطارات لمَّا نام العصاة في وحلهم ، وبعد أن تمَّ له ما أراد ، هرب اليهوديُّ مع أول طائرة » .

في الطريق إلى الشام : قطع البرية السماويَّة في خمس ليالٍ :

قال الذهبي عن خالد بن الوليد : « تأمَّر في أيام النبي ﷺ ، واحتبس أدراعه ولَأْمته في سبيل الله ، وحارب أهل الرِّدَّة ومسيلمة ، وغزا العراق ، واستظهر ، ثم اخترق البرية السماوية ، بحيث إنه قطع المفازةَ من حدِّ العراق إلى أوَّل الشام في خمس ليالٍ في عسكرٍ معه ، وشهد حروب الشام ، ولم

(١) الطبري ٢ / ٥٦٠ .

(٢) اليعقوبي ٢ / ١٠٨ .

يبق في جسده قيد شبرٍ إلا وعليه طابع الشهداء »[١].

فعدَّ من مناقبه وأعماله قطْع البرية السماوية والمفازة من العراق إلى الشام في خمسِ ليالٍ .

أرسل خالد قبل قطْعه المفازةَ كتابًا سبقه إلى المسلمين بالشام وإلى أبي عبيدة ، وكان من قوله « ..... إن كتاب خليفة رسول الله ﷺ أتاني يأمرني بالمسير إليكم ، وقد شمّرتُ وانكمشتُ[٢] ، وكأنّ خيلي قد أطلّت عليكم في رجال ، فأبشروا بإنجاز موعود الله وحُسن ثوابه . عصمنا الله وإياكم بالإيمان ، وثبّتنا وإيّاكم على الإسلام ، ورزقنا وإيّاكم حُسن ثواب المجاهدين والسلام عليكم » . وكتب إلى أبي عبيدة : « بسم الله الرحمـٰن الرحيم . لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إلـٰه إلا هو . أما بعد ، فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا . لقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام ، وبالمقام على جندها ، والتّولّي لأمرها ، ووالله ما طلبتُ ذلك ولا أردتُه ، ولا كتبت إليه فيه ، وأنت - رحمك الله - على حالك التي كنت بها ، لا يُعصى أمرك ، ولا يُخالف رأيك ، ولا يُقطع أمرٌ دونك ، فأنت سيِّدٌ من سادات المسلمين ، لا يُنكر فضلُك ولا يُستغنى عن رأيك ، تمَّمَ الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار ، والسلام عليك ورحمة الله » . فقال أبو عبيدة : « بارك الله خليفة رسول الله ﷺ فيما رأى ، وحيَّا خالدًا بالسلام » .

سلك خالد أقصر طريق أمين ؛ من ناحية عدم وجود مقاومة معادية

---

(١) سير أعلام النبلاء ١ / ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) أسرعت .

كبيرة فيه ، وهو طريق الحيرة - دومة الجندل - وادي سرحان - قراقر - وهناك استشار أصحابه قائلًا : « كيف لي بطريقٍ أخرج فيه من وراء جموع الروم ، فإني إن استقبلتها ، حبستني من غياث المسلمين ؟! » . فأجابوه : لا نعرف إلَّا طريقًا لا يحمل الجيوش ، إنما يأخذه الفذُّ الراكب ، فإياك أن تُغرِّر بالمسلمين . فعزم عليهم ، فلم يُجبه إلى ذلك غير رافع بن عميرة الطائي ، على تهيُّبٍ شديد ، فقام خالد في أصحابه وقال : « لا يختلفنّ هَدْيُكم ، ولا يضعفنّ يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدْر النِّيَّة ، والأجر على قدر الحِسبة ، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيءٍ يقع فيه مع معونة الله له » . فكان رد أصحابه عليه : أنت رجلٌ قد جمع الله لك الخير ، فشأنك[1] . فقال خالدٌ لدليله رافع : « انطلق بالناس » . فقال رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأنفال ، والله إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه ، إنها لخمس ليالٍ لا يصاب فيها ماء . فأمر خالد أصحابه أن يستكثروا من الماء ، وأمر صاحب كل خيل أن يعدّ لها الماء بقدْر ما يسقيها ، وجمع عددًا من الإبل السِّمان ظمَّأها ، حتى إذا أجهدها عطشًا أوردها الماء عَلَلًا بعد نَهَلٍ[2] ، فلمَّا امتلأت صرَّ آذانها وشدَّ مشافرها لئلا تجترّ[3] . وانطلق خالد بالجيش ، ينزلون كل يوم ، فيأكل الرجال ويشربون ممَّا معهم من الماء ، ثم يشُقُّون بطون عشرة من الإبل ، ويُخرجون الماء منها ويسقونه الخيلَ ، حتى اليوم الخامس ، حيث أدركوا الرِّيّ . لما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله : « ويحك يا رافع ، ما عندك ؟ » . وكان رافع أرمد ، فأدار رأسه يمنة ويسرة ، ثم قال : أيها الناس ، انظروا علميْن

---

(١) تاريخ الطبري (٢ / ٦٠٣) ، والكامل لابن الأثير (٢ / ١٥٦) .

(٢) العَلَل : الشَّرْبَة الثانية ، والنَّهَل : الشربة الأولى .

(٣) تاريخ الطبري ٢ / ٦٠٣ ، والكامل ٢ / ١٥٦ ، وفتوح الشام للواقدي ١ / ١٤ .

كأنهما ثديان . فلمّا أتوهما ، وقف رافع عليهما وقال : انظروا ، هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ قالوا : ما نراها . فأمرهم بالتفتيش عليها ، فلمَّا وجدوها كبَّروا وكَبَّر رافع ، ثم قال : احفروا في أصلها . فحفروا ، فنبع الماء من عينٍ ، فشرب الناس حتى رووا ، فقال رافع : والله ما وردتُ هذا الماء قطُّ إلَّا مرّةً واحدة مع أبي وأنا غلام[1] .

لله دَرّك يا خالد .. كم كانت كفاءة دليلك الصحابي ، ولله جرأتك حين تُقدم على ما يتهيّب عنه الأدِلّاء .. فللّه بركتك .. ولله دَرّك من سيِّدٍ من ساداتِ أولياء هذه الأمة .

خالدٌ لها ، والله لأُنْسِيَنَّ الرُّومَ وساوسَ الشيطانِ بخالد بن الوليد :

كلماتٌ عَطِرَةٌ قالها الصِّدِّيق عن خالدٍ ، حين اشتدَّ الكرب على المسلمين بالشام ، وذلك لكثرة الروم وحُلَفَائهم الهائلة ، التي بلغت ربع مليون مقاتل ، بينما جيوش الإسلام كلها لا تزيد على اثنين وثلاثين ألفًا ، وأرسل أبو عبيدة إلى أبي بكر الصِّدِّيق : « وبعد ، فإن الروم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب ، قد أجمعوا على حرب المسلمين ، ونحن نرجو النصر ، وإنجاز موعود الرب تبارك وتعالى وعادته الحسنة ، وأحببتُ إعلامك لترينا رأيك » . فقال الصِّدِّيق : « خالدٌ لها ، والله لأُنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »[2] .

فتح تَدْمُر :

مرّ خالد في طريقه بتدمر ، فتحصَّنوا منه ، فأحاط بهم من كل جانبٍ ،

---

(١) أسد الغابة ٢ / ١٥٥ ، والاستيعاب ٢ / ٤٨٢ ، والطبري ٣ / ٦٠٣ - ٦٠٤ ، وابن الأثير ، ٢ / ١٥٦ .

(٢) الطبري ٢ / ٦٠٢ .

وأخذهم بكل مأخذ فلم يقدر عليهم ، فقال لهم : « والله لو كنتم في السحاب ، لاسْتَنْزَلْنَاكُم ، ولَظَهَرْنَا عليكم ، وما جئناكم إلَّا ونحن نعلم أنكم ستفتحونها لنا ، وإن أنتم لم تُصالحوني هذه المرة لأرجعنَّ إليكم لو قد انصرفتُ من وجهي هذا ، ثم لا أرتحل عنكم حتى أقتل مُقاتلتكم وأسبي ذراريكم » . ثم ارتحل عنهم فمضى ، واجتمع عظماؤهم ، فقال بعضهم لبعض : « لا نرى إلا أن هؤلاء القوم الذين نزلوا بكم ، هم الذين كنّا نتحدّث أنهم يظهرون علينا ، فافتحوا لهم وصالحوهم » . فبعثوا في إثر خالد ، فرجع إليهم ، ففتحوا له مدينتهم وصالحوه .

أيّ عزٍّ عزُّك يا خالد !! ترحل ماضيًا عنهم ، فيُرسلون إليك حتى ترجع ويُصالحوك ؛ خوفًا منكِ ومن تهديدك .

فتح القريتين وحوارين :

وأتى خالد القريتين ، فقاتله أهلها فظفر بهم ، وغنم منهم . ثم مرَّ على حوارين فخافه أهلها وهابوه ، وتحـرَّز أكثرهم منه وتحصَّنُوا ، فأغار عليهم واستاق مواشيهم ، وقتل رجالهم ، وأقام عليها أيامًا ، فبعثوا إلى مَنْ حولهم فجاءهم مددان ، أحدهما من بَعْلَبَك ، والآخر من بُصرى ، وكلٌّ منهما أكثر من ألفين ، فلمَّا رآهم خالدٌ ، صفَّ صفوفه ، ثم خرج في مائتين من الفرسان ، فحمل على مدد بعلبك ، فقصف بعضهم على بعض ، وأثخن فيهم قتلًا ، فما صمدوا ساعة حتى انهزموا ، وحمل على أهل بُصرى فما ثبتوا له إلا قليلًا حتى انهزموا إلى المدينة ، وخرج أهل حوارين فرموا المسلمين بالنّشاب ، فحمل عليهم خالد ، وأعادهم إلى حوارين منهزمين ، ورجع عنهم ذلك اليوم . فلمَّا كان اليوم التالي ، خرج أهل حوارين ليقاتلوا المسلمين ، فهاجمهم خالد فهـزمهم ، فلمَّا رأوْا أنهم لا طـاقة لهم به ، صالحـوه . قال علج من أهـل حوارين – وكان من شجعانهم وأشدّائهم – : « والله لخرجنا إلى خالد بعدما

جاءنا مدد بعلبك وأهل بُصرى بيوم ، فخرجنا إليه ، وإنَّا لأكثرُ من خالد وأصحابه بعشرة أضعفاهم ، فما هو إلَّا أن دنونا منهم ، فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأُسْد ، فهزمونا أقبح هزيمة ، وقتلونا أشدّ القتل ، فما عُدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم . وقد رأيتُ منَّا رجلًا كُنَّا نعدُّه بألف رجل ، وكان يقول : لئن رأيت أميرهم لأقتُلَنَّه . فلمَّا رأى خالدًا قال له أصحابُه : هذا خالدٌ أمير القوم . فَحَمَلَ عليه العِلْجُ ، وإنّا لنرجو لبأسه وشدَّته أن يقتله ، فما هو إلا أن دنا منه ، فضرب خالدٌ فرسه ، فقدمه عليه ، وكان خالد إذا كان عند الحرب ، فكأنه يربو ويعظُم ويَهُول مَنْ ينظر إليه ، فاستقبل العلجَ فاستعرض وجهه بالسيف فضربَهُ ، فأطار نصفَ وجهه وقِحْفَ رأسِه فقتله . وانهزمنا أقبح هزيمةٍ حتى دخلنا مدينتنا ، فما كان لنا هَمٌّ إلَّا الصُّلح حتى صالحناهم » .

مَرْج رَاهِط :

بلغت الأخبار خالدًا بأن أعراب غسّان النصارى ، قد اجتمعوا بمرج راهط وعليهم الحارث بن الأيهم - أخو جبلة بن الأيهم - فانقضَّ عليهم خالد ، فانتسف عسكرهم وعيالاتهم ، وسبى منهم يوم فحصتهم[1] ، ونزل بالمرج أيامًا ، ثم سار خالد حتى أتى أبا عبيدة بالجابية ، فالتقيا ومضيا معًا بِجُنْدَيْهما إلى بُصرى .

فتح بُصْرَى :

جِزْية بصرى أوَّل جزيةٍ بالشام في عهد الصِّدِّيق :

قال قيس بن أبي حازم يصف فتح خالد ....

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤١٠ ، وتاريخ ابن عساكر ١ / ٤٥٨ ، وفتوح البلدان للبلاذري ١٣٢ .

لبُصرى[١] : « كنت مع خالد بن الوليد حين مرّ بالشام ، فأقبل حتى نزل ببُصرى من أرض حوران وهي مدينتها ، فلمَّا اطمأننا خرج إلينا الدّرنجار في خمسة آلافٍ من الروم ، فأقبل إلينا ، وما يظنُّ هو وأصحابه إلّا أنَّا في أكُفِّهم ، فخرج خالد فصفَّنا ، ثم جعل على ميمنتنا رافع بن عمرو الطائي ، وعلى ميسرتنا ضرار بن الأزور ، وعلى الرجال عبد الرحمٰن بن حنبل الجُمحي ، وقسّم خيله ؛ فجعل على شطرها المسيّب بن نجبة ، وعلى الشطر الآخر رجلًا من بكر بن وائل ، فظننتُ أنه مذعور العجلي ، فأمرهما خالد حين قسّم الخيل بينهما ، أن يرتفعا من فوق القوم عن يمين وعن شمال ، ثم ينصبَّا على القوم[٢] ، فانطلقا ففعلا ذلك . ثم أمر خالد مَنْ معه أن يرجعوا إلى القلب ، فرجعنا إليهم ، والله ما نحن إلَّا ثمانمائة رجل وخمسون رجلًا ، وأربعمائة رجلٍ من مشجعة من قضاعة ، فكُنّا ألف رجلٍ ومائتي رجل ونَيِّفًا ، وكنّا نظنُّ أن الكثير من المشركين والقليل عند خالدٍ سواءٌ ؛ لأنه لا يملأ صدرَهُ منهم شيءٌ ، ولا يُبالي مَنْ لقي منهم ؛ لجُرأته عليهم وشدّته ونجدته . ثم دنونا منهم ، فبدءونا بالحملة علينا ، فشدُّوا علينا شدَّتَيْن ، فلم نبرح مواقفنا ، ثم إن خالدًا نادى بصوت جَهْوَرِيٍّ شديدٍ عالٍ فقال : « يا أهل الإسلام ، الشدَّة الشدة ، احْمِلُوا - رحمكم الله - عليهم ، فإنكم إن قاتلتموهم مُحتسِبين ، تريدون بذلك وجه الله ، فليس لهم أن يواقفوكم ساعةً » . ثم إن خالدًا شدّ عليهم وشددْنا معه ، فوالله الذي لا إلٰه إلا هو ، ما ثبتوا لنا فُواقًا حتى انهزموا ، فقتلْنا منهم في المعركة مقتلةً عظيمة ، ثم أتْبَعنَاهم نَكْرُدُهم[٣] ونقتلهم ، ونُصيب الطرف منهم ونقطعهم عن أصحابهم

---

(١) وكان معه أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد .

(٢) مِثْل كَمِينَي الولجة .

(٣) أي نطردهم .

ثم نقتلهم ، فلم نَزَلْ كذلك حتى انتهينا إلى مدينة بُصرى ، فأغلقوا أبوابها وتحصَّنُوا منا ، ثم أخرجوا إلينا الأسواق وصالحونا ؛ أهلُ بصرى ، واستقبلوا المسلمين بكل ما يحبُّون ، وسألونا الصلح فصالحناهم » . وكانت جزية بُصرى أوَّل جزية بالشام في عهد أبي بكر .

ولمّا جاءت الأنباءُ هرقل ، قال لجلسائه : « ألم أقُل لكم : لا تُقاتلوهم ؛ فإنه لا قَوَامَ لكم مع هؤلاء القوم ؟!! إن دينهم جديد يجدِّد لهم ثِبارهم[1] ، فلا يقوم لهم أحد حتَّى يُبْلَى » . فقالوا : « قاتل عن دينك ولا تُجبِّن الناس واقضِ الذي عليك » . قال : « وأيّ شيءٍ أطلب إلّا توفير دينكم » .

أجنادين ... يَوْمٌ من أيّامِ خالد :

جاءت الأخبار خالدًا أن جيشًا كبيرًا للروم قد نزل بأجنادين من جنوب فلسطين ، وأن نَصَارىٰ العرب وأهل الشام قد سارعوا بالانضمام إليه . وقام خالد في جيشه خطيبًا ، وقال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ : « أما بعد ، فإنه بلغني أن طائفةً من الروم نزلوا بأجنادين ، وأنهم استعانوا بأناسٍ - وَهُمْ قليل - من أهل البلد ، فسألوهم النصر علينا استقلالًا لمن معهم من الكثرة ذلًّا ولَوْمًا . واللهُ - إن شاء الله - جاعلُ الدَّبَرة عليهم وقاتلُهُمْ كلّ مقتلة ، فاقصدوا بنا قصدهم ؛ فإني كاتب إلى يزيد بن أبي سفيان ، حتى يوافيني بِمَنْ معه مِنَ المسلمين مِن البلقاء ، وإلى عمرو بن العاص حتى يوافيني هنالك مِن أرض فلسطين » . وكتب إلى « شرحبيل » وسائر الأمراء :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم .

أما بعد ، فإنه نزل بأجنادين جموعٌ من جموع الروم غير ذي عددٍ ،

---

(١) مواظبتهم عليه .

ولا قوة ، واللهُ قاصمهم وقاطع دابرهم ، وجاعل دائرة السَّوْءِ عليهم . وقد شخصتُ إليهم يوم سرّحت رسولي إليكم ، فإذا قدم عليكم فانهضوا إلى عدوِّكم - رحمكم الله - في أحسن عدَّتكم وأصحّ نيّتكم ، ضاعفَ الله لكم أجوركم وحطّ أوزاركم ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

وصلت جيوش المسلمين وتوافت جموعهم في أجنادين ، وجاء « وردان » بمن معه حتى وافى جموع الروم بأجنادين ، وانضمّت إليهم جموعٌ من أهل فلسطين ومن الأعراب المُوالين للروم ، حتى صار جيش الروم يزيدُ عن مائةِ ألفٍ ، وكان عدد المسلمين ثلاثين ألفًا ، هذه الجموع من المسلمين تجتمع لأول مرة في معركة كبرى ، هي الأولى في حجمها في حرْب الشام ؛ يقول ابن إسحاق : « لمّا تدانى العسكرانِ بعث « القُبُقْلار » رجلًا عربيًا من قضاعة ، يقال له : « ابن هزارف » ، فقال : ادخل في هؤلاء القوم ، فأقمْ فيهم يومًا وليلةً ثم ائْتني بخبرهم . فدخل في الناس .. رجل عربي لا يُنكر ، فأقام فيهم يومًا وليلةً ثم أتاه ، فقال له : ما وراءَك ؟ قال : بالليل رهبانٌ وبالنهار فرسانٌ ، ولو سَرَق ابن ملكِهم قطعوا يده ، ولو زنى رُجم ، لإقامة الحقّ فيهم » . فقال له القبقلار : لئن كنتَ صدقتني لَبطْنُ الأرض خيرٌ من لقاءِ هؤلاء على ظهرها ، ولَوددتُ أنّ حظي من اللهِ أن يُخلّي بيني وبينهم ، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم عليّ .

خرج خالد فصفَّ قواته ، فجعل أبا عبيدة على المشاة ، وجعل معاذ ابن جبل على الميمنة ، وجعل سعيد بن عامر القرشي على الميسرة ، وبعث سعيد بن زيد بن عمرو على الخيل ، وأقبل خالد يسير خلال صفوف المسلمين ، لا يستقرّ في مكانٍ واحد ، يُحرِّض جنده ويحمِّسهم ، وأقام نساء المسلمين خلف الجيش يبتهلن إلى الله ويدعونه ويستغثْنه ، وكلما مرّ بهنّ رجلٌ من المسلمين دفعن إليه أولادَهن ، وقُلن له : قاتلوا دون

أولادكم ونسائكم . كما أمرهن خالد أن يَحْتَرِمْنَ - أي يُحرِّمْن - على الرجال ما كان مباحًا لهم معهنّ . وأقبل خالد يقف على كلِّ قبيلة وكل جماعة ويقول : اتقوا الله عباد الله ، قاتلوا في الله مَنْ كفر بالله ، ولا تنكصوا على أعقابكم ، ولا تهنوا من عدوكم ، ولكن أقدموا كإقدام الأسد وأنتم أحرارٌ كرامٌ ، فقد أبيْتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة ، ولا يَهُولنَّكم ما ترون مِن كثرتهم ؛ فإن الله مُنزِلٌ عليهم رجزَه وعقابَه ، ثم قال : أيها الناس ، إذا أنا حملتُ فاحملوا . وكان خالد أولَ مَن حمل على صفوف الروم ، وأقبل خالد إلى خيل المسلمين ، وقال لهم : احملوا - رحمكم الله - على اسم الله . وحمل خالد على الروم ، وحمل المسلمون معه بأجمعهم على طول الصَّفّ ، فقد سئموا الوقوف ، وكانت معنوياتهم مرتفعةً ، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرَّتَيْن ... ثم صبروا لرشْق نبالهم ، والآن صَدَرَ الأمرُ فانطلق الجيش المتحمِّسُ المكبوت ، فما صبر الروم له فُواقًا - على حدِّ تعبير الرواة - وانهزموا هزيمةً شديدةً ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ، وأصابوا معسكرهم وما حوَىٰ .

وعند ابن إسحاق : « لما رأى القبقْلار - قائد الروم - ما رأى مِن قتال المسلمين ، قال للروم : لفّوا رأسي بثوبٍ . قالوا : لِمَ ؟ قال : يومُ البئيسِ لا أحب أنْ أراه ! ما رأيت في الدنيا يومًا أشدَّ مِن هذا . فاحتزَّ المسلمون رأسَه ، وإنه لملفَّفٌ » ، وانتهى خبر هذه الهزيمة إلى « هِرقل » فنُخب قلبُه وأُسْقِطَ في يده ، ومُلِئ رُعْبًا .

وقد بلغ قتلى الروم في هذه المعركة ثلاثة آلاف ، وفرّتْ فلولهم المنهزمةُ متفرقةً نحو « إيلياء » و« قيسارية » و« دمشق » و« حِمْص » ، وتبعهم المسلمون يطاردونهم ، فيقتلون منهم ويأسرون . وكتب خالد إلى

أبي بكر رضي الله عنه :

« لِعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ مِن خالدٍ بن الوليد سيف الله المصبوب على المشركين ، أمَّا بعد ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك اللهَ الذي لا إلٰه إلا هو . أما بعد : فإني أخبرك أيها الصديق أنّا التقينا نحن والمشركون ، وقد جمعوا لنا جموعًا جمّة كثيرةً بأجنادين ، وقد رفعوا صلبهم ونشروا كتبهم ، وتقاسموا بالله لا يفرّون حتى يَفنون أو يخرجونا من بلادهم ، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكّلين على الله ، فطاعنّاهم بالرماح ، ثم صرنا إلى السيوف ، فقارعناهم في كلّ فجٍّ وشِعْبٍ وغائطٍ ، فأحمد الله على إعزاز دينه ، وإذلال عدوِّه ، وحسْن الصنع لأوليائه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . فلما قرأ الرسالة فَرِحَ بها وأعجبتْه ، وقال : « الحمد لله الذي نصر المسلمين ، وأقرّ عيني بذلك » .

مرج الصفر :

أرسل هرقل خمسة آلاف يقودهم درنجار[١] ، كانوا من أهل القوّة والشدّة ، ليُغيث حامية دمشق ، وانضمّ إليهم عدد كبير من حامية حمص ، فهم جميعًا أكثر من عشرة آلاف اجتمعوا في مرج الصفر جنوب دمشق ، وصفّ خالدٌ جيشه ، فجعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته هاشم ابن عتبة ، وعلى الفرسان سعيد بن زيد ، وعلى المشاة أبا عبيدة ، ثم سار خالد فوقف في أوّل الصف ، يريد أن يُحرِّض المسلمين ويُحمِّسهم ، ونظر إلى الصَّفِّ من أوَّله إلى آخره ، فبادره الروم بالهجوم . وكان سعيد بن زيد واقفًا في جماعةٍ من فرسانه في الميمنة يَدعُون الله ، وهو يخطب فيهم ويقُصُّ عليهم ، فحملتِ الروم تجاهه بثقلهم ، فصمد لهم سعيدٌ ونازلهم في فرسانه ،

---

(١) رتبة لقائد ، وليست اسم شخص .

وتحرَّكتْ صفوف المسلمين ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا على شاطئ نهرٍ عليه طاحونة ، حتى جرت الدماء في ماء النهر وطحنت بها الطاحونة[١] .

وانهزم الروم وأصاب المسلمون عسكرهم ، وقتلوا منهم كثيرًا وتبددت فلولهم شراذم ، فمنهم من دخل دمشق مع أهلها ، ومنهم من رجع إلى حمص ، ومنهم من لحق بهرقل ، ومنهم من فرّ إلى بيت القدس . وقُتل من الروم خمسمائة في المعركة ، ووقع في أسر المسلمين نحو من خمسمائة آخرين .

وفاة الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وَعَزْل عمر لخالد من قيادة الجيش :

توفي الصديق رضي الله عنه ، وتولّى عمر الخلافة ، فعزل خالدًا أثناء حصار المسلمين لدمشق ، وهو الحصار الذي لم يتمّ فتح دمشق فيه .

وعند الطبري (٢ / ٥٩٥) ، وابن الأثير (٢ / ٨٥) : أنّ عَزْل خالد كان أثناء معركة اليرموك .

خالد في معركة فحل بيسان حديث ومَثَل لمن حضره :

كانت هذه المعركة من المعارك الهامّة ضِمْن فتح الشام ، وكانت قوات الروم ثمانين ألفًا ، هم جُنّة الروم وجيش الدفاع ، وإليهم ينظرون ، والشام بعدهم سلم ، وكان القائد سَقِلّار بن مخراق أو « سكلاريوس » . وكانت القيادة العامَّة لأبي عبيدة ، فجعل على ميمنته معاذ بن جبل ، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة ، وعلى المُشاة سعيد بن زيد بن عمرو ، وعلى الخيل القائِدَ المبارك خالد بن الوليد . تقدَّم خالد بالخيل ، فأخرج إليه الروم فرسانًا كثيرة ، وكان قيس بن هبيرة من أشدّ الناس نكايةً وَبَأْسًا في العدو ومباشرةً لهم . فقال له خالد أن يخرج إليهم ، فحمل عليهم مرارًا وحملوا عليه ،

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري صـ ١٤١ ، وابن عساكر ١ / ٤٨٢ .

فقاتلهم قتالًا شديدًا . ثم خرجت خيل أُخرىٰ عظيمة للروم ، فقال خالد : اخرج إليهم يا ميسرة بن مسروق . فخرج ميسرة فقاتلهم قتالًا شديدًا ، وحمل عليهم وحملوا عليه ، ثم خرجتْ إليهم جموعٌ أخرىٰ من فرسان الروم أعظم من الجمعين السابقين ، يقودهم بِطْرِيقٌ عظيم من عظماء بطارقتهم ، فقسَّم فرسانه قسمين ، وأمر أحد القسمين فحملوا على خالدٍ وأصحابه ، فصمد لهم خالد ولم يتزحزح ، ثم أمر البطريق الثاني ، فحملوا أيضًا على خالدٍ ، فصمد لهم ، فلمَّا رأى الروم أن هجومهم لم يُثمر شيئًا ، تراجعوا وانصرفوا ، فقال خالد لفرسانه : « إنه لم يبق من جدّ القوم ولا حدّهم ولا قوتهم إلَّا ما قد رأيتم ، فاحملوا معي بأهل الإسلام حملةً واحدةً واتّبعوهم ولا تغفلوا عنهم ، رحمكم الله »[١]. وحمل خالد بمن معه ، فاكتسح مَنْ أمامه منهم ، ثم حمل قيس بن هبيرة على الذين أمامه منهم فكشفهم ، وحمل مسروق على الذين أمامه من فرسانهم فهزمهم ، واتَّبعهم المسلمون يقتلون منهم ، ويقصفون بعضهم على بعض ، وقد اختلَّ نظامهم حتى اضطرّوهم إلى الانسحاب إلى عسكرهم وجماعتهم . وعادت فرسان المسلمين يومئذٍ ولها الظفر . وفي اليوم التالي ، قاتل خالد يومئذٍ قتالًا شديدًا ، ما قاتل مثله أحدٌ من المسلمين ، فكان حديثًا ومثلًا لمن حضره ، كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم فيحمل عليهم حتى يُخالطهم ، ثم يُجالدهم حتى يُفرِّقهم ويهزمهم ، ويُكثر القتل فيهم ، قَتَل في ذلك اليوم أحد عشر رجلًا من بطارقة الروم ، وأشدَّائهم وأهل الشجاعة منهم ، وكان يقول :

أضْـرِبهُمْ بصـارِمٍ مُهَنَّـدِ ضَرْبَ صَلِيبِ الدِّينِ هادٍ مُهْتَدِ
لا وَاهِنِ القولِ ولا مُفَنَّدِ

وكان القتال في تلك المعركة أشـدّ قتالٍ اقتتلوه قطُّ ، وقد طوىٰ

---

(١) تاريخ فتوح الشام لمحمد بن عبد الله الأزدي ص٩٦ .

المسلمون جناحَيْ جيش الروم ، ثم انفردوا بعدهما بالقلب حتى تضعضع وقد أظلم الليل ، وانهزم الروم وهم حيارىٰ ، وقد قُتل في هذه المعركة قائدهم « سقلار » والذي يليه « نسطورس » ، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهْنَأَهُ ، وذهب البلاذري إلى أن قتلىٰ الروم كانوا زُهَاءَ عشرة آلاف .

قَتْلُ خالدٍ لِلبطْرِيقِ الرُّومي توذرا :

بعث هرقل بطريقًا يُدعىٰ « توذرا » حتى نزل بمرج دمشق وغربها ، وكان خالد تجاهه ، وباتوا ليلتهم ، فلمّا أصبحوا وجدوا الأرض بلاقع[1] من توذرا ، وعلم خالد أنه قد رحل نحو دمشق ، فتبعه خالد من ليلته في قوةٍ سريعة من الفرسان . وكان يزيد بن أبي سفيان مرابطًا حول دمشق ، فبلغه مسير توذرا إليه فاستقبله ، فاقتتلوا ، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون ، فأخذهم مِن خلفهم ؛ بين قوّاته وقوات يزيد ، وقُتل الروم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وقتل خالدٌ توذرا ، فلم يُفلت منهم إلا الشريد ، واستولى المسلمون على دوابِّهم وركائبهم وأدواتهم وثيابهم ، وعاد خالد إلى أبي عبيدة وهو يقول :

نحـنُ قتلْنـا تَوْذرًا وشَـوْذَرا وقَبْلهمـا قـد قتلْنا حَيْـدَرَا
نحن أزرْنا الغيضةَ الأُكيدرَا

فتح دمشق : خالد لا ينام ولا يُنيم :

حاصر أبو عبيدة بن الجراح بجيشه دمشق من جميع جهاتها أربعة أشهر ، واستولى المسلمون على غوطة دمشق وما حوت عَنْوَةً . نزل أبو عبيدة على باب الجابية غربي المدينة ، ونزل يزيد على الباب الصغير ، إلى باب كيسان ،

---

(١) يعني خاوية .

أمّا شمالي السور فقد نزل عمرو بن العاص على باب توما ، ونزل شرحبيل على باب الفراديس ، ونزل خالد على الباب الشرقي ، وكان الباب الشرقي وباب الجابية هما أكبر وأهم هذه الأبواب جميعًا . وطال الحصار على أهل دمشق وازداد التوتر بينهم ، فبعث بطريق الروم رجُلَيْن يندسَّان بين المسلمين ؛ ليتجسسا على جنودهم وأمرائهم ويريا أحوالهم ، وكان رجلان من غسّان دخلا دمشق يتسوَّقان منها قبل حصارها ، فبعث إليهما البطريق ، فأمر أحدهما بالذهاب إلى معسكر المسلمين ليأتيه بخبرهم ثم رجع ، وقيل : كانوا عيونًا فسألهم عمَّا رأوا ، فقالوا : أمّا الليل فطولُ قيامٍ ، وأمَّا النهار فالخير الظّاهِر والحرص على الجهاد ، وإن وجد أحدهم نعلًا أو كبّة شعرٍ أو غزلًا ، دَفَعَهَا إلى صاحب المقسم ، فإذا قال صاحب المقسم : ما هذا ؟ قالوا : لا نستحلّه إلّا بحِلّه . فلمّا سمع بطريق الروم ذلك قال : ما لنا بهؤلاء طاقةٌ ، ولا لنا في قتالهم خير .

كان أبو عبيدة أَحَبَّ إلى الروم من خالد ، وكان خالدٌ أَفَظَّهما وأَغْلَظَهما عليهم ، وكان أبو عبيدة أَلْيَنَهما وأَقْرَبَهما استماعًا إليهم ، فكان أحبّ إليهم أن يكون كتاب صُلحهم مع أبي عبيدة . حصر المسلمون دمشق أربعة أشهر حصارًا شديدًا ، وأهلها معتصمون بأسوارها يرجون الغياث ، وهرقل بحمص . وولد لبطريق الروم « نسطاس بن نسطورس » مولودٌ ، فاحتفل بذلك ، وأَوْلَمَ وليمةً لحامية المدينة ، فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم من الحراسة والدفاع ، ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين ، إلّا ما كان من خالد ؛ فإنه كان لا يغمض له جفن ، « ولا ينام ولا يُنيم ، ولا يبيت إلّا على تَعْبِيَةٍ ، ولا يخفى عليه من أمر عدوّه شيءٌ ، عيونه ذكيّة ، وهو مَعْنِيٌّ بمن يليهم »[1] . وعيونه تأتيه بما وراء الأسوار ،

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٢٦ .

والأبواب مغلقةٌ . وكان خالد قد أعدَّ سلالم من الحبال تنتهي بأوهاق - وهي الحبال في أطرافها أنشوطة[١] - فلمّا أمسى من ذلك اليوم ؛ الأحد الخامس عشر من شهر رجب ١٤ هـ ، وكان يومًا مناسبًا لذلك الاحتفال ، أعلن خالد الاستعداد في جيشه الذي جاء به من العراق ، واقترب بهم من السور ، ثم تقدم هو والقعقاع بن عمرو ، ومذعور بن عدي العجلي وأمثالهم من أبطاله الأشدّاء ، وكانت تعليماته لسائر قوّاته : « إذا سمعتم تكبيرنا فارقَوْا[٢] إلينا ، وانهدوا للباب » . وكان خالد قد أعدَّ أيضًا القِرَب المنفوخة بالهواء ، حملوها على ظهورهم ، وعبروا بها خندقهم سباحةً ، وقذفوا بأوهاق الحبال ، حتى اشتبك منها وهقان بأعلى السور وثبتا فيه ، فتسلَّق عليهما القعقاع ومذعور ، ومعهما باقي السلالم الحبال ، فأثبتاها جميعًا بأعلى السور ، كان هذا المكان الذي اقتحموا منه أحْصَنَ موقعٍ بدمشق كلها ، أكثره ماءً ، وأعْرَضه خندقًا ، وأشدَّه مدخلًا ، فلم يبق من قوّته كلها أحد إلا تسلّق السلالم أو اقترب من الباب ، حتى إذا استقرّوا بأعلى السور ، حَدَر أكثرهم داخله ، وانحدر معهم خالد ، وترك من جنده من يحمي ذلك المعبر ، هذا وحامية دمشق في سُكرها ، مشغولة بالطعامِ والشراب والاحتفال بالمولود ، لا يشعرون بشيءٍ ، وأمر خالد مَنْ على السور بالتكبير فكبَّروا ، وانقضَّ من كان ما زال خارجًا على الباب ، وتكاثر المسلمون على سلالم الحبال ، يتسلقونها من الخارج ويهبطون إلى الداخل ، وهاجم خالد بسرعة أوّلَ قوة وجدها ففرغ منها ، وانصبّ إلى الباب فقتل حُرّاسه - وكانوا رجلًا أو رجلَيْن - وثار أهل المدينة ، وفزع الناس ،

---

(١) حلقة .

(٢) أي اصعدوا .

وتسارع كلٌّ منهم إلى مواقفه ، ولا يدرون ما الشأن ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم ، واستغلّ خالدٌ أثر المفاجأة ، فقطعَ ومَنْ معه أغلاقَ الباب الشرقي بالسيوف وفتحوه ، فتدفَّقتْ قوّاته من خلاله ، ودارت معركة دمشق داخل دمشق تجاه ذلك الباب ، وكان القتال شديدًا مستميتًا يدور في الشوارع ، ومع ذلك لم تبقَ من الروم قوّة في ذلك القطاع ، إلَّا فرغ منها خالد ، وذلك مع طلوع الشمس . وبلغ خبر اقتحام خالد الباب الشرقي إلى حاميات سائر الأبواب ، واتَّخذ الروم قرارهم فورًا بالصُّلح مع قُوّاد المسلمين ، وفوجئ هؤلاء القُوّاد بحامية دمشق تفتح أبوابها ويقبلون شروطهم ، في حين كان خالد يدخل غازيًا ، يعمل السيف في جنود الروم ، وهم يُدافعون ما أمكنهم حتى يدخل الآخرون صلحًا ، فينقذ الصلح الموقف ، ويحفظ عليهم حياتهم وحريتهم . وصارت دمشق صلحًا كلها ، وفُتحت أبواب المدينة ، والتقى خالد بأبي عبيدة عند سوق الزيت بعد أن اقتحم المدينة عَنْوَة ، واستولى على ألف مترٍ طُولًا منها بالقتال ، في حين دخلها أبو عبيدة من غربيِّها ؛ وتقدَّمتْ جنوده صُلحًا مسافة ٥٠٠ - ٥٦٠ مترًا ، بالإضافة إلى المسافة بين معسكرهم وباب الجابية .

فللَّه دَرُّ خالدٍ من بطل .. لا ينام ولا يُنيم .. ولله دَرُّه من فارسٍ يُسابق جنده في تسلُّق الأسوار .. ولله دَرُّه ودرُّ تكبيره الذي يُزلزل الروم ويُرعبهم .

اليرموك .. خالد يشرب من دم الروم :

أرسل هراكليوس « هرقل » إلى بيزنطة عاصمة دولته ، وإلى من كان على دينه من جنوده ، ومن الأهالي في الجزيرة وفي أرمينية ، وكتب إلى عماله أن يحشدوا إليه كل مَنْ أدرك الحلم من أهل امبراطوريته فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني ، في تجنيد إجباري ، كذلك كتب إلى روما عاصمة الإمبراطورية

الرومانية الغربية ، وهي لم تكن تحت سلطانه ، في أكبر محاولةٍ له ، وهو يرمي بآخر سهم في جعبته لدفْع خطر المسلمين الداهم . يقول الرواة : فأقبل إليه من الجموع ما لا تحمله الأرض . وكان عدد الروم مائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠) يقودهم أعظم قادة الروم وهو « باهان » ، وكان عدد المسلمين ستة وثلاثين ألفًا (٣٦,٠٠٠) ، منهم ألف رجل من الصحابة ، فيهم مائة بدري . وخطب هرقل في الجيش قبل أن يُوجِّهه إلى اليرموك ، فقال : « يا معشر الروم ، إن العرب قد ظهروا على سورية ، ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي بلادكم ، وهم لا يرضون بالأرض والمدائن والبُرّ والشعير والذهب والفضة ، حتى يَسْبُوا الأخوات والأُمّهات والبنات والأزواج ، ويتّخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيدًا ، فامنعوا حريمكم وسلطانكم ودار مملكتكم » . ثم سيّرهم إلى المسلمين . وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بأن « الروم قد توجّهوا إلينا ، وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأُمَّةٍ قطُّ كانت قبلنا » . وقال أيضًا في كتاب آخر : « إن الروم نفرت إلى المسلمين برًّا وبحرًا ، ولم يخلِّفوا وراءهم رجلًا يُطيق السلاح ، إلَّا جاشوا به علينا ، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة ، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع ، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة ، وجاءونا وهم نحوٌ من أربعمائة ألف رجل ، قد جاء المسلمين ما لا قِبَل لهم به ، إلَّا أن يُمدَّهم الله بملائكته ، أو يأتيهم بغياثٍ من قِبَلِه ، والسلام عليك » . وأرسل عمر إليهم : « يا أهل الإسلام اصدقُوا اللقاء ، وشدّوا عليهم شدّ اللُّيوث ، واضربوا هامتهم بالسيوف ، وليكونوا أهون عليكم من الذَّرِّ ، فإنا قد كُنّا علمْنا أنكم عليهم منصورون » .

البطل يُؤمِّر نَفْسَه :

ولما اجتمع أبو عبيدة مع قادة جيشه بالجابية ، قال خالد : « أرى

والله إن كُنّا إنما نُقاتل بالكثرة والقوة ، هم أكثر منّا وأقوى ، وما لنا بهم إذن طاقة . وإن كُنّا نُقاتلهم بالله ولله ، فما أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعًا ، أنهم تُغني عنهم شيئًا » . ثم غضب وقال لأبي عُبيدة : أتُطيعني أنت فيما آمرك به ؟ قال له أبو عبيدة : نعم . قال خالد : « فولّني ما وراء بابك ، وخَلّني والقوم ، فإني لأرجو أن ينصرني الله عليهم » . قال : قد فعلت . وهكذا تولّى خالد القيادة العامة على جيوش المسلمين في يوم اليرموك . وجمع باهان جنده وقال لهم : « أنتم عدد الحصى والثّرى والذّرّ ، فلا يهولنّكم أَمْرُ هَؤلاءِ القوم ؛ فإن عددهم قليل ، وهم أهل الشقاء والبؤس ، وجلّهم حاسِر جائع ، وأنتم من الملوك وأبناء الملوك ، وأهل الحصون والقلاع والعدّة والقوّة ، والسلاح والكراع ، فلا تبرحوا الميدان وفيكم عين تطْرِف حتى تُهلكوهم أو تهلكوا أنتم » . وعلى اليرموك اجتمع خالد مع باهان قائد الروم بين الصفين فقال باهان [ماهان] : « إنّا قد علمْنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع ، فهلُمّوا إلى أن أُعطي كل رجلٍ منكم عشرة دنانير وكسوةً وطعامًا ، وترجعون إلى بلادكم ، فإذا كان من العام المقبل بعثْنا لكم بمثلها » . فقال خالد : « إنه لم يُخرجنا من بلادنا ما ذكرت ، غير أنّا قومٌ نشرب الدِّماء ، وأنه بَلَغَنَا أنه لا دم أطْيَب من دم الروم ، فجئنا لذلك » . فقال أصحاب ماهان : هذا والله ما كُنّا نتحدّث به عن العرب[1].

الله الله يا خالد .. عِزُّ الإسلام يتكلّم .. لله دَرُّكَ ، كم خلّدت هذه الكلمة : « أنّا قوم نشرب الدماء ، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم ، فجئنا لذلك » .

---

(١) البداية والنهاية ٧ / ٩ - ١٠ .

وبعد سنوات سيقول رستم للمغيرة بن شعبة ، قبل معركة القادسية :

« كنتم إذا قحطتْ أرضُكم وأصابتْكم السنة ، استغثتم بناحية أرضنا ، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردّكم ، فأكلتم من طعامنا وشربتم من شرابنا واستظللتم بظلالنا ، فذهبتم فدعوتم أصحابكم ثم أتيتمونا بهم ، وإنَّا ومثلكم مثلُ رجلٍ كان له حائط من عنب ، فرأى فيه ثعلبًا واحدًا فقال : ما ثعلب واحد . فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى الحائط . فلمّا اجتمعن فيه ، جاء الرجل فَسَدَّ الجحر الذي دخلن منه ، ثم قتلهن جميعًا . وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلَّا ما أصابكم من الجهد في بلادكم ، فارجعوا عنّا عامكم هذا ، فإنكم قد شغلتمونا عن عمارة بلادنا وعن عدونا ، ونحن نوقر[1] لكم ركائبكم قمحًا وتمرًا ، فأنا آمُر لأميركم بكسوةٍ وبغل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمرٍ وبثوبين ، وتنصرفون عنّا ، فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم ، فارجعوا عنّا ، عافاكم الله » .

فقال له المغيرة فيما قال : « فكان مما رزقنا الله على يديه[2] حبة تنبت في أرضكم هذه ، فلمّا أذقناها عيالنا قالوا : لا صبر لنا عنها ، فجئنا لنُطعمهم أو نموت » .

هكذا يُرَدّ على الصَّلَف بعز الإسلام،لله دَرُّ المغيرة :

حيَّةٌ في الوجَار أرْبَد لا يَنْفَعُ ... منه السَّليمَ نَفْثُ الرَّاقي

لما جاءت جموع الروم كالسَّيْل والليل ، وهم يجرُّون الشوك والشجر ليصنعوا منها دفاعاتٍ ، ومعهم صُلُبُهم والقسيسون والرهبان والأساقفة والأباطرة . وعبَّأ خالد جيشه في تَعْبِيَةٍ لم تُعَبِّهَا العرب من قبل ، إذ نظم

(١) الوقر : الحمل الثقيل .

(٢) أي رسول الله ﷺ .

جيشه في ستة وثلاثين كردوسًا[١] إلى الأربعين ، وقال : « إن عدوّكم قد كثُر وطغى ، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس » . ثم جعل للقلب كراديس ، وأقام فيه أبا عبيدة بن الجراح ، وكان على الميمنة معاذ بن جبل ، وعلى الميسرة قبّاث بن أَشْيَم ، وعلى الرَّجَّالة : هاشم بن عتبة ، وكان خالد على الخيل . وقال معاذ بن جبل للناس مُثنيًا على خالد : « أما والله إن أطعتموه ، لتطيعُنّ مباركَ الأمرِ ، ميمون النقيبة ، عظيم الغناء ، حَسَن الحِسبة والنِّيَّة » . وقال معاذ عن خالد : « أما إني لأرجو أن يكون الله قد أعطاه بصيرةً على جهاد المشركين وشدّته عليهم وجهاده إياهم ، مع حُسن بصيرته وحسن نِيَّتِهِ وإعزاز دينه أحسن الثواب ، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملًا » . وكان القاضي أبا الدرداء في هذا اليوم ، والقاصّ الذي يتولّى تحميس المسلمين أبا سفيان ، وعلى الأقباض – وهي الغنائم – عبد الله بن مسعود ، وكان القارئ المقداد ؛ قرأ على الناس الأنفال . وسار خالد في صفوف جنوده يقف على أصحاب كل راية ويقول : « يا أهل الإسلام ، إن الصبر عِزّ ، وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر تُنصرون ، فإن الصابرين هم الأَعْلَوْنَ ، وإنه إلى الفشل ما يحور المُبطل الضعيف ، وإن المُحِقّ لا يفشل ، يعلم أن الله معه ، وأنه عن حرم الله يَذُبّ وعنه يقاتل ، وأنه إن قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه ، إنه شاكر يحب الشاكرين » . وجمع خالد فرسان المسلمين ، فقسمها أربع فِرَقٍ ، ودعا قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي ، وكان يساعده ويوافقه ، ويشبهه في جلده وشدّته وشجاعته وبأسه وإقدامه على الأعداء ، فقال له

---

(١) الكردوس : مفرد كراديس ؛ وهو كتلة من الجنود يتألَّف من ألف مقاتل . وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية ، العريف يقود عشرة رجال ، وآمر الأعشار يقود مائة رجل ، ولكل كردوس قائد له راية .

خالد : « أنت فارس العرب ، وقلَّ مَنْ حضرها اليوم يعدلك عندي ، فاخرج معي في هذ الخيل » . وبعث إلى ميسرة بن مسروق وعمرو بن الطفيل ، وجعل كل رجل منهم على ربع ، وخرج خالد في ربع منها في خيل المسلمين . وجندل قيس بطريقًا من بطارقتهم ، فصاح خالد : « ما بعد ما ترون إلّا الفتح ، احمل عليهم يا قيس ، احملوا عليهم ، فوالله لا يفلحون وأوَّلُهم فارسٌ متعفِّرٌ في التراب » . فحمل المسلمون عليهم ، وعلى خيولهم التي تقدَّمتْ أمام صفوفهم كأنها أعراض الجبال ، وانكشفتْ خيولُ الروم حتى لحقت بالصفوف ، وعاد خالد وقد أدرك ما في نفوس الروم من خوفٍ ، فقال للمسلمين : « قد رجعنا عنهم ولنا الظفر وعليهم الدبرة ، فاثبتوا لهم ساعةً ، فإن أقدموا علينا قاتلناهم » . وبعث الروم رجلًا من خيارهم وعظمائهم اسمه جرجة ، فوالله ما إن سمع كلام المسلمين حتى أسلم ، وكان له نجدة ونكاية في المشركين .

« يا خالد ، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا فأعطاكه ؟! » :

كلمات عطرة تحفر من نور في التاريخ قالها جرجة عند إسلامه لخالد : « يا خالد ، اصدُقني ولا تكذبني ؛ فإن الحُرَّ لا يكذب ، ولا تُخادعني ؛ فإن الكريم لا يُخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه ، فلا تسُلَّه على قومٍ إلَّا هزمتهم ؟ » . قال : « لا » . قال : « فَبِمَ سُمِّيتَ سيف الله المسلول ؟ » . فقال له خالد فيما قال : « إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ ، فدعانا فنفرنا عنه ، ونأينا منه جميعًا ، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذّبه ، فكنت فيمن كذّبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : « أنت سيف من سيوف الله سلَّه على المشركين » ودعا لي بالنصر ، فسُمِّيتُ سيف الله بذلك ، فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين » . قال : ....

« صدقتَني »[١] . ثم أسلم جرجة . وخرج باهان في جيشه وعلى ميسرته الدرنجار ، وزخف الروم إلى المسلمين مثل الليل والسيل يدفّون دفيفًا ، قد رفعوا الصُّلبان . فقال رجل : ما أَكْثَرَ الرومَ وأقلَّ المسلمين[٢] . فقال خالد : « ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثُر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان لا بعدد الرجال . أبالروم تُخوِّفني ! والله لوددتُ أن الأشقر براء من تَوَجِّيه[٣] وأنهم - يعني الروم - أضعفوا في العدد » . وجاء خالد إلى أبي عبيدة فقال له : « إن هؤلاء قد أقبلوا بعددٍ وجِدٍّ وحَدٍّ وزجل ، وإن لهم شدة لا يردّها شيء ، وليست خيلي بالكثيرة ، ولا والله لا قامت خيلي لشدّة خيلهم ورجالهم أبدًا ، قد رأيت أن أُفرِّق خيلي ، فأكون في إحدى الخيلَيْن وقيس بن هبيرة في الخيل الأخرى ، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة ، فإذا حملوا على الناس ؛ فإن ثبت المسلمون ، فالله ثبَّتهم وثبّت أقدامهم ، وإن كانت الأُخرى ، حملْنا عليهم بخيولنا وهي جامّة على ميمنتهم وميسرتهم ، وقد انتهت شدّة خيلهم وقوتها ، وتفرَّقتْ جماعتُهم ونقضوا صفوفهم وصاروا نشرًا ، ثم نحمل عليهم وهم على تلك الحال ، فأرجو عندها أن يُظفرنا الله بهم ، ويجعل دائرة السوء عليهم ، وقد رأيتُ لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا ، وتقف أنت من ورائه بحذائه في جماعة حسنةٍ ، في مائتين أو ثلاثمائة ، فتكونوا رِدْءًا للمسلمين » . وقبل منه أبو عبيدة وقال له : « افعل ما أراك الله ، وأنا فاعلٌ ما أردتَ » .

رضي الله عن خالدٍ ، في معاركه الحاسمة دائمًا ينتظر لحظة حدوث الخَلَل في صفوف عدوه ، فيهجم .

---

(١) الطبري ٣ / ٣٩٨ ، وتهذيب ابن عساكر ١ / ٥٤٧ .
(٢) الطبري ٣ / ٣٩٧ وابن عساكر ١ / ٥٥٠ .
(٣) الأشقر هو فرس خالد ، والتَّوَجِّي أن يشتكي الفرس بطن حافره .

عندما اشتدّ هجوم الروم ، نادى خالد : « يا أهل الإسلام ، لم يَبْقَ عند القوم من الجَلَد والقتال والقوة إلَّا ما قد رأيتم ، فالشدّة الشدّة ، فوالذي نفسي بيده ليعطينّكم الله الظفر عليهم الساعة ، إني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم » . كان خالد في نصف فرسان المسلمين خلف جناحهم الأيمن ، في حين كان قيس بن هبيرة المرادي في نصفهم الآخر خلف جناح المسلمين الأيسر ، وفي اللحظة الحاسمة التي تضعضعتْ فيها صفوفُ الروم ، زحف خالد في فرسانه إلى الروم حتى تصافحوا بالسيوف ، واعترض خالد الروم وإلى جنبه أكثر من مائة ألفٍ ، فحمل عليهم ، وما هو إلا في نحو ألف فارسٍ ، فما بلغتهم الحملة حتى فضَّ الله جمعهم ذلك . قال عبد الأعلى بن سراقة : « وشددْنا على من يلينا من رجّالتهم فانكشفوا ، وأتبعناهم نقتلهم كيف شئنا ، ما يمتنعون من قبل ميمنتنا بميسرتهم » . ذهل درنجار وقد رأى مصير هجومه الكاسح كيف صار أمره ، واكتسحت فرسانُ خالدٍ مشاةَ الروم ، وقتلتْ منهم ستة آلاف (٦,٠٠٠) في رواية ، أو عشرة آلاف (١٠,٠٠٠) في رواية أُخرى ، وارتدّ من استطاع منهم في حالةٍ من الذعر والفوضى ، ما يمتنعون من القتل . وقال الدرنجار لأصحابه : « لفّوني بالثياب ، فليت أني لم أُقاتل هؤلاء القوم اليوم » . فلفّوه في الثياب وهو يقول : « لوددتُ أن الله عافاني من حرب هؤلاء ، ولم أرهم ولم يروني ، ولم أنصر عليهم ولم يُنصروا عليَّ ، وهذا يوم سوء » . وبقي ملفوفًا في ثيابه حتى قُتل . وزحف المسلمون إلى الروم رويدًا رويدًا ، حتى إذا دنوا منهم إذا هم ينتفضون من الرعب ، وكان صوت أبي سفيان يكاد يملأ المعسكر : « يا نصر الله اقترب ، الثبات يا معشر المسلمين » . وتراجع الروم ، ودفعهم خالد إلى الواقوصة[1] ، والواقوصة أحد حدوده

(١) نهر الرقاد جهة التقائه باليرموك .

لِهْب[1] لاج في الأرض ، حتى هوى فيها المقترنون بالسلاسل وغيرهم ، فتهافت في الواقوصة مائة وعشرون ألفًا (١٢٠,٠٠٠) منهم ثمانون ألفًا (٨٠,٠٠٠) مقترنون بالسلاسل ، وأربعون ألفًا (٤٠,٠٠٠) مطلقون ، سوى من قُتل بالمعركة من الخيل والرجال ، وسُمِّيتْ تلك الأهوية التي سقطوا فيها في اليوم الضباب « الواقوصة » ؛ لأنهم وُقِصوا فيها ، وأصبح خالد من تلك الليلة وهو في رواق قائد الروم ، وقُتل صناديد الروم ورؤساؤهم ، وقُتل أخٌ لهرقل اسمه « تيودورس » . فلما أصبح خالد ، خرج في الخيل يتعقّب الفلول الهاربة ، ويقتلهم في كل وادٍ وفي كل شِعْب ، وفي كل جبلٍ وفي كل ناحية ، في مطاردة عميقةٍ حتى انتهى إلى دمشق ، ثم انطلق في آثار الروم ، ومضى يتعقّب أكثرهم حتى أدركهم بثنيَّة العقاب ، وصعد خالد والمسلمون الثنية راكبين حتى هبطوا نحو الشرق ، وأشاعوا النِّكاية في الروم الفارِّين في سائر البلاد ، فعاد يقتلهم في القرى والأودية والجبال والشعاب والسهول ، وفي كل وجهٍ حتى انتهى إلى حمص .

وانتهت قصة الروم في أرض الشام ، أتوْا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد ، وقاتلوا المسلمين قتالًا شديدًا ، ما قُوتل المسلمون مثله في موطنٍ قطُّ ، ورزق الله المسلمين الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، فقتلهم الله في كل قريةٍ وشِعْبٍ ووادٍ وجبل وسهل .

قِنَّسْرِين وكلمات خالدٍ الخالدة : « لو كنتم في السحاب لحَمَلَنا الله إليكم أو أنزلكم إلينا » :

بعث أبو عبيدة - رضي الله عنه - خالد بن الوليد إلى قِنَّسْرِين - وكانت على الطريق بين حلب وأنطاكية - فلمّا نزل خالد بالحاضر قاتلوه ،

(١) هاوية .

وزحف إليه الروم بقيادة « ميناس » وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل ، فقُتل ميناس ، ومات الروم على دمه حتى أُبيدوا جميعًا ، لم يبق منهم أحد ، ولجأ العرب من تنوخ إلى حصنهم ، فتحصّنوا منه ، فقال لهم خالد : « لو كنتم في السحاب ، لَحَمَلَنَا اللهُ إليكم ، أو لأَنْزَلَكُم إلينا » . فنظروا في أمرهم ، وذكروا ما لقي أهل خمص ، فطلبوا صُلْحًا مثل صلح حمص . يقول البلاذري : إن أبا عبيدة صالحهم على مثل صلح حمص ، وتقول رواية سيف : إن خالد بن الوليد أبَىٰ إلَّا أن يُخَرِّب المدينة ، فأَخْرَبَهَا .

وبلغ عمر ما فعل خالد بِقِنَّسْرِين فقال قولته العظيمة : « أمَّر خالدٌ نَفْسَهُ ، يرحم الله أبا بكرٍ ، هو كان أعلم بالرجال مني ، إني لم أعزله عن ريبة ، ولكنّ الناس عظّموه ، فخشيتُ أن يوكّلوا إليه »(١).

خالد المطيع لقائده :

كان خالد مضيافًا كريمًا ، قصده الأشعث بن قيس فأجازه بعشرة آلاف ، فسمع بذلك عمر ، فكتب إلى أبي عبيدة بعزل خالد ، فجمع أبو عبيدة الناس وجلس لهم على المنبر ، فقام صاحب البريد ، فسأل خالدًا من أين أجاز الأشعث ، فلم يُجبه وأبو عبيدة ساكتٌ لا يقول شيئًا ، فقام بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ فقال : « إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ». ونزع عمامته، فلم يمنعه خالد سمعًا وطاعةً، ووضع قلنسوته، ثم أقامه فَعَقَلَهُ بعمامته ، وقال : « من أين أجزتَ الأشعث ؟ من مالك أجزتَ أم من إصابةٍ أصبتَهَا ؟ » . فقال : « بل من مالي » . فأطلقه ، وأعاد قلنسوته ، ثم عمَّمَهُ بيده وقال : « نسمع ونُطيع لولاتنا ، ونُفخِّم ونخدم ....

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٠١ .

موالينا »[١] . ولمّا قاسمه أبو عبيدة بأمر عمر بن الخطاب أمواله قال خالد : « ما أنا بالذي يعصي أمير المؤمنين »[٢] .

ولله دَرُّه حين عُزل وهو في المعركة ، وفي أوج انتصاره فما ترك العزلُ في نَفْسِهِ أثرًا ، لا فَرْقَ عنده أن يكون قائدًا عامًّا ، أو قائدًا مرؤوسًا أو رجلًا من المسلمين . هذه والله العظمة الإنسانية في أبهى مشاهدها ، خالد يستلّ النصر من بين أنياب الروم ، وهو ترياق وساوس التَّجبُّر والصَّلَف والبغي عند الروم ، وسيف الله المسلول على قوى التَّعَفُّن والشرك يُفاجأ بالإقالة !! لقد كان مسلكًا بالغ الرَّوعة والعظمة والجلال . يقول الأستاذ خالد محمد خالد في « رجال حول الرسول » (٣٢٥) : « ولا أعرف في حياة خالدٍ كلها موقفًا يُنبئ بإخلاصه العميق وصِدقه الوثيق مثل هذا الموقف » .

خـالد القـائد :

لقد رفع خالد معنويّات المسلمين ، وسَحَقَ معنويات الروم وقَبْلَهم الفرس ، لقد بلغت قيادة خالد في أرض الشام حدَّ الروعة والذّروة ، فكان خالد قائد القادة ومطمح الأنظار ومعقل الآمال ، سواء كان قائدًا عامًّا أو جنديًّا بسيطًا .

ذلك هو مقام الذروة الذي بلغه خالد بجدّه وجهاده .. المقام الذي أصبح فيه فوق المناصب والرُّتَب وفوق الأهواء والنَّزعات .. لقد أصبح أُمَّةً في رجلٍ ، لأنه أصبح يحمل مجد أُمة وبطولة جيلٍ .. لقد أصبح لا يمثل نَفْسَهُ فحسْب ، بل يمثل مجدًا وفكرة ، مجد عبقرية العرب في القيادة ، وفكرة الفتح

---

(١) طبقات ابن سعد ٦ / ٢٢ ، والإصابة ١ / ٥٠ ، وأسد الغابة ١ / ٩٧ .
(٢) الطبري ٢ / ٦٢٥ .

الإسلامي ، وما أعظم وأروع عبقرية القيادة العربية في الحروب ، وما أشرف وأنصع فكرة الفتح الإسلامي في التاريخ .

خالد يحتبس أدراعه وأعتُدَهُ في سبيل الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أمر رسول الله ﷺ بالصدقة . فقيل : منع ابنُ جميل وخالد بن الوليد وعباس بن عبد المطلب . فقال النبي ﷺ : « ما ينقم ابنُ جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله ورسوله ، وأمّا خالد فإنكم تظلمون خالدًا ، قد احتبس أدراعه وأعْتُدَهُ في سبيل الله ، وأمّا العباس ابن عبد المطلب فَعَمُّ رسول الله ﷺ فهي عليه صدقة ومثلُها معها »[(١)].

عن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه ، أن خالد بن الوليد فَقَدَ قَلَنْسُوَةً له يوم اليرموك ، فقال : اطلبوها . فلم يجدوها ، ثم وُجِدَتْ فإذا هي قلنسوة خَلَقَة ، فقال خالد : اعتمر رسول الله ﷺ ، فحلق رأسه ، فابتدر الناس شعره ، فسَبَقتهُم إلى ناصيته ، فجعلتها في هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالًا وهي معي إلّا رُزِقتُ النصر[(٢)].

وعن مولى لآل خالد بن الوليد ، أن خالدًا قال : ما من ليلةٍ يُهدى إلَيّ فيها عروسٌ أنا لها مُحِبٌّ ، أحبّ إلَيّ من ليلةٍ شديدة البرد ، كثيرة الجليد ، في سريةٍ أُصبِّح فيها العدو[(٣)].

وفي رواية : ما من ليلة يُهدىٰ إلَيّ فيها عروس أنا لها مُحِبّ ، أو أُبشَّر فيها بغلامٍ ، أحبّ إلَيّ من ليلةٍ شديدة الجليد ، في سريةٍ من المهاجرين ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه الحاكم ، والطبراني وأبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح . وقال البوصيري : رواه أبو يعلى بسند صحيح .

(٣) أخرجه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

أُصبِّح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد .

وقال رضي الله عنه : ما أدري من أي يوميَّ أفِرُّ : يوم أراد الله أن يهدي لي فيه شهادة ، أو يوم أراد الله أن يُهدي لي فيه كرامة .

وقال قيس بن أبي حازم : سمعت خالدًا يقول : منعني الجهاد كثيرًا من القراءة ، ورأيته أُتي بسُمٍّ ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : سم . قال : باسم الله . وشربه .

قال الحافظ الذهبي : هذه والله الكرامة ، وهذه الشجاعة[1].

أنتَ خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القَوْ م إذا ما كُبَّتْ وجوهُ الرِّجالِ

لما حضرتْ خالدًا الوفاةُ قال : لقد طلبتُ القتل مظانَّه ، فلم يُقَدَّر لي إلَّا أن أموت على فراشي ، وما من عملي شيء أرْجَى بعد التوحيد من ليلةٍ بِتُّهَا وأنا مُتَتَرِّس ، والسماء تهلّني ، ننتظر الصبح حتى نُغِيرَ على الكفار . ثم قال : إذا متُّ ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي ، فاجعلوه عدّة في سبيل الله ، فلمَّا تُوفي ، خرج عمر على جنازته فذكر قوله : ما على آل الوليد أن يسفحن على خالدٍ من دموعهن ، ما لم يكن نقعًا ولا لقلقة[2].

وفي رواية : وما عليهن أن يبكين أبا سليمان .

وقال عمر لخالد في حياته : يا خالد ، والله إنك لكريم عليَّ ، وإنك لحبيبٌ إليَّ . وبعد موته قال عمر : قد ثلم في الإسلام ثلمةً لا تُرتق . وقال فيه أيضًا : كان والله سدَّادًا لنحور العدو ميمون النقيبة .

---

(١) السير ١ / ٣٧٦ .

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة ونسبه إلى ابن المبارك في الجهاد ، وإسناده حسن . والنقع : التراب على الرؤوس ، واللقلقة : الصراخ .

وعن أبي العجماء السلسي قال : قيل لعمر : لو عهدتَ يا أمير المؤمنين . قال : لو أدركتُ أبا عُبيدة ثم ولّيْتُه ثم قدمتُ على ربي ، فقال لي : لِمَ استخلفْتَهُ ؟ لقلتُ : سمعتُ عبدك وخليلك يقول : « لكل أُمَّةٍ أمين ، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة » . ولو أدركت خالدًا ثم ولّيته فقدمتُ على ربي ، لقلتُ : سمعت عبدك وخليلك يقول : « خالدٌ سيف من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين »[١].

كلماتٌ عِذابٌ رِطابٌ في الثّناء على خالد من عمر وكَفَىٰ .

« لقد خُلق خالد ليكون قائدًا ، فعاش قائدًا ومات قائدًا ، فغاب جسده ، ولكن بقي حيًّا في النفوس ، وآثاره بقيت خالدة في التاريخ ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقىٰ معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام ، بل تاريخ الحرب لكل الأمم في كل مكان »[٢].

أشجاعٌ أنت أشجعُ من لَيْـ ـثٍ غَضَنْفَرٍ يذودُ عن أشبالِ
أجَوادٌ فأنت أجْوَدُ من سَيْـ ـلٍ غَامِرٍ يسيل بين الجبالِ

عن أبي الزناد أن خالد بن الوليد لما احتُضِر بكى ، وقال : لقيتُ كذا وكذا زحفًا ، وما في جسدي شِبْرٌ إلَّا وفيه ضربةٌ بسيف ، أو رميةٌ بسهم ، وها أنا أموت حتف أنفي كما يموت العير ، فلا نامت أعْيُنُ الجبناء .

إن رَوْح أبي سليمان وَرَيْحانه ليُوجَدان دائمًا وأبدًا ، حيث تصهل الخيل ، وتلتمع الأسِنَّة ، وتخفق راياتُ التوحيد فوق الجيوش المسلمة .

---

(١) رواه الشاشي في مسنده ، ورجاله ثقات خلا أبا العجماء ، فإنه مختلف فيه ، وثقه ابن معين والدارقطني وابن حبان ، وقال البخاري : في حديثه نظر .

(٢) قادة فتح العراق والجزيرة صـ ٢٣١ .

لكأني بفرسك جاءتْ ، لها صهيلٌ يصدح .. يقودُها عبيرُك وأرِيجك ، هذه التي وَقَفْتَهَا في سبيل الله .. لكأني بها تسفح من مآقيها دموعًا غزارًا وكبارًا .

« هل سيقدر فارسٌ أن يمتطي صهوتها بعد خالد ؟! وهل ستُذَلِّل ظهرَهَا لأحدٍ سواه ؟! إيه يا بطل كلِّ نَصْر .. ويا فَجْرَ كلِّ لَيْل .. لقد كنت تعلو بروح جيشك على أهوال الزَّحف بقولك لجندِك : « عند الصباح يحمد القوم السُّرى » حتى ذهبت عنك مَثَلًا ... وها أنت ذا قد أتممتَ مسراك .. فلصباحك الحمد ، ولذكراك المجد ، والعطر ، والخلد ، يا خالد »[1] .

حِصانُك في اليرموك يشربُ دَمْعَهُ ... ويا لعـذابِ الخـيلِ إذْ تتذكَّرُ
رفاقُكَ في الأنبارِ شدُّوا سُرُوجَهم ... لِفَقْءِ عيونِ الفُرسِ فالكُلُّ أعْوَرُ
ونهر الدَّمِ يبكيك لون دمائِهِ ... وَنَذْرًا له الأحنافُ صلُّوا وكبَّروا
وقولٌ بِقِنَّسْرِين يشتاقُ ماجدًا ... إلى السُّحْب مرقانًا وللشِّرْكِ نَدْحَرُ
سَلُوا قبقلارَ الروم لِمْ لَفَّ وَجْهَهُ ... وحَـزَّ له الأحنـافُ رأسًا يُنَـدِّرُ
مقــالُك للرُّومــانِ عِـزٌّ وَرِفْعَـةٌ ... وكم صيَّر العملاق « ماهان » أحقرُ
وإنا لِشُرْبِ الدَّمِ نشتاقُ دائمًا ... وَطَعْم دماءِ الرومِ أشهىٰ وأعْطَرُ
تُرَدِّدُهَـا الأجيـالُ دومًا لخـالدٍ ... لآلـىء عزٍّ تَبْقَى تَبْقَىٰ وتُزْهِـرُ

يحتاج المرءُ إلى سكينٍ
كي يكتُبَ حرفًا عن سيفِ اللهِ المسلول
يحتاجُ إلى إداوةِ دماءٍ
يحتاجُ إلى مقبضِ سيفٍ
كي يملِكَ ناصيةَ الكلمةِ في هذا الزَّمنِ المخبول

(١) رجال حول الرسول صـ ٣٣٢ بتصرف .

أختطفُ حروفًا مِن رَهَجِ الخيلِ
ولا أعرفُ كيف أجُول
يا خالدُ
فاسمح لي وانزِلْ عن فَرَسِك
كي أتملَّاكَ ... وعلِّمْني كيف أصُول

* * *

يا خالدُ
ستظلُّ الكلماتُ بليده
معذرةً .. فأنا أكتُبُ عنكَ
وأنا ألبسُ جِلدًا يُنكرني فيهِ
وأزدَرِدُ الأمجادَ عَنِيدَهْ

* * *

معذرةً تبلغُ حدَّ الجُرْمِ
بإنسانٍ يقترضُ كلامًا من سُوقِ نخاسةِ أهْلِيهْ
أتمنَّى .. لو أكتُبُ عنك بأيّام العَصْفِ وساعاتِ الزَّحفْ
أو أكتبُ فيك ومنك فتنسلّ الكلماتُ شَهِيدهْ
أتمنَّى لو طارتْ عُنقي بسبيلِ اللهِ
كي تُصبحَ عنوانَ قَصِيدهْ

* * *

....

يا خالدُ .. عقلُكَ عقلُكْ[١]
دينُكَ دينُكْ .. دَمُكَ ولحمُكْ
ما مِثْلُك يَخْفَىٰ النُّورُ عليهِ
وأنت الفارسُ يعرفُ كيفَ يَرِيشُ السهمَ
وكيف يُحاسِبُ أرضَ اللهِ إذا ما الباطلُ فاخَرَ فيها
وإذا النُّورُ تَلَألأَ
فالقاعدُ شرُّ الناسِ .. وملعونٌ مَنْ كابرَ فيها
يا رافعَ إرْثِ الخيلِ تليدًا .. وعتيدًا
يا جارَ الماحِلِ والمائلِ .. والمنقطعِ
ويا عزَّ المستضْعَفِ فيها

* * *

ودرجتَ بأعتابِ العِزَّةِ
أسمعتَ الأرضَ أناشيدَ رِماحِكْ
وَرَوَيْتَ البيداءَ دماءَ الكفرِ
ولقَّنْتَ فِراشَ الموتِ أغَارِيدَ جِراحِكْ
شوَّقتَ العالَمَ أن يقفَ على حدِّ السيفِ
لكي يسمعَ قصةَ سيفكِ وقوافيها
علَّمتَ خيولَ اللهِ بأن تَحْمِلَ مَنْ
وتطيرَ إلى اللهِ بِمَنْ
أن تَدْفَعَ بشَكَائِمِهَا

---

(١) هو أخوه الوليد بن الوليد الذي سبقه إلى الإسلام ، وقال له : يا خالد ، عقلك عقلك ، سألني عنك رسول الله ﷺ .

وتُنَازِلَ بحوافِرها
وتُهَلِّلَ بنواصيها

* * *

يا خالدُ
رُجحانُ العقلِ تَعَانَقَ فيك ورجحانُ السيفِ
ورجحانُ المَحْتِدِ
والصَّهوةُ كانت طَوْعَ يَديكْ
يا خالدُ .. اللهَ عليكْ
علّمني كيف هَصَرْتَ غرابيبَ الأرضِ السوداءِ
وكيف ملكتَ العربَ النَّكراءَ
وكيف بقرتَ أجاديبَ البيداءِ الموحشةِ
فأضحتْ قِرْبَةَ ماءٍ في كفَّيْكْ
يا خالدُ
لا يُصبِرُ قومٌ وجهكَ .. قلُّوا أم كثُروا إلّا انهزموا عنكَ
فلا أحدٌ أيمنَ طائرَ منكَ
ولم تعرف هذي البيداءُ أحدَّ عليها مِن سيفكَ
فهو السيفُ البازِغُ من فيضِ نبوءاتِ رسولِ اللهِ
وَقَدِمَ الرَّكبُ المكّيُّ الفارِعُ في المجدِ إلى مجدِ رسولِ اللهِ
لكي تنبتَ أشجارُ الضوءِ الموغِلةُ .. بِعُمقِ الأرضِ
الباسقةُ إلى عِلِّيِّينْ
فلذاتُ الكَبِدِ القُرَشِيَّة عانَقَهَا أَلَقُ الدِّينْ
وحباها اللهُ مِن النُّورِ الأوَّلِ برسولِ اللهِ مناراتٍ للتَّمكِينْ

يا خالدُ
مولودٌ أنت بِظَهْرِ الخيلِ
أخَالُكَ لا تأكُلُ إلّا بالسيفِ
تلوتَ كتابَ الله على هاماتِ الكفرِ بسيفِك حرفًا حرفًا
ودخلتَ الإسلامَ كبيرًا
وجناحُ الرَّهبةِ فيكَ .. وفي ابنِ العاصِ جناحُ الحِيلةِ
يا جَبَلا أمجادِ قُريشْ
لا طابَ مُقامُكَ دونَ الحقِّ ولا طابَ العيشْ
وكأنّ مكانكَ في الإسلامِ يُناديكَ
وتنتظِرُكَ ساريةُ الجيشْ
يا خالدُ
يا صاحِبَ « ناصيةِ رسولِ اللهِ »
ويا صانِعَ مِنْ شَعراتِ الخيرِ رِماحًا
تُطلقُها مِن جبهةِ أسَدِ الإسلامِ وتدفعُها
في صُحبةِ سيفِ اللهِ
هل يعلمُ أجنادُ الأرضِ بأنَّ الشَّعْرَ يصيرُ رِماحًا
وبأنَّ الدعواتِ تُزلزِلُ أوتادَ الأرضِ
وتفتحُ في الكُربةِ ساحًا

* * *

يا خالدُ
أفزَعَكَ سقوطُ قَلَنسُوَتِكَ في اليرموكِ
فَرُحْتَ تُغَرْبِلُ في الميدان وليسَ عَلَيكَ .. أتقعُ على الموتْ

أم يقعُ الموتُ عليكَ
فناصيةُ رسولِ اللهِ ستَقْمَعُ ناصيةَ الرومِ
وقد قمعتْ ناصيةَ الفُرسِ
سترفعُ ناصِيتَكَ حين تمُرُّ إلى الجنّاتِ بإذنِ اللهِ
يا شاهرَ سيفِ الإسلامِ .. ويا فاتحَ أرض اللهِ
وباسطَ ظِلِّ كتابِ اللهِ
لم تَعْهَدْ بعدَك خيلُ اللهِ مليكًا تُسلِّمه سُرُجَ العِزَّةِ
وتطيرُ به في اللهِ إلى مرماهْ
علّمْني أنَّ المَوْلدَ في الموْتِ حياهْ
« لا نامتْ عينُ الجُبَنَاء » .. ولا كانَ السيفُ المُغْمَدُ
والجِفْنُ المُغْمَضُ .. لا كان الكفُّ المغلولُ بِعُنُقِ الخوفِ
المُسْتَنْوِقُ في زَيْفِ خطاهْ

* * *

يا خالدُ
مِن طعنةِ رمحكِ أتنزَّى بعضَ الأحْرُفِ
كي أنسبَ يومًا للصَّدأ المعروق على أسْمالِكْ
مِنْ أسْفَلِ أسفلِ بئرِ الخيبةِ
أقتلِعُ كُلَيْمَاتٍ لاهثةً خلفَ ظِلالِكْ
معذرةً .. ما حيلةُ مَنْ وُلِدَ بِعَتَبَاتِ الخِزيِ .. المُنْخَنِسِ الضّائعِ
معذرةً .. ما شرُفَ الميدانُ بحافِرِ خيلِكَ
أو وَطْءِ نِعَالِكْ

* * *

يا خالدُ
هل تأذنُ أنْ أرفعَ بصمةَ حافرِ خيلكَ
لتصيرَ شعارًا لبيانٍ يُلقى في يوم النصرِ المقبِلِ إن شاء اللهْ
هل تأذنُ بإعارة سرجِ جوادِكَ يومًا
كي يعرفَ حاكمُنا المُطَهَّمُ
ما معنى الخيلِ المُسْرَجَةِ لِنُصْرَةِ دينِ اللهْ
يا خالدُ
لو رمحٌ منكَ يمرُّ الآنَ .. لكانتْ رايتُنَا أعْلَى
لو سيفٌ منكَ يكرُّ الآنَ .. لكانت حُجَّتُنَا أجْلَى
لو سهمٌ منكَ يجيءُ الآنَ .. لكانت كلمتُنَا أحلَى
لو كان لدينا وتدٌ مِن خيمتِكَ الآنَ
شكيمةُ فَرَسِكَ .. دِرعُكَ
لو أنَّ لدينا شيئًا ينتسبُ إليكَ الآنَ
لأصبحنا شيئًا آخرَ
ولصِرْنَا بعد هُنَيْهاتٍ عندكْ
لو شوكةُ رمحكِ تبقرُ بطنَ ولاةِ الأمرِ
لهانَ الأمرُ .. وأصبحْنَا من خيرةِ جُندِكْ
يا خالدُ
أنَسَيْتَ الرُّومَ وسَاوِسَهُمْ
وبطونُ النّسوةِ عَقِمَتْ أن تَلِدَ قرينًا لكْ
يا من فَرَّجْتَ عن الصِّدِّيق
وأعلاك الفاروقُ .. وقال : قد أمَّرَ خالدُ نفسَهْ
وبسيفك
قد فُتِنَ الناسُ وقالوا

في سيفِكَ يسكُنُ سرُّ النَّصرِ
وأعناقُ الجبّارِينَ أبَتْ أن تُقطفَ إلّا بهْ
وتلوتَ على النّاسِ كلامًا يَبْرُقُ كالرَّعدِ
اللهَ عليك .. وأنتَ بِقِنَّسْرِين
إذِ الميدانُ يؤزُّ .. وأضلاعُ الفتنةِ كادتْ تعتصِرُ الجُندَ
وأنتَ تمدُّ حبالَ الثِّقةِ إلى مولاكَ
فتُطلِقُ هذا القولَ سراجًا وَهَّاجًا
أمْضَى من كلِّ سلاحٍ عَرَفَتْهُ الفُرسُ على النِّيرانْ

* * *

يا خالدُ
علَّمَك الله بأنْ تضربَ فوقَ الأعناقِ
وأن تَضرِبَ منهمْ كلَّ بَنَانْ
هل عرفَ العالمُ قبلَكَ هذي الحِكمةْ
« والله .. لو أنَّ عدُوِّي في بطنِ سماواتِ الله
لَيَرْفَعُنِي الله إليه .. أو يُنزِلهُ الله إليّ »

* * *

اللهَ عليك وأنت بِحِمْصَ تفوحُ كَزَهْرِ الشّامْ
وتحلُو أحلى من فاكهةِ الشّامْ
والناسُ حوالَيْك تَدورُ .. وأنت البدرُ
وقد أعلى ربِّي فيكَ العِزَّةَ والإقدامْ

* * *

اللهَ عليك .. وسيفُك يجتثُّ العُزّى
ويُحِقُّ الحقَّ ويقطعُ دابِرَ كلِّ هَلُوكْ
يا شامةَ يومِ الفتحِ .. ويا قامعَ مَنْ بَدَءُوكْ
أميرًا كنتَ .. وسيفكَ كان أميرا
والرُّمحُ البازغُ مِنْ كفَّيْكَ أميرا
وجوادُك كان أميرا
والقوسُ الرَّائِشُ منك السهم أميرا
يا خالدُ
يا قَصَّابَ الكُفْرِ
ويا قامعَ وسوسةِ الكفرِ على اليرموكْ
« إذا دُعِي أجابَ »
« وإن نُودِيَ لَبَّى »
« وإذا سمِعَ الهَيْعَةَ طَارَ إليها »
لكنَّ الطاعةَ والسَّمْعَ جهادٌ
الفتنةُ فيه تفُوقُ القتْلَ
فكنتَ على التَّوِّ السيفَ المُغْمَدَ
في وقتٍ كنتَ عليه السَّيِّدَ
كانَ النصرُ إلى مقبضِ سيفكِ يَحْبُو
وجنودُ الله بدُونِكَ تكبو
في وقتٍ كنتَ تُعِيدُ على العالمِ فيه قراءةَ قولِ اللهْ
﴿ **ومزقناهم كلَّ ممزق** ﴾
وجعلتَ الكفرَ أحاديثَ
وأضحى الباطلُ من طائف طَيْفِكَ يَخْبُو

لكنّك تسمعُ وتطيعُ .. وإن كانَ أميرُكَ عبدًا حبشيًّا
ودروس الطاعةِ ليستْ بالشيءِ الهَيِّنْ
في وقتٍ يتحدَّثُ فيه السيفُ
ولكنَّكَ كُنتَ الفارسَ
وضربتَ مثالًا لجنودِ اللهِ بأرضِ اللهِ إلى يومِ الدِّينْ

* * *

يا خالدُ
ماذا تصنعُ ورجالُكَ معذورونَ إذا فُتِنُوا في هذا السيفِ
فما عهدوا سيفًا مِثْلَكَ ينطقُ بالقولِ الفَصْلِ
ويكتُبُ خاتمةَ الأشياءْ
فَتَغَلْغَلَ في أعماقِ الجندِ يقينٌ يهمسُ
« في خالدٍ .. يسكنُ سرُّ النَّصْرِ »
فخالدُ رجلٌ
ميمونُ السَّاعِدِ
ميمونُ النَّصْلِ ولا يخشى لومةَ لائمْ
فتلا الفاروقُ الدرسَ الغالبَ في التوحيدِ
وَمَنْ يَجرؤُ أن يُملِيَ هذا الدَّرْسَ سوى الفاروقِ
وَمَنْ يفهمُ هذا الدرسَ سوى خالدْ
يا صَاحِبَ « نهر الدمِ » وقامِعَ رأسِ « الرِّدَّةِ »
يا قارئَ في كَونِ اللهِ على العادِينْ
﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾
﴿ **واجتنبوا قولَ الزور** ﴾

يا هادِمَ ما عَبَدَ أبوكْ
وناصِرِ ما هُدِيَ أخوكْ
اللهَ عليكْ .. يا مَنْ أخْلَيْتَ الحاجِبَ ما بين المالكِ والمملوكْ

* * *

وبسيفكَ قُمتَ بِلَمِّ الأرضِ على الإسلامْ
والضوءُ السّابغُ من هذا البدرِ أنار مَجَاهِيلَ الكوكبِ
أخرجَهُ للنُّورِ مِن الإظلامْ
وأحالَ الآياتِ جنودًا تَزْحَمُ عينَ الشَّمسِ
وخيلًا تَهْدِرُ بالإلهامْ

* * *

الله عليكَ وأنت تَمِيدُ على اليرموكِ وقِنَّسْرِينَ
وإذْ بالفاروقِ يُقرِّرُ
أن يُعزلَ خالدُ فورًا
أن يُعقلَ بِعِمامتِهْ
أن تُنْزَعَ عنه قلنْسُوَتُهْ
ذلك حتى يُعْلِمَنَا من أين أجاز الأشعث
هل من مالهْ
أم من مالِ اللهْ
إن كان بمالِ اللهِ فقد خانَ الأُمَّةَ
والخائنُ لا يُؤتَمَنُ على شيءٍ بعدْ
وإذا كان بمالِهْ

فلقد أسْرَفَ
ولسوفَ تُقاسِمُهُ المالَ مُناصَفةً
حتى نَعْلَيهْ
فابستمَ الناسُ وقالوا : هذا لا يُصلِحُهُ إلا هذا
وبرغم قبولِ الأمرِ بصبرِ المؤمنِ وَثَبَاتِ القائدِ
وَثَبَ بِلالُ إليكَ
ونفَّذَ أمرَ الفاروقِ
وَنَقَضَ عِمامَتكَ الشامةَ واعْتَقَلَكَ فيها
اللهَ عَليكَ
وأنت ذَلُولٌ .. لا تمنعُ مَنْ يصنعُ ذلكَ
بل تبسطُ وجهكَ لبلالَ وتُعربُ
« نسمعُ ونطيعُ ولاةَ الأمْرْ »
وأنتَ الفاقهُ معنى الطاعةِ
كان جوابُكْ
ما أنا مِمَّنْ يعصي
فاصنعْ ما يبدو لكْ
يَسَّاقطُ هذا العَدْلُ العُمَرِيُّ ثمارًا تنطقُ
يا خالدُ
« إنكَ لكريمٌ واللهِ عليَّ »
« وإنكَ لحبيبٌ واللهِ إليَّ »
« ولنْ تعتِبَ بعدَ اليومِ عليَّ على شيءٍ أبدًا »
يا تمرًا أيْنَعَ في شجرِ النُّصْرَةِ
والفتحِ الأعظمِ .. يا أملًا في كلِّ تقيٍّ

يا خالدُ
كنتَ جهادًا للإسلامِ بِطُولِ الأرضِ .. وعرضِ الأرضِ
وعُمقِ الأرضِ
وكنتَ بفضلِ الله مَهِيبًا
كنت تودُّ بأَنْ تُستشهدَ مِلْءَ جهادِكَ .. فوقَ جوادِكَ
في معمعةٍ تشهدُ أَنَّكَ صرتَ أميرًا للشهداءِ
وأن دماءَكَ تقطرُ طِيبًا
ما بقيَ بجسمِكِ موضعُ
إِلَّا وَبِهِ طعنةُ رُمحٍ
أو رميةُ سهمٍ
أو ضربةُ سيفٍ
جسدُكَ صار كتابَ جهادٍ يَقْدَحُ في الظُّلماتِ لَهِيبًا
فاهنأْ في عِلِّيِّينَ .. تُرَفرِفُ روحُكَ
بحواصِلِ طيرٍ خُضرٍ
تَرِدُ مياه الجنَّةِ
تأوِي لقناديلَ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ
وتُؤويكَ إلى الله مُنِيبًا

* * *

يا خالدُ
تحمل هذي الكلماتُ إليك .. ذراعًا من كَشْمِيرْ
وبقايا طفلٍ من بورما
وحقيبةَ طفلٍ من لبنانْ

تحملُ عينًا مِن بلغاريا
تحملُ شبحًا من قلبِ بُخارَى
تحملُ مِن بيت المقدسِ نصفَ لسانْ
تحملُ عَصَبًا ينزِفُ فوقَ الثَّلجِ
ويُستشهدُ فوق القرآنْ
تحملُ مِن قلبِ الأزهرِ شيخًا مصلوبًا
مسلوبَ الجُبَّةِ والقفطانْ
مغلولَ السَّاعِدِ .. منزوعَ الأضلُعِ والأسنانْ
تحملُ جاريةً أُسِرتْ في تونسَ ساجدةً
ينقرُ عِفَّتَهَا الغربانْ
تحملُ صورةَ بيتٍ منهوبٍ في وهرانْ
وفتاةٍ أكلوا عُذرِيَّتَهَا
نَهَشُوهَا دَنَسًا
مئذنةً شامخةً من أرضِ البوسنةِ والهرسكْ
يعلوها نَجَسُ الصُّلْبانْ
يا خالدُ
خارِطَتِي فاجعةٌ جدًّا
لا أذْرُعَ فيها .. لا قلبَ .. ولا سِيقانْ
خارطتي فاقدةُ النطقِ
وفاقدةُ السَّمْعِ
مُسجّاةٌ .. تُحْتَضَر الآنْ
قتلانا من غير قبورٍ
أبدانٌ من غير رؤوسٍ .. منبرُنا يرعُفُ بالبُهتانْ

في سيفِك بعضُ البُرْءِ
لا نجدُ لموتانا لحدًا
لا نملكُ ثَمَنَ الأكفانْ

* * *

يا خَالِدُ
يتصبَّبُ لحمي خجلًا وأنا أكتبُ عنكَ
وأختطفُ حروفًا مِن رَهَجِ الخيلِ
ولا أعرفُ كيفَ أصُولْ
سامحني
لا أملكُ شيئًا أبدًا في هذا الزَّمَنِ المشلولْ
لا أعرفُ كيف أُميِّزُ بين القاتلِ والمقتولْ
قد أضحتْ كلُّ خياناتِ الأرضِ بأرضي فاكهةً
سامحني .. نحنُ الفاعلُ والمفعولْ
يا خَالِدُ
في هذا الزمنِ المخبولْ
أتنزَّى بعضَ الأحْرُفِ
كي أنسبَ يومًا للصَّدأ المعروقِ على أسْمالِكْ
مِن أسْفَلِ أسفلِ بئرِ الخيبةِ
أقتلعُ كُلَيْمَاتٍ لاهثةً خلفَ ظِلالِكْ
معذرةً
ما حيلةُ منْ وُلِدَ بِعَتَبَاتِ الخِزْي
المُنْخَنِسِ الضّائعِ

ما شَرُفَ المِيدانُ بحافِرِ خيلِكَ .. أوْ وَطْءِ نِعَالِكْ
فاسْمَحْ لِي
أن أرفعَ بصمةَ حافِرِ خَيلِكَ لتصيرَ شِعَارًا
لبيانٍ يُلقى في يومِ النصرِ المقبِلِ إنْ شاءَ اللهُ[(١)]

الصحابي المُثَنَّى بن حارثة الشَّيْباني ، البطل الذي جرَّأ المسلمين على قتال الفُرس :

وامُثنَّاه ! ولا مثنّى اليوم للخيل .. وامُثنَّاه ! ولا مثنّى للمسلمين اليوم :

يذكر التاريخ للمثنى أنه « كان أول مسلم هاجم الإمبراطورية الفارسية في عقر دارها »[(٢)] ، فحمل عن المسلمين عِبئًا لم يحمله غيره ، وهو الذي جرَّأ المسلمين على محاربة الفرس ، ورفع معنويات العرب وحطّم معنويات الفرس ، وكانت أعماله العسكرية في العراق مقدمةً لفتحه فيما بعد ، وكانت معركة « البويب » تمهيدًا لمعركة « القادسية » وإيذانًا بانهيار الإمبراطورية الفارسية ، وقد كان شجاعًا إلى أقصى حدود الشجاعة ، مقدامًا إلى أقصى حدود الإقدام ، وقد « أبلى في حروب العراق بلاءً لم يُبْلِه أحد »[(٣)].

في حروب الرِّدَّة :

عندما ارتدَّتْ ربيعة وكانت في البحرين ، ثبت المثنى على الإسلام مع من ثبت من قومه ، فكتب العلاء بن الحضرمي إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل – ومنهم المثنى – أن يُعينوه على مكافحة المرتدّين حتى يعودوا إلى الإسلام ، فكان المثنى على رأس الذين أعانوا العلاء في مهمته الشاقّة ،

---

(١) قصيدة « رسالة إلى سيف الله المسلول » لمحمود خليل – دار الصحوة .
(٢) جمهرة أنساب العرب صـ ٣٠٥ .
(٣) الإصابة ٤ / ٤١ ، وأسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .

وضيّق المثنى الخناق على مَنْ قِبَلَه من المرتدين ، وكان لهم الضربات المميتة ، وأخَذَ الطريق عليهم ، ولم يَكْتَفِ بذلك ، بل تابع السير شمالًا على شاطئ الخليج العربي ؛ ليقاوم دسائس الفرس الذين شجَّعُوا المسلمين في منطقة الخليج على الرِّدَّة ، ويقضي على أنصارهم من القبائل والأبناء[1] .

في الفتح :

تقـدَّم المثنّى بقواته شمالًا مـن منطقة البحـرين ، فقضى على الفرس وعمّالهم ممن عاونوا المرتدين في البحرين ، حتى وضع يده على « القطيف » و« هجر » وحتى بلغ في تقدُّمه مَصَبَّ دجلة والفرات في الخليج العربي . وتسـاءل الناس عن هذا القائد الذي يسـير من نصرٍ إلى نصرٍ ، وتساءل الصِّدّيق أبو بكر رضي الله عنه قائلًا : « مَنْ هذا الذي تأتينا وقائعُه قَبْل معرفة نَسَبِه ؟ »[2] . فأجابه سيد أهل الوبر قيس بن عاصم المنقري : « هـذا رجل غير خامِلِ الذِّكْر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة »[3] .

أمُهَجِّنَ الشجعانِ والمُزْرِي بِهِمْ ... وتَرُوكَ كلِّ شجاعِ قومٍ عَاتِبَا
شادوا مناقِبَهم وشِدْتَ مَناقبًا ... وُجِدَتْ مناقِبُهُمْ بِهِـنَّ مَثالِبَـا
خُذْ من ثنايَ عليكَ ما أسْطِيعُهُ ... لا تُلْزِمَـنِّي في الثَّنَـاءِ الواجِبَا
فَلَقَدْ دَهِشْتُ لما فَعَلْتَ ودُونَهُ ... ما يُدْهِشُ المَلَكَ الحفيظَ الكاتِبَا
قد عسكرتْ مَعَكَ الأُسودُ عساكرًا ... وَتَكَتَّبَتْ معك الرِّجالُ كتائِبَا
أسْدٌ فرائِسُهَا الأسود يقودُها ... أَسَدٌ تصير له الأُسُودُ ثعالِبَا[4]

---

(١) قوم من العجم سكنوا البلاد العربية ، واختلطوا بالعرب بالمصاهرة فتعلَّمُوا لغتهم .

(٢) الإصابة (٦ / ٤١) .

(٣) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ ، وفتوح البلدان للبلاذري صـ ٢٤٢ .

(٤) من ديوان المتنبي بتصرف .

وجاء المثنى إلى المدينة المنورة لمقابلة الصِّدّيق رضي الله عنه ، وسأله أن يُؤمِّره على رجاله ليُهاجم بهم الفرس في العراق قائلًا : « يا خليفة رسول الله ، استعمِلْني على قومي ، فإن فيهم إسلامًا ، أُقاتِل بهم أهل فارس ، وأكفيك أهل ناحيتي من العدو »[١]. فكتب له أبو بكر رضي الله عنه بذلك عهدًا ، فهو الذي « أطمع أبا بكر الصِّدّيق - رضي الله عنه - والمسلمين في الفرس ، وهوَّن أمر الفرس عندهم »[٢].

لله دَرُّه ، فهو بحقٍّ ، كما يقول عنه عمر بن الخطاب : « مؤمِّر نَفْسِهِ »[٣].

واستمر المثنى - رضي الله عنه - على مُهاجمة أهل السواد ، ثم بعث أخاه مسعودًا إلى أبي بكر يسأله المدد ، فأمدّه بخالد بن الوليد ، على أن يتولّى خالد القيادة العُليا ، فلمَّا وصل خالد العراق ، كتب إلى المثنى ليأتيه « فانقضَّ إليه جوادًا حتى لحق به »[٤]. وهكذا تُسارع الرجولة إلى الطاعة !

وعندما وصل خالد إلى العراق ، أُعجِبَ بالمثنى ومقدرته الحربية الفائقة ، فكان خالد يعتمد على المثنى في حرب العراق كلَّ الاعتماد ؛ بصفته من أشجع الرجال أولًا ، وبصفته من أعلم الناس بالفرس ؛ لأن قبيلته من مواطني العراق أيامَ الحكم الفارسي ، زد على ذلك أن المثنى كان أوَّل من خاض المعارك مع الفرس ، فعلم كثيرًا من أحوالهم وأساليبهم ونفسيّاتهم ،

---

(١) الإصابة ٦ / ٤١ ، وأسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .
(٢) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .
(٣) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .
(٤) تاريخ الطبري ٢ / ٥٥٢ .

وكان المثنى قبل الإسلام حكيم قومه .

مـع خـالد :

قَاتَلَ المثنى تحت لواءِ خالدٍ في كلّ معاركه التي خاضها في العراق ؛ تارةً تحت قيادة خالد المباشرة ، وتارة قائدًا مستقلًّا . فبعد معركة « كاظمة » التي انتصر فيها المسلمون على الفرس ، أمر خالدٌ المثنى أن يُطارد المنهزمين من الفرس ، فطاردهم المثنى مطاردةً حاسمةً ، كأنّما يريد ألَّا يتركهم قبل أن يبلغ المدائن[1] . وكان رضي الله عنه مع خالد في معركة المزار ، وهو الذي راقب الجيش الفارسي ورصدَ حركاته لخالد . وبعد فتح الحيرة والأنبار ، أرسله خالد لمهاجمة « سوق بغداد » فأغار عليه وهزم المدافعين عنه[2] . ولمَّا ورد أمْر أبي بكر إلى خالد بالحركة إلى أرض الشام لمقاتلة الروم ، وأن يأخذ نصف الناس ، ويستخلف المثنى على العراق في نصف الناس ، أحضر خالد أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا معه ، واستأثر بهم لنفسه ، تاركًا للمثنى مثْل عددهم ممن لم يكن له مع الرسول ﷺ صُحبة ، واستأثر لنفسه أيضًا بمن كان قدم على النبي ﷺ وافدًا ، فأبى المثنى وقال : « والله لا أُقيم إلَّا على إنفاذ أمر أبي بكر ! وبالله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبي ﷺ » . فلمّا رأى خالد ذلك أرضاه[3] .

المثَّى القائد العام :

الصديق أعطى القوسَ باريها :

كان الموقف العسكري في العراق عند مغادرة خالد له خطيرًا للغاية ؛

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٤٨ .

(٢) الطبري ٢ / ٥٨٤ .

(٣) ابن الأثير ٢ / ١٥٦ ، والطبري ٢ / ٦٠٥ .

فقد كانت قوات المثنى قليلة بالنسبة لقوات فارس ، وكانت خطوط مواصلاته بعيدةً بالنسبة لخطوط مواصلات الفرس ، أمّا المشاكل الداخلية في بلاد الفرس ، فقد أصبحت أقلّ من السابق بعد اتفاق الفرس على رفع « شهر براز ابن أزدشير » إلى العرش ، فلمّا اطمأنّ الأمر له ، كان إجلاء المسلمين عن العراق أوّل ما استقرَّ عليه عزمه . ولعلّ شعور خالدٍ بخطورة الموقف في العراق ، هو الذي دفعه إلى ترحيل النساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة ، قبل سفره إلى الشام . وبلغ المثنى أنباء حشْد فارس لمهاجمة قواته ، فسار حتى بلغ بابل ، وانتظر هناك عشرة آلاف مقاتل فارسي يقودهم « هرمز جاذويه » .

معركة بابل أواخر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة هجرية ، المثّنى قاتل الفيل :

كتب ملك الفرس « شهر براز » إلى المثنى رسالة قبل المعركة ، تدلّ على كبرياء سخيفة ممقوتة ، تحمل كل معاني الاستخفاف بالمثنى وجيشه ، ونسي أن هذا الجيش ، على قلّة عدده هو الذي أنْزَلَ أشنع الهزائم بما يقرُب من نصف مليون مقاتل فارسي في معارك متفرِّقة ، وهو في كل معركة لا يزيد على عشرين ألفًا ، فكتب ملك الفرس إلى المثنى : « من شهر براز إلى المثنى ، لقد بعثتُ إليك جندًا من وخش[1] أهل فارس ، إنما هم رُعاة الدّجاج والخنازير ، ولست أُقاتلك إلّا بهم » . فردَّ عليه المثنى : « من المثنى إلى شهر براز ، إنما أنت أحَدُ رجُلَيْن ، إمّا باغٍ ، فذلك شرٌّ لك وخيرٌ لنا ، وإمَّا كاذبٌ ، فأعْظَمُ الكذّابين عقوبةً وفضيحةً عند الله في الناسِ الملوكُ ، وأمَّا الذي يدلُّنا عليه الرأي ، فإنكم اضطررتم إليه ، فالحمد لله الذي ردَّ

(١) أي من أسقاطهم وأراذلهم .

كيدكم إلى رُعاة الدّجاج والخنازير »[١]. وتشاءم الفرس من جواب المثنى وقالوا : إنما أُتي « شهر براز » من شؤم مولده وشؤم منشئه ، وقالوا له : جرّأتَ علينا عدوَّنا ببعْث الكتاب إليه . وجعل المثنى على ميمنة جيشه أخاه المعنّى بن حارثة ، وعلى ميسرته أخاه مسعود بن حارثة ، وكان أكثر جنده من قومه شيبان وبكر بن وائل ، فاستماتوا في القتال . وكان جلُّ اعتماد الفرس لتمزيق صفوف المسلمين على الفيل المدرَّب على القتال ، وبدأت المعركة عنيفةً فاشيةً شديدةً ، وكان الفيل مدرّبًا أحسن تدريب على القتال ، وفرّق صفوف المسلمين ، وكان لا يقف في وجهه شيءٌ ، فخشي المثنى أن يكون لمساندة هذا الفيل لجيش فارس تأثيرٌ سيِّئ خطير على جند الإسلام ، الذي أربك هذا الفيل صفوفه ، فسارع المثنى نفسه وفئة من المغاوير إلى الفيل ، حتى أصابوا من الفيل مقتلًا ، فخسر الفرسُ - والمعركةُ على أشدّها - أهمَّ مُساندٍ لهم ضد المسلمين ، ولم يكد الفيل يقع على الأرض حتى جزع الفرس جزعًا شديدًا ، ثم تحوّل جزعهم إلى هزيمةٍ كاملة ، فشرعوا في الهرب وسيوفُ المسلمين تأخذهم من كل جهة . واستطاع المسلمون أن يُبيدوا المشاة عن آخرهم ، أمّا الفرسان من الفرس فقد أركضوا خيلهم هاربين ، فطاردهم فرسان المسلمين ، فصاروا يأسرون ويقتلون مَنْ يقدرون عليه ، وطالت مطاردة المثنى لهم ، حتى وصل في مطاردتهم أبواب المدائن ، وفرَّ « هرمز جاذويه » من الميدان ، وشاع خبر موت الملك « شهر براز » في أثناء هزيمة الفرس ، فزادهم خبالًا على خبال . قال عَبْدَةُ بن الطَّيب عن هذا اليوم :

حلَّتْ خُوَيْلَةُ في حيٍّ عهدتُهُمُ ... دونَ المدائِنِ فيها الدِّيكُ والفيلُ
يُقارِعون رؤوسَ العُجْمِ ضاحيةً ... منهمْ فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤١٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ١٦٠ .

وقال الفرزدق مُثنيًا على المثنى :

وبيتُ المُثنّى عاقِرِ الفيلِ عَنْوَةً بِبَابِلَ إذْ في فَارِسٍ مُلْكُ بابِلِ

وكتب المثنى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه يخبره بانتصاره ، ويستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الرِّدَّة ، بل غادر المثنى العراق إلى المدينة ليُخبر الصِّدّيق خبر المسلمين والفرس ، فوصل إليها قبل موت الصّدّيق بيومٍ واحد ، وأوصى الصِّدّيقُ عمرَ بن الخطاب بأن يندب الناس مع المثنى . ولمَّا مات الصِّدّيق ، أصبح عمر من الليلة التي مات فيها أبو بكر رضي الله عنه ، فاستنفر الناس للانضواء تحت لواء المثنى ، وأحجم الناس عن قتال الفرس ، وكان قتال الفرس من أكره الوجوه إلى العرب ؛ لِمَا عُرفوا به من عنادٍ وصبرٍ في القتال ، ولشدّة سلطانهم وعزِّهم وقوة شوكتهم وقهرهم الأمم . وقام المثنى يهوِّن من أمر الفرس ، فقال في مسجد رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، لا يعظُمَنَّ عليكم هذا الوجه - أي الفرس - فإنَّا قد بَحْبَحْنَا رِيفَ فَارس ، وغلبناهم على شقّي السّواد ، وشاطرناهم ونِلْنا منهم ، واجترأ مَنْ قِبَلنَا عليهم ، ولها ما بعدها إن شاء الله »[1]. فتوالى المتطوِّعون حتى بلغوا ألف رجُلٍ من المدينة المنورة فقط ، وعاد عمر إلى نَدْب الناس إلى العراق قائلًا : « أين الطُّرَّاء المهاجرون عن موعود الله ؟! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يُورثكموها ؛ فإنه قال : ﴿ لِيُظهره على الدِّين كله ﴾ [التوبة : ٣٣] . والله مظهر دينه ومعزّه وناصره ، ومُوَلِّي أهله مواريث الأمم ، أين عبادُ الله الصالحون ؟! » . وهنا قام أبو عبيدة ابن مسعود الثقفي فقال : أنا لها . وقال عمر : « والله لا أُؤمِّر عليكم إلَّا أوَّلهم انتدابًا » . فأمَّر أبا عبيدة على المثنى ومن معه ، فسمع المثنى وأطاع

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٣١ ، والكامل ٢ / ١٦٦ .

بقلبٍ نقيٍّ طاهرٍ صافٍ . قال عمر بن الخطاب : « يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعْلَم بالرِّجال مني » . وقد كان عَـزَلَ خالد بن الوليد والمثنى وقال : « إني لم أعزلْهما عن ريبةٍ ، ولكنّ الناس عظَّموهما ، فخشيتُ أن يوكّلوا إليهما »[1] .

كان الصِّدِّيق معجبًا بالمثنى إعجابه بخالد بن الوليد ، وكان يراه لا يقلّ عن خالدٍ في كفاءته الحربية ، وبلغ المثنى الذّروة من المجد وعلوّ الصِّيت ، وكان كخالدٍ ؛ لم ينهزم في معركةٍ واحدة ، ولم تنكَّس له راية .

رجل العراق الأوّل يُفوِّت على الفرس إبادة المسلمين ، وينسحب منه دون علمهم :

وصل إلى المثنَّى من استخباراته أن « رستم » قائد الفرس يؤلِّب أهل العراق والفرس ، من أعالي الفرات إلى مَصَبِّه ، وأن السّواد بعد اشتعال ثورته ضد المسلمين سيطوِّق جيش المسلمين ، ويُبيده بالتعاون مع ثلاثمائة ألف مقاتل من الفرس ، وكان هدف رستم قطْع خطوط الرَّجعة على المسلمين ، واحتلال الحيرة ثم إبادتهم ، ولا سيّما أن قوات المسلمين مبعثرة في نواحي العراق ، وكانت خطة رستم تقضي بالإيعاز إلى أهل كل بلدةٍ أو موقعٍ ، من الفرس أو العرب المُتَنَصِّرة ، بأن يشغبوا ويثوروا على حاميات الإسلام ، وَوَعَدَهم بالمدد السريع من الجيش ليُبيدوا هذه الحاميات ؛ كل حامية على حدةٍ ، ولكن المثنَّى العبقري أفسد على رستم خُطّته ، فقد أرسل البريدَ العاجل خفيةً أمرًا إلى جميع المسالح والحاميات والمواقع وفصائل الاستخبارات خارج الحيرة ، بأن تترك مواقعها وتتحرك بأسرع ما يمكن إلى الحيرة ، ودهش رستم عندما وجد اللّيث الهَصُور والعبقري الخبير « المثنَّى » قد سبقهُ ، وسَحَبَ كل جندي

(١) الكامل ٢ / ١٩١ .

إلى الحيرة ، ثم انسحب من الحيرة بكامل جيشه إلى حدود شبه الجزيرة ، دون أن تعلم مخابرات الفرس إلَّا بعد أن وصلها أن المثنى أنهى انسحابَهُ إلى خفان دون أن يخسر مقاتلًا واحدًا ، فتألّم رستم ، وعلم أنه أمام قائد من أعظم قادة العالم . ولما وصل أبو عبيدة إلى خفان ، وأقرَّ المثنَّى على ما صنع ، عَلِمَ أن الفرس نزلوا « النمارق » فسار إليهم بقوات المسلمين ، وجعل المثنى على الخيل ، فاقتتل الطرفان قتالًا شديدًا ، وانهزم الفرس أمام المسلمين ، ووقع قائدهم « جابان » أسيرًا .

مائة ألف لا يصمدون أمام تسعة آلاف .. يا لله !!

والتقى المسلمون بالفرس بعدها في معركة « السقاطية » فانتصر المسلمون بعد قتالٍ شديد ، فأقام أبو عبيدة بناحية « كسكر » وسرَّح المثنى إلى « باروسما » وسرّح غيره من القادة يُغيرون على تلك النواحي ، ويُخضعونها للمسلمين . والتقى الطرفان في معركة « الجالينوس » فانهزم الفرس أيضًا ، وقدم المثنى الحيرة ، واستقرَّ بها . ووجَّه أبو عبيدة المثنى إلى « زندورد » فوجدهم قد نقضوا فحاربهم وانتصر عليهم .

معركة الجسر ، وتُعرف أيضًا بالمروحة ، والقرقس ، وقس الناطف :

حشد الفرس جيشًا عظيمًا بقيادة « بهمن جاذويه » فعبر إليه أبو عبيدة بجيشه ، مُخالِفًا من كان معه من قادة الجيش ، وقبل نشوب القتال بين الطرفين ، عيَّن أبو عبيدة الأمراء الذين يتولّون قيادة المسلمين من بعده إذا استشهد ، وكان من بين الذين عيَّنهم : المثنَّى ، فلمّا استشهد أبو عبيدة ، واستشهد الذين تعاقبوا على اللواء حَسَب وصيَّته من بعده ، تولَّى المثنى ، وكانت معنويات الناس حينذاك قد انهارت ، فارتدّ كثير منهم إلى الجسر ، يريدون النجاة بأنفسهم ، وغرق في النهر حوالي ألفين استشهدوا كلهم غرقًا . وأقدم عبد الله بن مرثد الثقفي على قطْع الجسر ، وخرَّبه ، ووقف

عند الجسر يمنع المسلمين من محاولة العبور على ما تبقّى من الجسر ، وقال : « أيها الناس ، موتوا على ما مات عليه أُمراؤكم ، أو نظفر » . فضربَهُ المثنى ؛ إذ كان في نسْف الجسر إبادةٌ كاملة لجيش المسلمين . وحدث فعلًا ما يُشبه المعجزة ، وسارع البطل المغوار ، الذي لا تعرف نَفْسُه الجزع « المثنى » ومعه أبطالٌ من المسلمين لإصلاح الجسر ، ومقاتلة الفرس الذين احتشدوا بقصد منْع إصلاحه ، وكان معه : عروة بن مسعود ، وعاصم بن عمرو ، ومذعور بن عدي ، والكلج الضَّبّي ، وعروة بن زيد الخيل ، وسليط بن قيس الأنصاري ، وطَلَبَ المثنى من هؤلاء أن يكونوا إلى جانبه ؛ لمقاتلة الفرس الذين أوكل إليهم « بهمن جاذويه » منْع المسلمين من العبور ، إن هم تمكّنوا من إصلاح الجسر . ونادى المثنى الذين تمكّنوا من العبور إلى الشاطئ الغربي ، أن يأتوا في الحال بخبراء من الفرس ممن هم في ذمتهم وصُلْحهم ؛ لإصلاح الجسر ، فأُحضروا في الحال ، فقام هؤلاء العجم في الحال بإقامة الجسر ، وفي الوقت نفسه كان المثنى ومن معه من الأبطال ، الذين اختارهم حماة له ، يقاتلون الفرس الذين كلَّفهم « بهمن جاذويه » بمنْع المسلمين من العبور ، فقد قاتلهم المثنى ورجاله في شجاعةٍ تفوق الخيال ، فأعملوا فيهم السيوف باستماتةٍ حتى دحروهم ، وأفسحوا المجال للمنسحبين أن يعبروا إلى الشاطئ الغربي ، وسقط كثيرٌ من مفارز الحماية الأبطال ، الذين كانوا يحمون المثنى وهو يُشرف على إصلاح الجسر ، وجرح المثنى نَفْسُه جرحًا مميتًا عند الجسر ، ولكنّه رَبَطَه ، وبرز البطلُ الأسد الهصور الجريح على صهوة جواده عند الجسر كالطّود ، ودمه الطاهر يسيل ، وقف يصيح بالمسلمين ؛ يطلب منهم الانسحاب عبر الجسر : « أيها الناس ، أُناديكم فاعبروا على هيِّنتكم[1] ،

---

(١) على مهلكم .

ولا تدهشوا ، فإنَّا لن نُزايل[١] حتى نراكم في الجانب الآخر » . وهكذا بفضل الله ، ثم بشجاعة وثبات وتدبير المثنى ، تمَّتْ عملية عبور الجيش المسلم ، ونجا ستة آلاف من موتٍ كان محققًا لو لم يوفِّق اللهُ المثنى لإصلاح الجسر والثبات عنده ، الذي دفع حياته الغالية ثمنًا لإصلاحه والثبات عنده ، فقد مات رضي الله عنه بعد أكثر من شهرين ، متأثِّرًا بجرحه الخطير ، ولكن قبل موته منَّ الله عليه بالنصر وشفى غليله من الفرس .

بعد معركة الجسر ارفضَّ عن المثنى ألفان ، واصلوا هزيمتهم حتى وصلوا المدينة ، وخجل ألفٌ من أبناء البادية ، فاختفوا خجلًا في باديتهم ، وبقي مع البطل الجريح « المثنى » ثلاثة آلاف . وفي اليوم الثاني لمعركة الجسر ، ظنَّ الفرس أن معركة الجسر ساحقة ماحقة ، وما دروا أن الأسد كامِنٌ في مربضه ، وخرج الفرس يتنزَّهون ، ولما علم المثنى بذلك ، خرج في جريدةٍ من الخيل ، في اتّجاه « أُلَّيْس » حيث المكان الذي يتنزّه فيه اثنان من كبار قُوّاد فارس « جابان ومرادنشاه » في حرسهما ، وهجم عليهما المثنى ، فلم يُفيقا من صدمة الدهشة إلَّا وهما أسيران في يد المثنى ، وقتلهما وهو يقول لهما : « أنتما غرّرتُما بأميرنا وكذبتماه واستفززتماه » . وضربَ أعناق حرسهما جميعًا .

معركة البويب ثالث عشر من رمضان ، وقتل مائة ألف فارسي فيها :

تتابعت على المثنى الإمدادات من المدينة ، وحشد المثنى جيشه في « البويب » وكانت عدَّة الجيش اثني عشر ألفًا ، بينما جَمَعَ « رستم » جيشًا عظيمًا ، جَعَلَ قيادته لمهران بن باذان ، وكان قائدًا محنَّكًا شجاعًا ماهرًا ، وكانت عدّة جيش الفرس مائة ألفٍ من الفرسان ، وخمسين ألفًا من المشاة .

---

(١) أي لن نتحرك من أماكننا حتى نحمي عبوركم .

ونزل ببَسُوسْيَا فقال المثنى : « أكْدَى مهران وهلك ، نزل منزلًا هو البسوس » .
وبعث مهران إلى المثنى يقول : « إمّا أن تعبروا إلينا ، وإمّا أن نعبر إليكم ، فقال المثنى : « اعبروا أنتم » . فعبر مهران بجيشه ، وعبّأ المثنى أصحابه ، وكان الوقت رمضان ، فأمرهم بالإفطار ليقووا على عدوهم ؛ فأفطروا وخرج المثنى على فرسه « الشّموس » ، وكان لا يركبه إلا لقتالٍ ، وطاف راكبًا بين الصفوف ؛ يَحُضُّهم ويُحرِّضهم ، ويهزُّهم بأحسن ما فيهم ، فكان يقف عليهم رايةً رايةً ، ويقول : « إني لأرجو ألّا تُؤتى العرب من قِبَلِكم ، والله ما يسرُّني اليوم شيء لنفسي إلا وهو يسرُّني لعامّتكم »[1]. ولقد أنصفهم في القول والفعل ، وخالط الناس في المكروه والمحبوب ، فلم يستطع أحد أن يعيب له قولًا ولا عملًا ، رضي الله عنه وأرضاه .

وقال المثنّى : « إني مكبِّرٌ ثلاثًا ، فتَهَيَّئُوا ، ثم احملوا مع الرابعة » . ولكنّه ما كاد يكبِّر التكبيرة الأُولى ، حتى أعجل الفرس المسلمين وعاجلوهم وشدُّوا عليهم ؛ فاختلَّتْ بعض صفوف المسلمين من بني عجل ، فأرسل المثنى من يقول لهم : « إن الأمير يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : لا تفضحوا المسلمين اليوم » . فاعتدل بنو عجل ، وهاجموا قوات فارس ، واشتبك الطرفان في قتالٍ مرير ، ففكّر المثنى بأن يحمل بنفسه على قائد الفرس ، فيُزيله عن مكانه أو يقتله ، فحمل على « مهران » حملةً صادقةً حتى دخل ميمنته ، ورأى الفرس ما حدث ؛ فاندفعوا لحماية قائدهم ؛ وعندما انكشف الغبار ، رأى المسلمون تراجُعَ قلبِ الفرس ، فحملت ميمنةُ المسلمين وميسرتُهم ، فسارع الفرس إلى التّراجُع نحو النهر ؛ خوفًا من التطويق ، يريدون النجاة بأنفسهم .

---

(١) الطبري ٢ / ٦٤٨ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٠ .

لقد كان المثنّى قائدًا عميقًا في علم النفس العسكري ، قبل أن يخُطَّ أي أستاذٍ متخصِّص في هذا العلم بقرون ، فيقول - رحمه الله - لجنده محرِّضًا ، لَمَّا رأى ما رأى من الفرس : « عاداتكم في أمثالهم : انصروا الله ينصركم » . ثم سابَق المثنى الفرس المنسحبين إلى الجسر ، فسبقهم إليه وقطعه ، وبذلك قطع خطَّ رجعتهم الوحيد ، وكبّدهم مائة ألف قتيل ، وترك المثنى أخاه مسعود بن حارثة شهيدًا ، فقال المثنى : « أيها الناس ، لا يَرُعْكم مصرعُ أخي ؛ فإن مصارع خياركم هكذا . والله إنه ليهوِّن عليَّ وجْدي أن شهدوا « البويب » . أقْدَمُوا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا ، وإن كان في الشهادة كفّارة لتجوز الذنوب »[1]. وقال المثنى بعد المعركة : « قد قاتلتُ العرب والعَجَم في الجاهلية ، والله لمائةٌ من العجم في الجاهلية ، كانوا أشدَّ عليَّ من ألفٍ من العرب ، ولمائةٌ اليوم من العرب أشدّ عليَّ من ألفٍ من العجم ، إن الله أذْهَبَ بأسهم ووهَّن كيدهم ، فلا يَرُوعَنَّكم زهاء[2] ترونه ، ولا سوادٌ[3] ولا قسيّ فجّ ، ولا نبال طوال ، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها ، كالبهائم أينما وجّهتموها اتجهتْ »[4].

لله دَرّك يا مثنّى وأنت تقول عن الفرس : إنهم « كالبهائم أينما وجّهتموها اتجهت » . لله دَرُّك وأنت تقول لرجالك في المعركة ، لما أتى الفرس وصيحاتهم في المعركة تهدر : « إن الذي تسمعون فشل ، فالزموا الصمت وَأْتَمِرُوا همسًا » .

واستمرَّتْ مطاردةُ المسلمين فلولَ المنهزمين يومًا وليلةً ، وترك

---

(١) الطبري ٢ / ٦٥٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٠ .

(٢) منظر .

(٣) كثرة .

(٤) الطبري ٢ / ٦٥٠ - ٦٥١ .

الفرسُ مائة ألفٍ ، حتى صاروا جثثًا « فما كانت بين العرب والعجم وقعة كانت أبقى رمّةً منها . وحدّثني بعض من شهدها : والله إنّا كُنّا لنأتي البويب ، فنرى فيما بين موضع السكون عظامًا تلولًا تلوح من هامهم وأوصالهم يُعْتَبَر بها »[1]. وقال عطية بن الحارث : « وأفعموا جنبتي البويب عظامًا حتى استوى ، وما عفى عليها إلا التراب أزمان الفتنة ، وما يُثار هناك شيء إلا وقعوا منها على شيء » . وأمر المثنى رجاله بالاندفاع في مطاردة الفرس ، ففتحوا السّواد كله حتى بلغوا ساباط ، وقُتل في المعركة قائد الفرس مهران ، وقُتل صاحبُ خيله « شهر براز » .

يقول الأعور العبدي يذكُر معركة البويب :

هاجتِ الأعورَ دارُ الحيِّ أحزانَا ... واستبدلتْ بعدَ عبدِ القيسِ خفَّانا

وقد أرانا بها والشَّمْلُ مجتمِعٌ ... إذْ بالنَّخيلة قتلى جُندِ مهرانَا

أزْمَانَ سار المُثَنَّى بالخيولِ لهمْ ... فَقَتَّلَ الزَّحْفَ من فُرسٍ وجيلانَا

سما لمهرانَ والجيشِ الذي معه ... حتى أبادهموا مثنًى ووُحْدانَا

ما إنْ رأيْنا أميرًا بالعراق مضى ... مِثْلَ المثنَّى الذي من آلِ شَيْبَانَا

إن المُثَنَّى أميرُ القومِ لا كَذِبٌ ... في الحرب أشجعُ من ليثٍ بخفَّانَا

لقد كان نصر المسلمين في البويب ، مثل انتصار المسلمين في اليرموك في الشام ، يعادله تمامًا كما قال ابنُ كثير ، وهو العامل الأكبر الذي أدَّى إلى انتصار المسلمين في القادسية ومهّد له . لقد أدَّى انتصار اثني عشر ألفًا من الأبطال ، وإبادتهم لأكثر من مائة ألفٍ من الفرس ، كلهم تقريبًا من الفرسان - إلى شحن نفوس زعماء الفرس بالاحتقار والحقد للقادة الكبار ، إلى درجة أنهم هدّدوا هؤلاء القادة بعد البويب بقتلهم ،

---

(١) الطبري ٣ / ٤٦٧ .

إن لم يبدِّلوا أسلوبهم في مُقاتلة المسلمين .

بين البويب والقادسية :

يرى المعلِّقون العسكريون أنه بالنظر من الوجهة العسكرية المجرَّدة ، أن رجال البويب أتوا بأعظم مما أتى به رجال القادسية . فجيش الإسلام يوم البويب كان اثني عشر ألفًا ، ويوم القادسية ثلاثين ألفًا ، دعَّمهم وصول المدد المتعاقِب ، على رأسه هاشم والقعقاع . وكان معظم جيش الفرس في البويب من الفرسان لا المشاة ، وتمكَّن جيش المسلمين من إبادة مائة ألف من الفرس وأكثر في البويب ، بينما في القادسية أبادوا ثلاثين ألفًا .

وممّا أدّى إلى اشتهار القادسية : أنها كانت بقيادة « رستم » الرجل الأوَّل للفرس ، وقُتِل فيها ، وعنفُ المعركة واستمرارها بدون انقطاعٍ ثلاثةَ أيامٍ متوالية ، وتمكُّن العرب بعد القادسية من تطهير العراق العربي نهائيًّا من العنصر الفارسي بعد سقوط المدائن ، ونَقْل المعركة إلى بلاد فارس ، ولم تقُم للفرس قائمة بعد « نهاوند » .

الغارة على أسواق الفرس في الخنافس وبغداد :

كانت الغارة على الأسواق شمالي العراق استغلالًا رائعًا لمعركة البويب ، لم يكن المثنى قد قرأ عن مبدأ المطاردة ، ولكنّه وضع لنفسه المبدأ كقائد ، وبذلك يُعتبر المثنى من واضعي هذا المبدأ في علم الحرب ، وقد استطاع بكفاءته أن ينفّذه في قوةٍ وعُمقٍ ، بلغ حوالي أربعمائة كيلو مترًا أو يزيد شمالًا ، خلاف ما تبحبحوا به شرقًا وغربًا وجنوبًا .

لقد فتح المثنى على العجم أبعادًا ثلاثة للحرب القائمة بينه وبين الفرس ؛ البُعد الأول هو خطّ المواجهة ، والبعد الثاني هو ما امتدَّ إليه هذا الخط ، فجعله يتَّسِع ويستطيل للحصول على التموين لقواته ، وتشتيت العدو وإرباكه ،

وللتأثير على قادة جيش فارس وشعب فارس . فأغار المثنى في هجومٍ خاطف على هذه الأسواق ، وكان فيها أموال غالية الثمن ، يزيد على ما في خزانة بيت مال كسرى ، وأصاب المسلمون فيها من الذهب والفضة ما كان غَناءً للمسلمين ، وقوّةً لهم على عدوّهم دهرهم . وقال أحد جنود المثنى : ما أسرع القوم في طلبنا ! فقال الرجلُ القمة ، أستاذُ الحروب لأبطاله - بعد أن أغاروا على سوق الخنافس وبغداد وعادوا في يومٍ واحدٍ ، وبعد أن أوغلوا في غاراتهم حتى العُمق ، وكان بينهم وبين المدائن ثلاثون كيلو مترًا - : « تناجوا بالبرّ والتقوى ، ولا تناجَوْا بالإثم والعدوان ، انظروا في الأمور وقدِّروها ثم تكلَّموا ، إنه لم يبلغ النّذير مدينتهم بعدُ ، ولو بلغهم لَحَالَ الرُّعب بينهم وبين طَلَبِكم . إن للغارات روعاتٍ تنتشر عليها يومًا إلى الليل ، ولو طلبكم المحامون من رأي العين ، ما أدركوكم وأنتم على الجياد العراب وهم على المقاريف البطاء ، حتى تنتهوا إلى عسكركم وجماعتكم . ولو أدركوكم لقاتلتُهم لاثنين : التماس الأجر ، ورجاء النصر . فثِقُوا بالله وأحْسِنُوا به الظَّنّ ، فقد نصركم في مواطن كثيرة وهم أَعَدُّ منكم ، وسأُخبركم عني وعن انكماشي والذي أُريد بذلك ، إن خليفة رسول الله ﷺ أبا بكر أوصانا أن نقلِّل العرجة ، ونُسرع الكرَّة في الغارات ، ونُسرع في غير ذلك الأَوْبَةَ » .

يقول المثنى :

صبَّحْنَا بالخنافسِ جَمْعَ بكرٍ وَحَيًّا من قُضاعةَ غير مِيلِ
بفتيانِ الوَغى من كلِّ حيٍّ تَبَارَى في الحوادثِ كلُّ جِيلِ
أَبَحْنَا دَارَهُمْ والخيلُ تَرْدَى بكلِّ سَمَيْدَعٍ سامي التّلِيلِ

ورأى المثنّى أن لا يعود إلى مقر قيادته في الحيرة ، إلَّا بعد أن تشمل غاراته شمال العراق ، وأن يؤدِّب بني تغلب في الكباث في شمال العِراق ،

وأكثر المسلمون فيهم القتل . لقد نجح – رضي الله عنه – في غاراته على الشمال ، حتى وصل في فتوحاته إلى ما لم يصل إليه القائد العظيم خالد . وزيادةً في التنكيل بأعداء الله وأولياء الفُرس ، أغار في صفّين على أحياء من عرب تغلب والنمر والنصارى ، فلمّا اقتربوا من صفين هرب أهلها ، فتبعهم المسلمون ، حتى رموا بأنفسهم في مياه الفرات وغرقوا ، فجعل المسلمون يقولون لهم : « تغريقٌ بتحريق » . فصارتْ مَثَلًا .

هذا هو المثنى بطل المعارك ، وبطل حروب الاستنزاف بعد المعارك ، أعظم أساتذة الحرب في العالم – وُلد ونشأ وترعرع في العراب بين مضارب البادية ، على متون الخيل بين المضارب والخيام تعلّم ، ولكنّ أستاذ الحرب البدوي علّم الدنيا بأسرها : وُلد المثنّى بالبادية ، ومات في البادية ، وطواه لَحْدٌ تحت رمال البادية ، غازيًا للدنيا بسيفه ، عَزُوفًا عنها بقلبه ، ليس له إلّا « الشموس » جواده ، لا يركبه ويُذلِّله غيرُهُ ، ولا يركبه إلا للغزو

هذا جوادُكَ في الميدانِ مُنطلِقُ ... وبينَ عَينيْهِ مِن إصرارِهِ أَلَقُ
صَهِيلُهُ نَغَمٌ يُصغي الزَّمَانُ له ... وَنَقْعُهُ لحجابِ الشّمسِ يخترِقُ
وَسَرْجُهُ همهماتٌ لا يُخالطها ... زَيْفٌ ولا يَرتمي في حِضْنِهَا نَزَقُ
تشدو حوافِرُهُ لَحْنًا يَهشُّ له ... قلبُ التّرابِ وتسترخي له الطُّرُقُ
يُسابِقُ الرِّيحَ في دَرْبِ الإباءِ وَكَمْ ... خَيل سِوَاهُ إلى الأهواءِ تستبِقُ
هذا شَمُوسُكَ يجري النُّورُ في دمِهِ ... وتَشْرَئِبُ إلى غَارَاتِهِ العُنُقُ
تَكُفُّ عن وجهِهِ الصَّحْرَاءُ ما حملتْ ... من سيفِهَا ويُناغِي رَكْضَةَ الشَّفَقُ
يُقِضُّ مضجعَ كلِّ الصافناتِ إذا ... ثار الغُبَارُ وطارتْ نحوَهُ الحَدَقُ
مسافرٌ والأماني البيضُ لاهِثةٌ ... وراءَهُ وبحارُ الشَّوقِ تصطفِقُ
إذَا تَلَفَّتَ غَنَّى فَجْرُ غُرَّتِهِ ... لَحْنَ الضِّياءِ وأرخى طَرْفَهُ الغَسَقُ
وسافر الليلُ مبهورًا وأعقبَهُ ... فَجْرٌ تحفَّزَ لاستقبالِهِ الأُفُقُ

يا مُورِيَ القَدْحِ آمالي بك انبثقَتْ ... يومَ البويبِ والآمالُ تنبثِقُ
مراكبُ الفرس نامتْ وَهْيَ واقفةٌ ... والرّاكبون عليها من أهوالِكَ انسحقوا
يستأسِدُون عليها وَهْيَ واقفة ... لَمَّا ظهرت جَثَوْا وغارتْ منهمُ الحَدَقُ

انسحب المثنى بقواته إلى تُخُوم الجزيرة العربية ، فنزل بذي قارٍ حتى يأتيه سعد بن أبي وقّاص على رأس المدد لمهاجمة الفرس وإبادتهم . ولكنْ عاجلتْه المنيَّة .. وما نسي البطل الصالح العهدَ إلى سعدٍ وتوصيته ، وما أَشبَهَ لحظات المثنى الأخيرة باللحظات الأخيرة لأبي بكر رضي الله عنهما ، كلاهما ترك الدنيا وهو يفكِّر للمسلمين في هذه الفتوح ويوصي بها .

وترك المثنى وصية غالية لسعد : « ألا يقاتل عدوّه وعدوهم من أهل فارس إذا استجمع أمرهم وماؤهم في عقر دارهم ، وأن يُقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حجرٍ من أرض العرب ، وأدنى مدرة من أرض العَجَم ؛ فإن يُظهر الله المسلمين ، فلهم ما وراءهم ، وإن كانت الأُخرى ، رجعوا إلى فئةٍ يكونون أعلم بسبلهم وأجرأ على أرضهم ، إن يرد الله الكرَّة عليهم »[1]. وأشار المثنَّى على سعدٍ : « أن يُحارب العدو بين القادسية والعذيب »[1]. ومات المثنى قبل أن يرى سعدًا .

وهكذا انطفأ سراجٌ من أشدّ السّرج توهُّجًا ، وأفلتْ تلك الشمسُ المشرقة التي غمرت العراق دفئًا ونورًا .

كالبدرِ من حيثُ التَفَتَّ رأيتَهُ ... يُهدي إلى عَيْنَيْكَ نورًا ثاقبًا
كالبحر يقذفُ للقريبِ جَوَاهرًا ... جُودًا ويبعثُ للبعيدِ سَحائِبًا
كالشمسِ في كَبِد السماءِ وَضَوْءُهَا ... يَغْشَى البلادَ مشارقًا ومغاربًا

---

(١) الطبري ٣ / ١٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٧٤ .

ولا غرو عندما حمي الوطيس ، واستكلَبَ الموت على الأبطال في القادسية ، هتفتْ سلمى زوجُ سعدٍ - وكان سعد قد تزوَّجها بعد موت زوجها المثنى - حين لم تجد المثنى يسود الأجناد والفرسان للجلاد ، قائلة: «وامثنّاه! ولا مُثنّى اليوم للخيل»(١). « وامثنّاه ! ولا مثنّى للمسلمين اليوم »(٢) ، « القوم أقران ، ولا مثنى لهم »(٣).

ما زال يروي لنا التاريخُ قصَّتَهُ ... فكم حديثٍ على شوقٍ رَوَيْنَاهُ
وكم حديثٍ عن الأحبابِ أطْرَبَنَا ... وزادَنَا طَرَبًا لَمَّا أعَدْنَاهُ
وَقْعُ الحوافر يا بغدادُ أُغْنِيَةٌ ... ثراكِ يُنشدها والرَّمْلُ أفواهُ
وحمحماتُ خيولِ النَّصْرِ تُطربني ... الحربُ دائرةٌ والنّاصرُ اللهُ
صهيلُها في دروبِ الحقِّ يملكني ... فكم أذوبُ به وجْدًا وأهواهُ
هذا المثنى يُرَوِّي الأرض من دَمِهِ ... والعينُ في رؤيةِ الأحداثِ عيناهُ
لم يَستَعِر مُقلةً أُخرى ولا شَفَةً ... أُخرىٰ ولم تُصغِ للتَّضليلِ أُذْنَاهُ
كيانُكِ الضَّخْمُ يا بغدادُ حصَّنَهُ ... سيفُ المثنى ونورُ الحقِّ جَلَّاهُ
النّورُ فوق ذراعِ الشَّمْس صبَّحَهُ ... والنّورُ فوق ذراعِ البدرِ مسَّاهُ(٤)

القعقاع بن عمرو التميمي فاتح خانقين وحلوان وهمذان :

لا يُهزم جيشٌ فيه مِثْلُ القعقاع . [أبو بكر الصديق] .

الصحابي الجليل ، والفارس المغوار النبيل ، حيدرة الأسود رضي الله عنه .

---

(١) الطبري ٣ / ٥١ .

(٢) أسد الغابة ٤ / ٢٩٩ .

(٣) المعارف صـ ١٠٠ .

(٤) من قصيدة : وشم على ذراع بغداد ، من ديوان « يا أمة الإسلام » لعبد الرحمٰن العشماوي - مكتبة العبيكان .

صاحب الخوارق والشجاعة التي يعجز القلم عن وصفها في معارك الفتح الإسلامي .. وما أَبْلَغَ وصف أبي بكرٍ للقعقاع : « لصوتُ القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف رجل »(١).

قال القعقاع : قال لي رسول الله ﷺ : « ما أعددتَ للجهاد ؟ » . قلتُ : طاعة الله ورسوله ، والخيل . قال : « تلك الغاية » .

مع خالد في العراق :

لما احتاج خالد إلى إمداداتٍ ، كتب إلى أبي بكر يستمدُّه ، فأمدّه بالقعقاع ، فقيل لأبي بكر : أتُمدُّ رجُلًا قد ارفضَّ عنه جنوده برجلٍ ؟ فقال : « لا يُهزم جيش فيه مِثْلُ هذا »(٢).

في معركة كاظمة ، لما خرج هرمز للقاء خالد ، أنقذ القعقاع خالدًا في هذه المعركة من الموت ، لما احتضن خالد هرمز ، وشدَّ أهلُ فارس يريدون الغدر بخالدٍ وقتله ، لم يُمهلهم القعقاع ، وحمل عليهم وانقضَّ كالصقر على الحامية ، فأبادهم جميعًا قبل أن يصلوا إلى خالد .

وكان له أكبر الأثر في كل معركةٍ خاضها المسلمون ، يقول في يوم « الولجة » :

ولم أرَ قومًا مِثْلَ قومٍ رأيتُهم ... على وَلَجَاتِ البرِّ أحْمَى وأنْجَبَا
وأقْتَلَ للرّوّاسِ من كلِّ مجمعٍ ... إذا ضَعْضَعَ الدَّهْرُ الجموعَ وكَبْكَبَا

ولما استسلمتِ « الحيرةُ » أرسل خالدٌ قادته ومنهم القعقاع للتَّغلغُل في أرض السواد حتى دجلة ، فنجح القعقاع في مهمته نجاحًا باهرًا . وأصبحت

---

(١) الإصابة ٥ / ٢٤٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٢ / ٥٥٤ .

الحيرةُ القاعدةَ المتقدّمة لجيش المسلمين ، ولما أراد خالد فتح الأنبار وعين التمر ودومة الجندل ، استخلف القعقاع على الحيرة ، فحمى القعقاعُ ظهر خالد ، وحافظ على الحيرة قلعة المسلمين المتقدّمة ، وصدَّ هجومًا مقابلًا شنَّته الفرس وحلفاؤهم على المناطق المجاورة للأنبار .

معركة الحصيد ، العاشر من شعبان سنة اثنتي عشرة هجرية :

كان قائد المسلمين القعقاع ، وقائد قوات الحصيد « روزبه » على رأس قوات الفرس وحلفائهم المُتَنَصِّرة ، فهاجمهم القعقاع ، وكان مِثْل خالدٍ ذِكْرُه يُرعِب الأعداء ، وكانت معركة ضارية ، غير أن النصر في النهاية كان حليف المسلمين ، وتوّج القعقاع نصره المؤزَّر بقتْل قائد الفرس زرمهر ، وَقَتَلَ عصمةُ الضّبّي القائد الثانيَ روزبه ، وقُتِلَ من المجوس وحلفائهم العرب عددٌ كبير . وقال القعقاع :

أَلَا أَبْلِغَا أسماء أن حليلَها … قضىٰ وَطَرًا من روزمهرِ الأعاجِمِ
غداة أصبْنا في حصيدٍ جموعَهُمْ … بِهِنْدِيَّةٍ تَفْرِي فراخَ الجماجمِ

وفي « المصيّخ كان القَعقاعُ ، وعبدُ بنُ فدكى السعدي ، وأبو ليلىٰ ابن فدكى ، وعروة بن جعد البارقي : هُمُ القادة الذين تولَّوْا تصفيةَ القواتِ الفارسية والعربِ الموالين لهم - ومتى ؟! بالليل ، إي واللهِ ، بالليل بعد منتصفه ..!!

وفي « الفراض » يقول القعقاع :

لَقِينَا بالفِراضِ جموعَ رُومٍ … وَفُرْسٍ غمَّها طولُ السَّلامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُم لَمَّا التَقَيْنَا … وَبَيَّتْنَا بجمعِ بني رزامِ

قاتل القعقاعُ تحت لواءِ خالدٍ أيضًا في كلِّ المعارك التي خاضها بعد ذلك ، حتى تحرَّك خالدٌ إلى الشام ، فكان القعقاعُ أحدَ الأبطال الذين

اختارهم خالدٌ ليُعَاونوه في مهمَّته الشَّاقَّة ، وهي فَتْحُ بلاد الشام .

وفي الطريق إلى الشام قَاتَل القعقاعُ تحتَ لواءِ خالدٍ في كافَّة المعارك ، حتى التحقَتْ قواتُ العراق بقواتِ الشام .

وفي « فَحْلٍ » أبلى أعظمَ البلاء ، قال القعقاع :

وغداةَ فحلٍ قد رأَوْني مُعْلَمًا[1] والخيلُ تنحطُّ[2] والبلا أطْوارُ
يُفـدي بـلائي عنـدها مُتَكَلِّفٌ سَلِسُ المياسِرِ عُـودُهُ خَـوَّارُ
سَلِسُ المياسرِ ما تسامَى ماقِطًا[3] عنـد الرِّهـانِ مُعَـيَّرٌ عـيَّارُ
ما زالتِ الخيلُ العرابُ تدوسهُمْ في حومِ فحلٍ والهَبَا[4] موَّارُ
حتى رمَيْنَ سَراتهم عَنْ أسْرِهم في ردغـةٍ ما بعدهـا استمرارُ
يومَ الرّداغِ بُعَيْدَ فحلٍ ساعةً وخـزِ الرِّمـاح عليهِمُ مُـدرارُ
ولقد أبَرْنا[5] في الرداغِ جموعَهُمْ طُرًّا ونحويَ تشخصُ الأبصارُ

ويقول رحمه الله :

نحنُ الأُولَى جُسْنا العراقَ بِخَيْلِنَا والشّامَ جُسْنَا في ذُرَى الأشفارِ
كَمْ مِنْ قَمَامِسَةٍ[6] أَبَرْنا جَمْعَهُم بعدَ العراقِ وبعدَ ذي الأوتارِ

في حِصَارِ دِمشق :

إلى القعقاع ومذعور بن عدي وخالدٍ يعودُ الفضلُ الأكبرُ في إنهاءِ

---

(١) ذو علامةٍ ، شأن الصناديد .

(٢) النحط : صوتُ الخيل من الثِّقَل والإعياء .

(٣) المأقط : المضيق في الحرب .

(٤) الهباء : الغبار شِبه الدخان .

(٥) قتلنا .

(٦) القَمَامِسَة : البطارقة ؛ كبار الضباط في الروم .

حصار دمشق وفتْحها ؛ فالقعقاعُ ومذعورُ : هما اللذان صَعِدَا على سلالمِ الجبال إلى أعلى السُّور ، وأثبتا بقيةَ الحبال في شرف السُّور ، وهاجم خالدٌ برجاله - وعلى رأسهم القعقاعُ - حُمَاةَ أبوابِ المدينة ، فقتلوهم ، وفتحوا الأبواب للفاتحين .

في اليرموك :

كان القعقاعُ بن عمرٍو في القلْب على كُرْدُوسٍ من كَرادِيس أهلِ العراق من جيش خالدٍ ، وكان القعقاعُ أحدَ الأبطالِ الذين اختارهم خالدٌ للتأثير على معنويَّات الرومِ في ابتداءِ معركة اليرموك ، وكان رضي الله عنه يُهاجِم الرومَ على رأس كُرْدُوسِهِ وهو يرتجزُ ، ضاربًا لرجالِهِ في الشجاعة والإقدام أَرْوَعَ الأمثالِ . ولمّا أراد خالدٌ أن يقوم بهجومِهِ المُضَادِّ ، أمر خالدٌ عكرمةَ والقعقاعَ - وكانا على مجنبتي القلب - فبدأا الهجومَ المضادَّ الشامِلَ ، وارتجز القعقاعُ يقول :

يا ليتني ألقاكِ في الطِّرادِ ... قبلَ اعترامِ الجحفَلِ الورّادِ

وأنتِ في حَلْبتك الورادِ

وقال القعقاعُ بعد المعركة :

ألَمْ ترنا على اليرموك فُزْنَا ... كما فُزْنَا بأيَّامِ العراقِ

فتحْنَا قَبْلَهَا بصْرَىٰ وكانتْ ... مُحَرَّمَةَ الجَنَابِ لدىٰ العناقِ

وَعَذْرَاءُ المدائنِ قَدْ فَتَحْنَا ... ومرجُ الصُفَّرَيْنِ على العِتَاقِ

قَتَلْنَا مَنْ أقَامَ لنا وفئْنَا ... نهابُهُم بأسيافٍ رِقَاقِ

قتلْنا الرُّومَ حتَّى ما تَسَاوىٰ ... على اليرمُوك ثَفْرُوق الورَاق

فَضَضْنَا جمعَهُمْ لمّا استحالُوا ... على الواقُوصِ بالبُتْرِ الرِّقاقِ

غداةَ تهافَتُوا فيها فصارُوا ... إلى أمْرٍ يُعضّلُ بالذواقِ

في العراق ثانيةً :

(١) في القادِسيَّة : القعقاعُ أفرسُ الناسِ ، بشهادةِ سعدٍ :

كان في مقدِّمة قواتِ هاشمٍ التي جاءت من الشام لِنَجْدةِ سعدٍ ، فعجّل القعقاعُ في مسيرته ، حتى وصل العراقَ في صَبِيحةِ اليوم الثاني من أيّامِ القادسية ، وهو يوم « أغواث » ، وقد عَهِدَ إلى أصحابه - وهم ألفُ رجلٍ - أن يكونُوا جماعاتٍ ، كلُّ جماعة مُؤلَّفَةٌ من عَشْرَةِ رجالٍ ، ثم تقدَّم القعقاعُ مع الجماعة الأُولى فَسُرَّ الناسُ بقدومه ، وبشَّرهم القعقاعُ بقدوم الجنود ، قائلًا : « يَٰأَيُّهَا الناسُ ، إني جِئْتُكُم في قومٍ - واللهِ - لو كانوا بمكانكم ثم أَحَسوّكم حَسَدُوكم حَظْوَتَهَا ، وحاولوا أن يطيروا بها دُونكم ، فاصنعوا كما أصنع »[1]. ثم تقدّم ، فلمّا كان بين الصَّفَّيْن ، نادىٰ : مَنْ يبارز ؟...

للهِ دَرُّك يا قعقاعُ : تأتي من سفرٍ بعيدٍ مثلِ هذا ، ثم تلتحم لحظةَ وصولِكَ وتبارز ؟! وخرج ذو الحاجب « بَهْمَن » وعرّف القعقاعَ بنفسه ، فقال : إني « بَهْمَن جاذويْه » . ففارَ الدَّمُ في عروقِ القعقاع ، وصاح : « يا لثاراتِ أبي عُبيدٍ وسليطٍ وأصحابِ يوم الجسر ! » ، ثم تبارزا بالسُّيوف ، فقتله القعقاعُ ، وكان « بهمن جاذويْه » - قائدُ قلب المجوس في القادسية ، وقائدُهم يومَ « جِسْرِ المروحة » - أوَّلَ القتلى يومَ « أغواث » . وخرج القعقاعُ مرةً ثانيةً ، وقال : مَنْ يُبارز ؟ فخرجَ إليه « بيْرزان » قائدُ مؤخِّرتهم ، فسدّد إليه القعقاعُ ضربةَ سيفٍ قويةً فوقَ عنقهِ ، أَذْرَتْ برأسه . وبرزتْ فرسانُ المسلمين للمبارزة ، فكان القعقاع يقول لهم : يا معاشرَ المسلمين ، باشروهمْ بالسُّيوفِ ؛ فإنما يحصدُ الناسُ بها . وجعلتْ خيلُ القعقاع تَرِدُ جماعاتٍ ، وما زالتْ تَرِدُ إلى الليل ، فترتفعُ معنوياتُ المقاتلين من المسلمين .

---

(١) الطبري (٣ / ٥٢) .

وَحَمَلَ بَنُو عمٍّ القعقاع بجماعاتٍ مؤلَّفةٍ كلٌّ منها من عَشْرةِ رجالٍ ، على إبلٍ قد ألبسوها ، وهي مجللةٌ مُبرقَعَةٌ ، وأمَرَهم القعقاعُ أن يُهاجموا بها خَيْلَ الفرسِ ، فجفلتْ خيولُ الفرس تَفِرُّ منها ، وركبتْها خيولُ المسلمين ، فلمّا رأى الناسُ ذلك فَرِحُوا أشدّ الفرح ، إذْ لقي الفرسُ من هذه الإبل أعظمَ مما لقي المسلمون من الفِيَلَةِ في اليوم الأوَّل من أيام القادسية ، وَحَمَلَ القعقاعُ يوم ذاك ثلاثين حملةً ، كُلَّمَا طلعتْ جماعةٌ من جماعاتِهِ حَمَلَ معهم فيها ، فَقَتَلَ وَحدَه يومَهَا من الفرس ثلاثين رجلًا ، وبات القعقاعُ ليلته كُلَّها يُسَرِّب أصحابَه إلى المكان الذي فارقهم فيه من الأمس ، قائلًا لهم : « إذا طلعتْ لكم الشمسُ فأقبلوا مائةً مائة ، كلَّما توارىٰ عنكم مائةٌ فَلْيَتْبَعْهَا مائةٌ ، فإنْ جاءَ هَاشمٌ فذاك ، وإلَّا جدَّدتم للناس رجاءً وجِدًّا »[1]. وقد نفّذ ذلك دون علْم رجال القادسية الآخرين . وأصبح الناس على مواقعهم ، فلما ذرّ قرنُ الشمسِ ، طلعتْ نواصي خيل رجالِ القعقاع ، فكبّر وكبّر المسلمون ، وقالوا : جاءَ المددُ . فلمّا وصل آخِرُ رجالِ القعقاع ، أخذتْ قواتُ هاشمٍ تترارَد .

القعقاعُ .. قَاتِلُ الفيلِ الأبيض :

ولما عادتِ الفيلةُ تُكَبِّد المسلمين خسائرَ فادِحَةً؛ .. هلْ كَانَ للفيل الأبيض الذي يقودُهَا إلا القعقاعُ وأخوه عاصمٌ ، كما ذكرنا من قبل ؟!

قال القعقاع :

لم تَعرِفِ الخيلُ العرابُ سواءَنا عشيةَ أغواثٍ بجنْبِ القَوادِسِ
عشيةَ رُحْنَا بالرّماحِ كأنَّها على القومِ ألوانُ الطيورِ الرَّسارِسِ[2]

---

(١) الطبري ٣ / ٥٩ .

(٢) الخيل العراب : العربية الأصيلة . الرسارس : النشيطة .

وفي ليلة الهرير ، وكان القعقاع يتشوَّق للقتال ، ولمّا أصاب سهمُ خالد بن يَعْمُر التميمي ، حَمَل القعقاع بغير إذْنٍ على الجهة التي خرج منها السَّهمُ ، وهو يقول :

فَأَقْسَمتُ لا ينفكُّ سيفي يَحُسُّهُم ... فإنْ زَحَلَ الأقوامُ لَمْ أَتَزَحَّلِ[١]

فقال سعد : اللهمَّ اغفرها له وانصرْه ، قد أذنتُ له إذْ لم يستأذِنّي ، واتميماهُ ! سائرَ الليلة . وفعَل الناسُ ما فعَل القعقاع ، فاشتدَّ القتالُ ، وَحَمِيَ وَطِيسُهُ كلَّما تقدم الليل ، وما كاد الليل ينتصف ، إلَّا وَسَمِعَ سعدٌ صوتَ القعقاع يهدرُ ، مرتجزًا :

نحـنُ قتلنـا معشـرًا وزائِدا ... أربعـةً وخمسـةً وواحـدا
نُحسَـبُ فـوقَ اللّبدِ الأَساودا ... حتى إذا ماتُوا دعوتُ جاهِدا
اللهَ ربي واحترزتُ عامِدا

وكان صوتُ القعقاع أوَّلَ ما استدلَّ به سعدٌ على الفتح[٢] .

وتنفَّس الصبحُ عن هذه الليلةِ الدامية ، فسار القعقاعُ في الناس يقول : « إنَّ الدائرةَ بعد ساعةٍ لمن بدأ القومَ ، فاصبرُوا ساعةً واحمِلُوا ؛ فإنَّ النصر مع الصبر »[٣] .

ولما انهزم الفرس ، طاردَهم القعقاعُ بأمْرِ سعد وأوقع بهم خسائرَ فادِحَةً ، وانتصر المسلمون في القادسية .

كتب عمر بن الخطاب إلى سعدٍ : « أيّ فارسٍ كان أفرسَ في

---

(١) يَحُسُّهم : يقتلهم ، وزحل : يعني هرب .
(٢) الطبري ٣ / ٦٧ .
(٣) ابن الأثير ٢ / ١٨٦ .

القادسية ؟ » فكتب إليه سعدٌ : « إني لم أرَ مثلَ القعقاع بن عمرو ؛ حمَل في يومٍ ثلاثين حَمْلةً ، يقتل في كلِّ حملةٍ بَطَلًا »[1].

(٢) في المدائِن : القعقاعُ قائدُ الكتيبةِ الخَرْسَاء :

لما قَرَّر سعدٌ عبورَ النهر على ظهور الخيل لفتْح المدائن ، فكان أول من عبَر النهر كتيبةُ الأهـوالِ ، على رأْسِهَا عَاصِمٌ ، ثمّ كتيبةُ القَعْقَاعِ ، المسمَّاةُ بالكتيبة الخرساء .

وبعد انتصار المسلمين كان القعقاع على رأس قُوَّاتهم المطارِدَةِ للفُرس ، فوجد فارسيًّا يحمي انسحابَ الفرسِ فقتله ، فإذا مع المقتول أحدَ عشرَ سيفًا ودروعٌ ، بينها سيفُ وَدِرْعُ كِسرى ، وهُرْمُز ، وَهِرقَل ، وخاقَانَ ، والنعمان ، وغيرهم من الملوك والأمراء والقادة ، فغنِمَهَا القعقاعُ[2].

(٣) في جَلُولاء : قَعْقاعية جديدة ، وقَتْلُهُ لمهرانَ قائدِ الفرس :

كان القعقاعُ على مقدّمةِ قوات هاشمٍ التي حاصرت القوات الفارسية ، وطال الحصارُ ثمانين يومًا . وَزَحفَ القعقاعُ برجاله ، حتى انتهى إلى بابِ خندق الفُرس ، فدخل الخندقَ واحتلَّ قِسْمًا منه ، وأمَرَ مُناديًا ينادي : يا معاشر المسلمين ، هذا أميركم قد دخل الخندق ، وأخذ به ، فأقبِلُوا إليه ولا يمنعنَّكم مَن بيْنكم وبيْنه مِن دخوله . وقد أمَر القعقاع بذلك ليقوِّيَ معنوياتِ المسلمين ، وفعلًا حَمَلَ المسلمون ، وهم لا يشكُّون أنَّ هاشمًا في الخندق ، فإذا هم بالقعقاعِ قد احتـلَّ قِسْمًا من الخنـدق ، وبذلك انهزمَ الفرسُ[3] ، ولكن القعقـاعَ طـاردهم حتى بلغ « خانقـين » ، ثم دخـل « حُلوان » ، وقصر

---

(١) الإصابة ٥ / ٢٤٤ .

(٢) الطبري ٣ / ١٢٨ ، والإصابة ٥ / ٢٤٥ .

(٣) تاريخ الطبري ٣ / ١٢٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ / ٢٠١ .

« شيرين » . وأثناء المطاردة لَحِقَ القعقاع بمهرانَ القائد الأكبر في « جلولاء »، وقتله في « خانقين » .

إلى الشام ثانيةً :

ولما حشدَ هِرقلُ ملك الروم قواتٍ كبيرةً ، وأقبلت قواتُه من الجزيرة ومن بلاده برًّا ، ومِن الإسكندرية بحرًا ، تحرّك القعقاعُ على رأس أربعةِ آلافِ مُقاتلٍ لنجدة أبي عبيدة ، وفرّ الناسُ ، وبقي الروم وحْدَهم ، فقاتَلهم المسلمون وانتصروا عليهم ، قَبْل أنْ يبلغ القعقاعُ « حمصَ » بثلاثة أيام ، فكتب عمرُ إلى أبي عبيدةَ كَي يُشْرك أهلَ الكوفة في العطاء ، قائلًا : « جزىٰ الله أهلَ الكوفة خيرًا ؛ يَكفون حوزَتَهم ، ويَمدُّون أهلَ الأمصار ! » .

وعاد القعقاعُ بجنوده إلى العراق رافعًا اسمَهم عاليًا بين الفاتحين .

في بلادِ فارس : نهاوندُ فتْحُ الفتوح ، وقتْلُ القعقاعِ للفيْرزانَ قائدِ الفُرس : « إن للهِ جنودًا مِن عَسَلٍ »

قاتل القعقاع في معركة « نهاوند » تحت لواء النعمان بن مقرن المُزَني ، وكان له في هذه المعركة أثرٌ أيَّ أثرٍ ! وكان القعقاعُ على المُجرّدة[1] ، وقد خشي المسلمون أن يطول حصارُ المدينة دون جَدْوىٰ ، إذ كان الفرْسُ قد تحصَّنوا داخلها ، فلا يخرجون منها إلَّا إذا أرادوا الخروج . واجتمع النعمانُ بقادة جيشهِ لِيجدَ حلًّا يُعينه على فتْح المدينة ، فاستقرَّ الرأيُ على أن يبعث النعمانُ خيلًا لِيَنْشَبْ القتال ، ثم تنسحب الخيلُ مُظْهِرَةً الفرارَ ، حتى يتعقَّبها الفرس ، وعند ذلك يهاجم المسلمون ، في معركةٍ تدور رَحَاها خارجَ أسوار

---

(١) المجردة : هي القوات المؤلفة من الفرسان التي تتقدم أمام المقدمة لحمايتها ، والمجردة : الذين لا يلبسون الدروع الحديدية .

المدينة الحصينة .

فمَن يقود الخيلَ لِتنفيذِ هذه الخطة بدقةٍ وإتقانٍ واندفاع ؟

أمر النعمانُ القعقاعَ ، فقاد الخيل وأنشب القتالَ ، فلمّا خرج الفرس لقتاله ، نكص ، ثم نكص ، ثم نكص ، وظنَّ الأعاجمُ أنها هزيمةٌ فاغتنموها ، وخرجوا حتى لم يبقَ منهم سِوى مَن يحرسُ الأبواب . وتقهقرَ القعقاعُ بالمسلمين ، حتى انقطعَ الفرسُ عن حصونهم ، ثم أعاد الكَرَّة عليهم بهجوم مضادٍّ فلما هاجمهم المسلمون في العَراء ، استطاعوا التغلُّبَ عليهم ، وبذلك انتهتِ المعركة - التي أطلق عليها المؤرِّخون : « فتح الفتوح »[(١)] - بنصر المسلمين ، وكان للقعقاع في هذا النصرِ نصيبٌ مرموقٌ . ولما انتهتِ المعركة ، كان القعقاعُ بفرسانه في مقدِّمة من طاردوا الفُلولَ الهاربة ، وانطلق القعقـاع في أثَرِ « فـيرزانَ » قائدِ الفُرس ، حتى أدركه في ثنيَّة همـذان ، وتصادف أنْ كانت الثنيَّةُ مشحونةً بقافلةٍ من البغـال والحمير محمَّلةً بحمولة من العَسَلِ ، فَحَبَسَتْ « فيرزانَ » عن المرور ، فلمَّا رأى القعقاع في أثرِه قد أدْرَكَهُ ، نزل عن جَوادِه وجرى في الجبل ؛ إذْ لَمْ يجدْ سبيلًا يذهـب فيه ، ونزل القعقاع عن جَوادِه أيضًا ، فتبعَه حتى أدركه وقتله . وفي ذلك قال المسلمون مُتفكِّهين : إنَّ لله جنودًا من عسلٍ !

الفارج الكُرَبَ العظامَ بمثلِهَا والتـاركَ المَلِكَ العـزيزَ ذَلـيلا
نَطَقَتْ بسؤْدُدِكَ الحَمامُ تغنّيًا وبما تجشَّمُهَـا الجيادُ صَهِيلا
ما كلّ مَن طَلَبَ المعالِيَ نافِذًا فيها ولا كلّ الرجالِ فُحُولا[(٢)]

رحمكَ اللهُ يا قعقاع ... ألم تَقلْ يا سيدي :

---

(١) البلاذري صـ ٣٠٢ .

(٢) من ديوان المتنبي صـ ١٤٥ - ١٤٨ طبع دار صادر .

ولقد شهدتُ البرقَ برقَ تِهَامةَ ... يهدي المناقِبَ راكبًا لعيارِ
في جُنْدِ سيفِ اللهِ سيفِ محمَّدٍ ... والسابقينَ لسُنَّةِ الأحرارِ

رحمك الله ورضي عنك .. نجدةَ الفوارس وليْثَهَا .

يدعونَ قَعقاعًا لكلِّ كَريهةٍ ... فيجيبُ قعقاعٌ دُعَاءَ الهاتِفِ

وسيذكر التاريخ للقعقاعِ أنه ضرب رقمًا قياسيًّا في عدد المعارك التي خاضها في العراق وبلاد الشام وفارس ، وكانت له في كلّ معركةٍ خاضها قصةٌ مُشرِّفةٌ خالدةٌ ... إحدى عشرةَ معركةً كبيرةً : سبعٌ بالعراق ، وثلاثٌ بسورية ، وواحدةٌ في إيران ، فكم معركة صغيرة لم يذكرها له التاريخ ؟!

وسيذكرُ التاريخ للقعقاع القائد - بطل الإسلام ، وفارس العرب - أنه القائد الوحيدُ الذي قاتل في معاركِ الفتْح الإسلامي الثلاثةِ الحاسمة : القادسية واليرموك ونَهاوند ، وأبلى فيها كلِّها بلاءَه ، بل كان في القادسية قائدَ الميْدان الفعلي وفارسَه .

عَمرُو بنُ العَاصِ السَّهْمِيّ ، فاتحُ فلسطينَ ومصرَ وليبيا :

قال رسول الله ﷺ : « أسلم الناسُ ، وآمن عَمرُو بن العاص »[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « ابنا العاصِ مُؤْمنان »[2] .

وعن عمرو بن العاص ، قال : كان فَزَعٌ بالمدينة ، فأتيتُ على سالمٍ مولى أبي حذيفةَ ، وهو مُحْتَبٍ بحمائِل سيفه ، فأخذتُ سيفًا فاحتَبَيْتُ

---

(١)

(٢) إسناده حسن ، رواه أحمد ، والحاكم ، والنسائي في فضائل الصحابة ، عن أبي هريرة .

بحمائِله ، فقال رسول الله ﷺ : « أيُّهَا الناس ، ألا كان فَزَعُكُم إلى الله وإلى رسوله ؟! » ، ثم قال : « ألا فعلتُم كما فعَل هذانِ الرجلانِ المؤمنانِ ؟! »[1].

لما أسلم هو وخالدٌ ، قال رسول الله ﷺ : « أَلقتْ إليكم مكَّةُ أفلاذَ كَبِدِهَا » .

وكان عَمرٌو من فرسانِ قريشٍ وأبطالهم ، مذكورًا بذلك فيهم ، وكان فوق ذلك معروفًا بالدَّهَاءِ وحُسْن التَّصرُّف ، فلما أسلم قال عمرو : ما عَدَل بي رسول الله ﷺ وبخالدٍ بن الوليد أحدًا من أصحابه في حرْبه ، منذ أسلمتُ .

الرَّسول ﷺ يُوَلِّي عَمْرًا القيادةَ في ذاتِ السَّلاسل :

« ولّى رسول الله ﷺ عَمْرًا قيادة سَرِيَّةٍ مُؤلَّفة من ثلاثمائة رجلٍ من أشراف المهاجرين والأنصار ، لِصَدِّ جمعِ « قُضَاعة » الذين يريدون أنْ يهاجموا أطرافَ المدينة المنَوَّرة ، فسار عمرٌو الليلَ وكَمَنَ النهارَ ، فلمّا قرُب مِنَ القوم ، بلغَهُ أنَّ لهم جَمْعًا غفيرًا ، فاستمدَّ رسولَ الله ﷺ ، فبعث إليه أبا عبيدة في مائتيْن وعقَد له لواءً ، وبعث به،معه سراةُ المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وأراد أبو عبيدة أن يؤُمَّ الناس ، فقال عمرٌو : إنما قَدِمْتَ عَلَيَّ مَدَدًا ، وأنا الأميرُ . وما زال عمرو بأبي عبيدة حتى أطاعه ، وسار عمرٌو حتى وَطِئ بلادَ « بَلّي » ودوّخها ، وأتى إلى أقاصي بلادهم وبلاد « عُذرة » و« بَلْقَين » ، ثم لقيَ جمعًا ، فحمل عليهم المسلمون ، فهربُوا في البلاد . وقفَل عمرٌو راجعًا إلى المدينة . ولمّا هَزَمَ المسلمون أعداءَهم طَمِعُوا فيهم ، فأرادوا مطاردتهم ، فحالَ عمرٌو بينهم وبين ذلك ، ثم أرادوا

---

(١) صحيح ، أخرجه أحمد في مسنده ، والنسائي في الفضائل .

أن يُوقدوا نارًا يَصْطَلُون عليها من البرد ، فمنعهم عمرٌو أيضًا ، فشقّ على المسلمين ذلك ، ولم يحتمِلُوا تلك الشِّدَّة ، فشكَوْه إلى رسول الله ﷺ ، فكلّمه في ذلك ، فقال له عمرٌو : كرهتُ أنْ آذنَ لهم أن يُوقدوا نارًا فيرىٰ عدوُّهم قلَّتهم ، وكرهتُ أن يَتْبَعُوهم فيكون لهم مَدَدٌ . فأُعجِبَ به رسولُ الله ﷺ أيَّما إعجابٍ ، وَحَمِدَ له رأيَه »[١].

هَدْمُه لِسُوَاعٍ :

وبعثه النبي ﷺ لهدْم « سُواعٍ » صنمِ هُذيلٍ فهدمَه ، وأسلم سَادِنُه على يد عمرٍو .

في حروب الرِّدَّة :

« لمَّا مات رسول الله ﷺ وعَمرٌو بِعُمانَ ، أقبل حتى نزل بقرَّة بن هبيرة ومعه جيشٌ من بني عامرٍ ، فأكرم قرَّةُ مَثْواه ، فلما أراد عَمرٌو الرحلةَ ، خَلا بِهِ قرَّةُ ، وقال : يا هذا ، إنَّ العربَ لا تَطيبُ لكم نفسًا بالأَتاوَة ، فإنْ أعفيْتموها من أخْذ أموالكم ، فتسمع لكم وتُطيع ، وإنْ أبيْتم فلا تجتمع عليكم . فقال عَمرٌو : أكفرتَ يا قرّة ؟! أتخوِّفنا بالعرب ؟! فوالله لأُوطِئنَّ عليك الخيل في حِفْشِ أُمِّكَ »[٢].

ولما وصل عمرو المدينة عقد له أبو بكر لواءً ، وأرسله إلى قُضاعةَ لمّا ارتدَّت ، فسار عمرو بجيشه ، فأعمل السيفَ في رقابهم وغلبهم على أمرهم ، فعادوا إلى الإسلام ، وعاد هو إلى المدينة حامِلًا لواءَ النصر .

* * *

(١) السيرة الحلبية ٣ / ٢٧٣ ، وتاريخ الخلفاء صـ ٧٢ .
(٢) الحِفْشُ : بيتٌ تنفرِدُ فيه النُّفَسَاء .

في أرضِ الشامِ :

لمَّا أراد الصدِّيق إرسالَ الجيوش إلى الشام ، كتب إلى عمرٍو : قد أحببتُ أنْ أُفرّغَكَ لِمَا هو خيرٌ لك في الدنيا والآخرة . فكتب إليه عمرٌو : « إني سَهمٌ من سهامِ الإسلام ، وأنت - بعد الله - الرامي والجامعُ لها ، فانظرْ أشدَّها وأخشاها وأفضلها ، فارمِ به شيئًا إنْ جاءك من ناحيةٍ من النواحي »[1]. فعقد أبو بكر لعمرو ، وأمرَه أن ينصرف إلى أرض فلسطين ، وأراد عَمرٌو أن يتولَّى قيادة الجيوش في الشام ، فجاء عمرٌو إلى عُمَرَ وقال له : « يا أبا حفص ، أنت تعلم شدَّتي على العدوِّ ، وصبري على الحرب ، فلو كلّمتَ الخليفةَ أن يجعلني أميرًا على أبي عبيدة ... وإني لأرجو أن يفتح الله على يديّ البلاد ويهلك الأعداء » . فقال عمر بن الخطاب : « ما كنتُ بالذي أكلِّمُه في ذلك ؛ فإنه ليس على أبي عبيدة أميرٌ » .

وفي « اليرموك » كان عمرٌو على الميمنة[2] ، فكان له أثر كبيرٌ في انتصار المسلمين في هذه المعركة ، وفي معركة فتْح دمشق كان عمرٌو على باب توما ، وفي « فحْلٍ » كان عمرٌو وأبو عبيدة على المجَنبتيْن ، وشهِدَ عمرو مع شُرحبيلَ فتحَ « بَيْسَانَ » و« طبرية » ، وصالحا أهل الأردن .

رَمَيْنَا أرطبونَ الرُّومِ بأرطبون العرب :

عَلِمَ عَمْرُو بن العاص أنّ الرومَ حشدوا جيوشَهم ، وعلى رأسها قائد فلسطين : أرطبون (أريطيون) في أجنادين ، فسار عمرٌو ومعه شرحبيل ابنُ حَسَنَة واستخْلفَ على الأردن أبا الأعورِ السُّلمي ، وكان الأرطبونُ أدهىٰ

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٥٨٧ - ٥٨٨ ، وابن الأثير ٢ / ١٥٤ .
(٢) الطبري ٢ / ٥٩٣ ، وابن الأثير ٢ / ١٥٨ .

الروم وأبعدَها غَوْرًا ، وكان قد وضع بالرّملة جندًا عظيمًا ، وبإيلياءَ جندًا عظيمًا أيضًا ، فلما بَلَغَ عمرَ بن الخطاب الخبرُ قال : « رَمْينا أرطبونَ الروم بأرطبون العرب - يقصدُ عَمرًا - فانظروا عمّا تنفرج به » وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر على الأرطبون ولا تَشفيه الرسلُ ، وكان رضي الله عنه يُقدِّر قيمة الاستطلاع حقَّ قدْره ، ولذا أقدمَ على مغامرةٍ استطلاعيةٍ فَذَّةٍ ، وهي قيامُه بالاستطلاعِ الشخصي لمَقَرّ قائد الروم ، والذي كاد أن يكلِّفه حياتَه . سار عمرٌو إلى أرطبون بنفسه ، ودخلَ عليه كأنه رسولٌ ، ففطِنَ به الأرطبونُ ، وقال : لا شكَّ أنَّ هذا هو الأمير أو مَن يأخذ الأميرُ برأيه . فأمر رجلًا أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مرّ به ، وَفَطِنَ عمرو إلى غَدْر الأرطبون ، فقال له : « قد سمعتَ مِنّي وسمعتُ منك ، وقد وقع قولُك مني موقعًا ، وأنا واحد من عشرةٍ بَعَثَنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانِفَه ويُشهدنا أمورَه ، فأرجع آتيك بهمُ الآن ، فإنْ رأوْا في الذي عرضتَ مثلَ الذي أرى ، فقد رآه أهلُ العسكر والأميرُ ، وإن لم يَرَوْه رددتهم إلى مأْمنهم وكنت على رأس أمْرك » . فقال الأرطبون : نعم . وردّ الرجلَ الذي أمَرَه بقتْل عمرٍو ؛ فخرج عمرٌو مِن عند الأرطبون ، فَعَلِمَ الروميُّ بأنَّ عَمْرًا خَدَعَه ، فقال : خدعني الرجل ، هذا أدهى الخلْق !! وبلغتْ خديعتُه عمر ابن الخطاب ، فقال : لله دَرُّ عَمرو ! وعَرَفَ عمرٌو من استطلاعِهِ الشخصي هذا نقاطَ الضَّعف في مواضع الروم فهاجمهم ، واقتتلوا قتالًا شديدًا كقتال اليرموك ، حتى كَثُرَتْ القتلى بَيْنهم ، ولكنَّ أرطبونَ انهزم فأَوَى إلى إيلياء ، ونزل عمرٌو أجنادينَ ، وانضمَّ علقمةُ ومسروقٌ وأبو أيوب إلى عمرٍو بأجنادين .

ولما دخل أرطبون « إيلياء » ، فتح عمرو « غَزَّة » ، و« سبسطِية » و« نابلس » ، و« اللّد » ، و« يُبْنَى » و« عَمْواس » ، و« بيت جبرين » ، و« يافا » و« رفح » ، وحاصر هو وأبو عبيدة « إيلياء » (بيت المقدس) .

لقد كان فَتْحُ أكثر فلسطين على يديْه رضي الله عنه .

فَتحُ مِصـرَ :

كان لحضور عمرٍو إلى مصر في الجاهلية أثرٌ كبيرٌ على معرفتِهِ بأخبار مصر ؛ طرقِهَا وطبيعةِ أرضها ، ومدى اضطهادِ الروم لأهلها ، فلا عجبَ أنْ يُقـدِم عمرٌو على دخول مصر على رأس ثلاثةِ آلافٍ وخمسمائةِ رجلٍ فقط ، إذْ لولا تيسُّـرُ المعلومـاتِ الكافية لديه عن مصر وأهلها ، وضعْف حاميتها ، لَمَا كَانَ مِنَ المعقول أنْ يُقْدِمَ على فتْح مصر بمثلِ هذا العدد الضئيلِ مِنَ الرجال .

لمّا كتبَ عمرُ بن الخطاب إلى عمرٍو أنْ يسيرَ إلى مصر في جنده ، خرج فنزل العريش ففتحها ، ثم أتى إلى « الفَرَما » وبها قومٌ مستعدّون للقتال ، فحاربهم عمـرٌو وهزمهم ومضى قُـدُمًا إلى الفسطـاط ، وكان اسمُها : « البونة » ، فنزل « جنانَ الريْحان » ، وقد خندق أهلُ الفسطاطِ ، فحاصرهم عمرٌو حتى ورد عليه الزبير في عشرةِ آلافٍ أو اثني عشر ألفًا ، واستمرَّ الحصارُ حتى فُتِحَتْ ، كما بيّنا في ترجمة الزبير .

ولما فتح عمرو حصنَ « بابليون » ، وجَّه عبدَ الله بن حذافة السَّهمي إلى « عيْن شمس » ، فغلب على أرضها ، وصالحَ أهلَ قُراها على مثلِ صلْح الفسطاط ، كما وجّه خـارجةَ بنَ حـذافة العدوي إلى « الفيُّوم » ، و« الأشمـونين » ، و« إخيم » ، و« البشرودات » ، وَقُرَىٰ الصعيد ، فصالحَهَا على مِثْلِ صلْح الفسطاط ، ووجّه عميرَ بنَ وهـبٍ الجُمَحِي إلى « تَنِّيس » و« دمياط » و« تونة » و« دميرة » و« شطا » و« دقهلة » و« بنا » و« بوصير » ، فصالحها على مثلِ صلْحِ الفسطاط ، ووجَّه عُقْبة بنَ عامرٍ - وقيل : وردانَ مولاه - إلى سائرِ قُرَىٰ أسفل الأرض ، ففعل مِثْلَ ذلك ، وبذلك استجمع عمرٌو

فتْح مصرَ ، فصارت أرضُها أرضَ خَراجٍ .

وسار عمرٌو إلى الإسكندرية ، وكان من دون الإسكندرية - الرومُ والقبطُ ، قد تجمَّعُوا له فلقيَهم بـ« الكريون » قُرْبَ الإسكندرية فهزمهم ، وَقَتَل منهم مَقْتلةً عظيمةً ، ثم سارَ عمرٌو حتى انتهى إلى الإسكندرية ، فوجد أهلها قد أعـدُّوا العُـدَّةَ لِقِتَالِهِ ، لكنَّ القبطَ منهم كان يرغبون في الصُّلْح ، فحاصرها عمرو ، فأرسل إليه « المُقَـوْقِسُ » ، يسـأله الصُّلْح والمهادنة إلى مُدَّةٍ ، فأبىٰ عمرٌو ذلك ، وأمَر المقوقس النساءَ أن يقمْنَ على سُور المدينة ، مُقبِلاتٍ بوجُوههنَّ إلى داخله ، وأقام الرجال بالسّلاح مقبلين بوُجوههم إلى المسلمين لِيُرْهبَهم بذلك ، فأرسل إليه عمرٌو : إنا قد رأينا ما صنعت ، وما بالكثرة غَلَبْنَا مَنْ غَلَبْنَا ، فقد لقينا « هِرَقْل » ملكَكُم ، فكان مِن أمْره ما كان . فقال المُقوقِسُ لأصحابه : قد صدق هؤلاء القومُ ؛ أَخْرَجُوا مَلِكَنَا من دارِ مملكته ، حتى أدخلوه « القسطنطينية » ، فنحن أوْلى بالإذعان . فأغلظ له أصحابُه القولَ ، وَأَبَوْا إلَّا القتالَ ، فقاتلَهم قِتالًا شديدًا ، وحصروهم ثلاثة أشهرٍ ، ففتحها عمرو بالسيف ، واستخلف عمرو على الإسكندرية عبدَ الله بنَ حُذافة ، وانصرفَ إلى الفسطاط[1].

فَـتْحُ لِيبْـيَا :

اخترق عمرٌو الصحراءَ حتى بلغ « بَرْقة » ، فافتتحها عمرو وصالَحَ أهلَها على الجزية ، ووجّه عمرٌو عقبةَ بنَ نافعٍ حتى بلغ « زَويلة » ، وصار ما بين « برقة » و« زويلة » للمسلمين ، ثم سار عمرو حتى نزل « أطرابلس » ، وكانت حصونُها أقوىٰ من حصونِ « برقة » ، وحامِيَتُها أكثر عددًا ، فامتنعتْ عن العَربِ شهرًا واحدًا ، ولكنها استسلمتْ للفاتحين ، وبذلك أنجز عمرٌو

(١) البلاذري صـ ٢٢١ - ٢٢٢ ، وابن الأثير ٢ / ٢١٩ .

فتْحَ ليبــيا .

في النّوبة :

أراد عَمرٌو أن يُؤَمِّن مصرَ من الجنوب ، فبعث عقبةَ بنَ نافع الفِهْرِيّ ، فدخلتْ خيولُهم أرضَ النوبة ، فلقي المسلمون بالنوبة قتالًا شديدًا ؛ إذْ كان أهلها ماهرين برمي السِّهام ، فرشقُوا المسلمين بالنَّبْل حتى جُرِح عامَّتُهم ، فانصرفوا بجراحات كثيرةٍ وحدق مفقودة ، فلم يصالحْهم عَمرو ، ولم يزلْ يهاجمهم بَيْنَ حينٍ وآخر .

العَوْدُ إلى قِتالِ الرُّومِ بالإسكندرية :

كتب أهلُ الروم إلى « قُسْطَنْطِينَ » إمبراطورِ الروم ، يهوّنون عليه فَتْحَ الإسكندرية ؛ لقلّةِ ما بها من حاميةٍ للمسلمين ، فبعثَ رجلًا مِن أصحابه في ثلاثمائةِ مركبٍ مشحونة بالمقاتِلة ، فدخَل الإسكندرية وقتل مَن بها من المسلمين المرابطين ، إلا مَنِ استطاعَ النجاة بنفسه . وَبَلَغَ عمرًا الخبرُ فسار إليهم ، وكان « منويل » قائد الروم قد تقدَّم نحوَ الجنوب ، ورجالُه يَعيثُون في الأرض فسادًا ، حتى وصلُوا « نَقْيُوسن » ، حيث اشتبكُوا بالمسلمين - الذين كان عددُهم خمسةَ عشرَ ألفًا - بقتالٍ عنيفٍ في البَرِّ والبحر ، وكَثُرَ الترامي بالنّشَّابِ حتى أصابت فَرَسَ عَمرٍو ، فنزل عنه ، وشدّ المسلمون على الرومِ وقاتلوهم قتالًا مُستميتًا ، حتى غلبوهم على أمْرهم ، فانهزم الروم ، وطاردهم المسلمون ، فتحصَّنَ الرومُ بالإسكندرية ، ولكنَّ المسلمين قاتلوهم أشدَّ قتالٍ ، وَنَصَبُوا المجانيقَ حتى دخلها المسلمون عَنْوةً[1] .

ينـــادي الأرطبـــونُ يا بـــلادي أضعْـتِ الهَـدْيَ كنَّـا فاتحينـا

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٢٢٣ .

فيَا فسطاطَ عَمرِو العاص عُودي   يعـودُ الطيرُ كمْ نَزَحَ السِّنينا

لك الله يا عمرُو مِن قائدٍ يحارب بِعَقْلِهِ وسيْفه !!

لقد اجتمعتْ في عَمرٍو كلُّ عناصرِ القيادة ؛ من شجاعةٍ وبطولَةٍ ، وإقدام ، ورأْيٍ سديدٍ وعقلٍ راجحٍ ، وفوق هذا : دهاءٌ في موضعه .

« كان عُمر بنُ الخطاب إذا رأىٰ رجلًا يتلجلج ، يقول : أشهدُ أنَّ خَالِقَ هذا ، وخَالِقَ عمرو بن العاص : واحدٌ »[١].

وكان إذا استضعف رجلًا في رأيه وعقله ، قال : « أشهد أن خالِقَك وخالقَ عمرٍو : واحدٌ » ، يريد خالق الأضْدادِ[٢].

وكان عمر بن الخطاب إذا نظر إلى عمرٍو يمشي ، يقول : « ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرًا »[٣].

فرضي الله عن عَمرِو بن العاص ، الذي يحتلُّ أنْصَعَ صَفَحَاتِ الفتح الإسلامي في تاريخ العرب والمسلمين ؛ بِفَتْحِهِ لفلسطين ومصر وليبيا ، وهي بلادٌ لم يفتحْ غيرُه من قادةِ العرب أوسعَ منها وأكثرَ خيرًا .

هــذه الأرضُ التي قــد زينــتْ   بنجومِ المجدِ تحبُو في سَمَاهَا

هاهنــا مــرَّ الزبـيرُ وهاهنــا   ضمَّخَ ابنُ العاصِ بالطِّيبِ ثَراها

أمَّا واقِعُنَا :

ماذا تبقَّىٰ من ضياء الصُّبح في عينِ الوطنْ

(١) الإصابة ٥ / ٢ - ٣ .

(٢) الاستيعاب ٣ / ١١٨٨ .

(٣) الإصابة ٥ / ٢.

والشمسُ تجمعُ ضوءَها المكسورْ

والصبحُ الطريدُ

رفاتُ قِدّيسٍ يفتِّشُ عنْ كَفَنْ

النيلُ بين خرائِبِ الزمنِ اللقيطْ

يسيرُ مُنكسرًا على قدمَيْنِ عاجزتَيْنِ

ثُمَّ يطلُّ في سَأمٍ ويسأل عن سَكَنْ

يتسوَّل الأحلامَ بين الناسِ

يسألهم وقدْ ضاقتْ به الأيامُ

مَنْ منّا تغيَّر ؟..

وجْهُ هٰذي الأرضِ .. أمْ وجهُ الزمنْ

في كلِّ يومٍ يشطرون النهرَ

فالعينانِ هاربتانِ في فَزَعٍ

وأنفُ النيل يسقط كالشظايا

والفمُ المسجون أطلالٌ

وصوتُ الريحِ يعصفُ بالبَدَنْ

قدمانِ خائرتانِ .. بطنٌ جائعٌ

ويدٌ مُكَبَّلةٌ .. وسيفٌ أخرسُ

باعُوهُ يومًا في المزادِ بلا ثَمَنْ

النيلُ يرفعُ رايةَ العِصيانِ

في وَجْهِ الدمامَةِ ... والتنطُّع ... والعَفَنْ

* * *

ماذا تبقَّىٰ مِنْ ضياءِ الصبحِ

في عَيْن الوطنْ ..
الآن فوقَ شواطئ النهرِ العريقِ
يموتُ ضوءُ الشمسِ
تصمُتُ أُغنياتُ الطيرِ .. ينتحِرُ الشجرْ
خَنقُوا ضياءَ الصُّبحِ في عين الصغارِ
ومَزَّقوا وَجْهَ القمرْ
باعُوا ثيابَ النهرِ في سُوق النِّخاسَةِ
أسكتُوا صوْتَ المَطَرْ ..
في كلِّ شِبْرٍ وَجْهُ ثُعبانٍ بلوْنِ الموتِ
يَنْفُثُ سُمَّهُ بين الحُفَرْ ..
في كلّ عينٍ وَجْهُ جَلّادٍ يُطِلُّ ويختفي
ويعودُ يزأر كالقَدَرْ ..
صَلَبُوا على الطرقاتِ
أمجادَ السنينِ الخُضْرِ
باعُوا كلَّ أوْسِمَةِ الزمانِ البِكْرِ
عُمْرًا .. أو ترابًا .. أو بَشَرْ ..
أترىٰ رأيتم كيفَ يُولد عندنا
طفلٌ وفي فَمِهِ حَجَرْ ؟
لَمْ يَبْقَ شيءٌ للطيورِ علىٰ ضفافِ النيلِ
غيرُ الحزن يَعْصِفُ بالجوانِحْ
زمنُ العصافير الجميلةِ قد مضىٰ
وتحكَّمَتْ في النهرِ أنيابٌ جَوارِحْ
زمنُ القراصِنَةِ الكبارِ

يُطلُّ في حُزْن العيونِ ..
وفي انطفاءِ الحُلمِ ..
في بؤْسِ الملامِحْ ..

* * *

ماذا تَبَقَّىٰ مِنْ ضياءِ الصُّبحِ في عَيْنِ الوَطَنْ
زمنُ الفوارِسِ قد مضَىٰ ..
قُلْ للخُيولِ تَمَهَّلي في السَّيْرِ
فالفُرسانُ تسقُط في الكمائِنْ
قُلْ للنوارسِ حاذري في الطيرِ
إنَّ الريحَ تعصِفُ بالسفائِنْ
قُلْ للطيورِ بِأَنَّ وجهَ الموتِ قنَّاصٌ
يطوفُ الآنَ في كلّ الأماكنْ ..
ويلٌ لماءِ النهرِ حينَ يجيءُ مُنكَسِرًا
وفي فَزَعٍ يُهادِنْ

* * *

ماذا تبقَّىٰ مِن ضياءِ الصُّبحِ في عَيْنِ الوطنْ
والنهر مسجونٌ وطَيْفُ الحلمِ
بين رُبوعِهِ يَجري ويصرخُ في أَلَمْ
لم يبقَ شيءٌ فوق **أطلال الشواطىء**
غيرُ عصفور كسير كان يشدو بالنَّغمْ
لمْ يبقَ بينَ حدائقِ الأطفالِ

غيرُ فراشةٍ بيضاءَ مَاتَتْ
حينَ حَاصَرَهَا العَدَمْ
لم يَبْقَ غيرُ كَتَائِبِ الجَهْلِ العتيق
تُطِلُّ في خُبْثٍ .. وتَضحكُ في سَأَمْ
مَنْ باعَ للَّيلِ الطَّويلِ عيونَنَا ؟
مَنْ أخْرَسَ الكلماتِ فينا ؟
مَنْ بحدِّ السيفِ ينتهكُ القلمْ ؟

* * *

مَاذَا سَيَبْقَىٰ بعدَ موتِ النهرِ
غيرُ شُجَيْرَةٍ صفراءَ تبحثُ عن كَفَنْ
ماذا سيبقىٰ بعدَ قتْلِ الفجْرِ
غير سحابةٍ سوداءَ
تَبكي فَوْقَ أطلالِ الوَطَنْ
ماذا سيبقىٰ مِنْ رُفَاتِ الصُّبحِ
غير شراذمِ الليلِ القبيحِ
تحومُ في وَجْهِ الزمَنْ

* * *

يَـٰأَيُّـهَا الليلُ الطويلُ
ماذا يَضيرُكَ إنْ تركتَ الصبحَ يَلْهُو
فوقَ أعناقِ الحَدائِق ..
ماذا يَضيرُك إنْ غَرستَ القمحَ في وطَني

وحَطمتَ المشانِقْ
في كلِّ بيتٍ في مدينتنا سُرَادِقْ
ماذا يضيركَ أن يعودَ العدلُ فينا شامِخًا
ويطوفُ مرفوعًا علىٰ ضَوْءِ البَيَارِقْ
مَاذَا يَضيرُكَ أنْ تعودَ الشمسُ
تسري في العيونِ
وأن يعودَ الفجرُ يقتحمُ الخَنَادِقْ
ماذا يَضيرُكَ أنْ يعودَ النّوْرَسُ المقهورُ
يَصْدَحُ في السماءِ ..
فلا تطاردُهُ البنادقْ
ماذا يضيرك أنْ تعودَ قوافِلُ الأحلامِ
تسكنُ في العيونْ
ماذا يضيرك أنْ يصيرَ الحَرْفُ حُرًّا
لا قيودَ .. ولا سياطَ .. ولا سجونْ ..

* * *

يَـٰأَيُّهَا النهرُ الجَليلْ
أنا مِن بلاطِكَ مُستقيلْ ..
أنا لن أغنِّي في سجونِ القَهْرِ
والليلِ الطويلْ
أنا لنْ أكونَ البُلْبُلَ المسجونَ في قَفَصٍ ذليلْ
أنا لن أكونَ الفارسَ المهزومَ
يجري خلفَ حُلْمٍ مُستحيلْ ..

ما زال دمعُ النيل في عيني
دماءٌ لا تجفُّ .. ولا تسيلْ
الآن أُعْلِنُ .. أنَّ أزْمِنَةَ التنطُّعِ
أخرستْ صوْتي
وأنَّ الخيْلَ مَاتَتْ عندما اختنقَ الصهيلْ ..
يَٰأَيُّهَا النهرُ الجليلْ
إنْ جِئْتَ يومًا شامخًا ..
ستعودُ في عَيْنَيَّ .. نِيلْ[1] ...

وفي واقعنا يا عمرو :

كانت نكسةُ « يونيو » .. ووقفتْ « كوكبُ الشَّرْقِ » تُغَنِّي لِلَّيْل ، والخمر ، والحبِّ الضائع ، والدَّمُ البَريءُ يَسِيلُ على كلِّ رابيَةٍ .. والعارُ الأَسْوَدُ يجلّل جِباه المُخدَّرين والمُخدَّراتِ ، ممَّن راحتْ تصفعُ وجوهَهم ولا يشعرون : هذه ليلتي ، وحُلْمُ حياتي . وساعَتَها قال صَحَفِيٌّ في مجلة « الصيَّاد » : إني أعرفُ مكانةَ « أُمِّ كلثوم » عند العرب .. وأعرفُ كذلك أنَّ حبَّ الكثيرين لها يوازي حبَّهم لفلسطين .

خذِّريهِمْ يا « كوْكبَ الشَّرْقِ »

« كَوْكَبَ الشَّرْقِ » لا تذوبي غَراما ... وَدَلَالًا وَحُـــرْقةً وَهَيَامَـــا
لا .. ولا تنفثي الضيَّاعَ قصيدًا ... عَبْقَــريًّا أو تُرســلي الأَنْغَــاما
فَدِمَــاءُ الأحبــابِ في كلِّ بيتٍ ... تتــنزَّى وتبعــثُ الآلامــا
وجراحُ « الأقصىٰ » جراحُ الثكالىٰ ... ودموعُ « الأقصىٰ » دموعُ اليَتَامَىٰ

---

(١) قصيدة : « أغنية للوطن » لفاروق جويدة – الأهرام : ٢٥ / ٦ / ١٩٩٥ م .

أيُّهَا الشعبُ خـدّرتْه الليالي مُثَقَّـلاتٍ تفجَّـرتْ آثامــا
فعــنِ الحــقِّ تــارةً يتلهّـى وَعَــنِ النُّـورِ تـارةً يتعـامى
يَتَهَـاوَى عـلى ذراعِ طَـرُوبٍ أو لَعُوبٍ في حِضْنها يترامى
وإذا الشِّعْـرُ بالكُئـوسِ تغنَّى « والنُّوَاسِيُّ عـانَقَ الخـيّاما »
وأنِـينُ الكَمَـانِ صـارَ أذانًا في حِمَى البيتِ .. والنديمُ « إماما »
وإذا « ليلتي » و« حُلْم حياتي » لم نحطِّمْ في فجرها الأصناما
فإلامَ الجهادُ يا « كوكبَ الشّر قِ » وما بالُنا نهزُّ الحُسَاما
لا تُغنّي الخيّامَ يا « كوكبَ الشّر قِ » وتسقي من راحتَيْهِ المُدَاما
ففلسطينُ لا تحبُّ السّكَارى وَرُبَى القُدْسِ لا تريدُ النِّياما
ولو انَّ الخـيّامَ يُبْعَـثُ حَيًّا هَوَتِ الكأسُ مِن يديْهِ حُطاما
« كوكبَ الشّرق » ضاعَ قومي لمّا تـاهَ في حُبِّكِ القطِيعُ وهَامـا
مَنَحوكِ الإعْجَابَ يا وَيْحَ قَوْمي وعلى الصَّدْرِ علّقوك وِسَامَا
خَدّريهمْ باللَّحْنِ يا « كوكبَ الشّر قِ» وصُوغي مِنْ لَحْنِكِ اسْتِسْلاما
أيُّهَا السـادةُ الكبـارُ سـلامًا قدْ قتلتُم في كلِّ نفسٍ سَلاما
وصنعْتُمْ مَجْدًا مِنَ الزَّيْفِ زُورًا فأماطَتْ عَنْهُ الليالي اللّثامـا[1]
نَسِيَ الناسُ صهيلَ فرسِ الزبير وزئيرَ ابنِ العاصِ فاقَ الحُساما
ودماء الشهداء الأُلَى فتحُوها في رُبَانَـا تَفتَّحَـتْ إسـلاما

وفي واقعنا .. أصبح المعروفُ مُنكرًا ، والمنكرُ معروفًا .. وتبدَّلتْ الموازينُ وأقدارُ الرجالِ .. ولسانُ الكلِّ ينعِقُ بتقديس التُّرابِ .. قِيَمُ مصر .. ومبادِئُ مصرَ :

(١) من قصيدة : « خدِّريهم يا كوكب الشرق » ليوسف العظم – من ديوان : « في رحاب الأقصى » – ط : المكتب الإسلامي .

مجاويشُ اللَّعينةُ سوْفَ تبقَى ... دليلًا فاضحًا للظَّالِمينَا
مجاويشٌ نوادي قومِ لُوطٍ ... وتسخَرُ من تُقَى المُطَّهِّرِينا
تناديهم[1] أَيَا قومَ الفراعِنْ ... ويا أحفاد رمسيسَ اللَّعِينا
بأرضِ النيلِ دينُ الجِدِّ أحْمُسْ ... أَيُتركُ دينُ لُوطٍ والأَمِينا
أَتَرْكُ المسلمينَ لِنَشْرِ طُهْرٍ ... سَيبكي مُوَحِّدُ القُطْرَيْنِ « مِينا »
أنتركُهُمْ لتحريمِ الحرامِ ... وقطْعِ يدٍ لِسَرَّاقٍ خَئونا
وَغَلْقٍ للمصارفِ يا مُرابي ... وإنَّ رِبا المصارفِ كَنزُ سِينا
نعودُ إلى البيوتِ .. إلى النِّقَابِ ... إلى لُبْسِ الخيامِ .. ابكِ أمينا[2]
ونغضَبُ يا رفاقَ العمِّ سَام ... بمنْعِ القَمْحِ ما نجدُ الطَّحِينا

* * *

وذكرى كامبَ دِيفيدَ شَدْوُ عُمْري ... وَبيجِنَ كارْتَرَ المبعوثِ فينا
وآثاري .. وأهرامي .. وسينا ... و« ميت الكومِ » .. مرّ الناصرينا
وموسيقارُنا عبدُ الوهابِ ... وكوكبُ شرقِنَا نَعَقَتْ سنينا
وذاكَ العندلِيبُ أخو الغرابِ ... أنتركُهُ لِدَعْوَى الطاهرينا
ورقْصُ الشَّرْقِ ذا فنٌّ تجلَّى ... وذا تسبيحُ عَيْنِ الشَّاكرينا
و« موسَى » صَبرِهِم يَعْوي جِهارًا ... يَسبُّ الحَبْرَ يَهجُو المسلمينا
و« يُسْرَانا » و« عادِلُنَا إمامٌ » ... و« ليلَى » ثم « فيفي » بلْ « لُوسي » طاهرينا
و« غالينا » و« بطرُسُنَا » المُفدَّى ... إمامُ الذَّبحِ للأحنافِ فينا

---

(١) هذا نداء مجاويش .. قرية العُرَاة ، تُذَكِّر العلمانيِّين بمفاخرهم ورموزهم .

(٢) أمينَة السَّعيد .

وَسَمَّوْنـا الخـوارجَ يا خنـاسٌ بمصـرَ النـيل بلْ والمارقينا
ويا « رأسَ العَمَائِمِ » قُلْتَ كُفْرًا وزُورًا بـل وَبهتـانًا مُبينـا
جَعَلْتَ تَعـدُّدَ الزوجاتِ ضُرًّا جعلـتُ زبالةَ الأذهـانِ دِينا
لترضَىٰ عنكمُ « جيهانُ » مصرٍ فما بقيتْ « جيهانُ » وصار طينا
زَعَمْـتُمْ أنَّكـم أحبـارُ عِـلْمٍ وتطعنُ في « ابن تيمية » الأمينا
وكلُّكُـمُ خُـوَاءٌ وهْـوَ بَحْـرٌ هـو الصَّبـارُ شيخُ المسلمينـا
وذا قـولُ الأئِمَـةِ مِنْ قـديمٍ ومـا بالطَّعْـنِ صـار التِّبْرُ طِينا
أنأخـذُ عنكُـمُ الـدينَ النَّـدِيَّ وقـدْ صِـرْتُمْ رُعاةَ الفِسْقِ فينا

* * *

وإخنـــاتونُ للتوحـــيدِ داعٍ قـديمًا قبْـلَ كلِّ المُرْسَلِينـا
أإخنـاتونُ عـابدُ قُـرصِ شمسٍ بزعمِ الكفرِ شيخُ المسلمينا
وكعبتُنَـا الحبيبـةُ لـو أرادُوا لقـالُوا إنهـا كانتْ بـ« سينا »
إلٰـهُ القـومِ نِيلُهُـمُ العتـيقُ[١] رسـولُهُمُ غـدًا طَمْيًا وطينـا
حضـارةُ سـبعِ آلافٍ لِكُفْـرٍ وفرعـونُ استخـفَّ الصاغرينا
أليسَ النـيلُ لي ومِصْـرُ ملْكِي ومُوسـىٰ سـاحرٌ لَبِثَ السنينا
نربِّـيه صغـيرًا ثمَّ يدْعُـــو لدينِ غـــيرِ دينِ السَّاحرينـا
فميمُكُـــمُ وصادُكُـــمُ وراءٌ غـدتْ وثنًا وطاغـوتًا لعينـا[٢]
وَنِسْبَتُكُـــمْ لأهـــرامٍ ووثـنٍ ونسبتُنـا لتوحـيدِ الأمينـــا[٣]

---

(١) يقولون : النيل وحّدنا وغرس فينا القيم .. وهو باعث الحياة فينا .
(٢) حضارة مصر وتراب مصر ومبادئ مصرَ وأخلاق مصر ... مصر ...
(٣) هذا القول مُوجَّه للعلمانيين ، لا للمسلمين من أبناء مصر الطيِّبين .

ونسبتُكُمْ لحَتْشِبْسُوتَ كُفْرٌ ... ونسبتُنَا لحُورِ الدَّارِ عِينا
ونسبتُكُمْ لنيرانٍ تلظَّى ... ونسبتُنَا لدارِ المُتَّقِينَا
ونسبتُنَا لعَمرِو العاصِ حُبِّي ... ونسبتُهم لفرعون اللَّعينا
وهذي مساخِرُ الفُسَّاقِ أمي ... فنادى أينَ رَبَّانُ السفينا

أخي :

النيلُ أصبحَ مَرْتعًا
كي تسْتَحِمَّ بِهِ البغالْ
وهو النجاشيُّ المسافرُ في القرونِ
فكم رأى قِصَصًا وقالْ
طهِّرْ مياهَ النيلِ مِلْءَ شطوطِهِ
بحديث عَمْرٍو والرجالْ
ذوِّبْ لنا الآياتِ ..
دوِّنْ سِرَّهَا في النيلْ ..
هذا كاتِمُ الأسرارِ في لغةِ المُحَالْ
سنُفَتِّشُ الأمواجَ عَنْ مكنونِهَا
فعطِّر ورْدَهَا بِنَذْرِ[1] الزُّبيرِ
ورَوِّهَا قِصصَ الجلالْ

* * *

انتهى المُجلَّد الثالث ويليه المُجلَّد الرابع
إنْ شاء الله تعالى

---

(١) حين وهب نفسه لله ، لفتْح حِصْن بابليون .

□ السَّيِّدُ الوَلِيُّ .. العلاءُ بن الحَضْرميّ الصَّحَابيّ ، □ فاتِحُ « البَحْرين » وجزيرة « دارين »

خالُ طلحةَ بن عبيد الله أحدِ العَشرة .

يذكر التاريخُ للعلاء سِفارتَه بَيْنَ النبي ﷺ وَمَلِك « البحرين » المنذر ابن ساوَى ، وإسلام مَلِك « البحرَيْن » وأهلِ « البحرَيْن » على يديْه . ويذكر له انتصاراته الحاسمة على أهل الرِّدَّة في « البحرين » ، على الرغْمِ من رَصَانة قوَّتِهم ، ومعاونة الفُرْس لهم .. ولهذا قصةٌ سنذكرها .. وفتح العلاءُ أيضًا « أسيافا » مِن « فارِس » .

ويذكر التاريخ للعلاء أنَّه كان أولَ قائدٍ مسلمٍ بعَث قائدًا مسلمًا في البحرِ للفتْح ، وهو « عَرْفَجَة بن هَرْثمَة » الذي فتح بعض جُزُر الخليج العربي ، وبعض مناطق « خوزستان » .

أمَّا قصةُ « دارين » ، واستنقاذ ونجدة العلاء للجارود بن المعلى ، ومَن ثبَتَ على إسلامه من البحرين ، فهذه:إنّ أهلَ « البحرين » لمّا ارتدُّوا عقَد الصِّدِّيق لواءَ « البحرين » للعلاء ، فسار إليها على طريق « الدّهْنَاء » ، وهي صحراء مخوفة ، خاليةٌ مِنَ الماء والمَرْعَى ، فلاقَى العلاءُ ورجالهُ مَشَقَّاتٍ كثيرةً عند قطْعها ، حتى أصبحتْ حياتُهم في خطرٍ عظيمٍ[1] ، ولكنَّ العلاءَ وَصَحْبَه تحمَّلوا تلك المشقّاتِ بإيمانٍ وَصبْرٍ عجيبيْن .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (٦ / ٣٣٢ - ٣٣٤) : « قد كان العلاءُ من ساداتِ الصحابة العلماءِ العُبَّاد مُجَابي الدعوة ، اتَّفق له في

---

(١) الطبري ٢ / ٥١٩ .

هذه الغزوة أنه نزل مَنْزِلًا ، فلم يستقرَّ الناسُ على الأرض حتى نَفَرتِ الإبلُ بما عليها : من زَادِ الجيش وخيامهم وشَرابِهم ، وبقوا على الأرض ليس معهم شيءٌ ، سِوَىٰ ثيابهم - وذلك ليلًا - ولم يقدروا منها على بعيرٍ واحدٍ ، فركِبَ الناسَ من الهَمِّ والغَمِّ ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَف ، وجعل بعضُهُم يُوصي إلى بعضٍ ، فنادىٰ مُنادي العلاء ، فاجتمعَ الناسُ إليه ، فقال : أيُّهَا الناسُ ، ألستم المسلمين ؟! ألستمْ في سبيل الله ؟! ألستم أنصارَ الله ؟! قالوا : بلى . قال : فأبشِروا ، فوالله لا يَخذلُ اللهُ مَن كان في مِثْلِ حالكم ، ونُودي بصلاة الصبح حين طلع الفجر ، فصلَّى بالناس ، فلمَّا قَضَىٰ الصلاة جَثَا على ركبتَيْه وجثا الناسُ ، ونَصَبَ في الدعاء ورفع يديْه ، وفعل الناس مثلَه ، حتى طلعتِ الشمس ، وجعل الناسُ ينظرون إلى سراب الشمس يلمَعُ مرةً بعد أخرى ، وهو يجتهد في الدعاء ، فلمّا بلغ الثالثةَ إذا قد خلَق اللهُ إلى جانبهم غديرًا عظيمًا من الماء القَرَاح ، فمشى ومشى الناسُ إليه ، فشربوا واغتسلوا ، فما تعالى النهارُ حتى أقبلتِ الإبل من كلّ فجٍّ بما عليها ، لم يفقدِ الناسُ من أمتعتهم شيئًا ، فسقوا الإبل عَلَلًا بعد نَهَلٍ ، فكان هذا ممّا عايَنَ الناسُ مِن آياتِ الله بهذه السَّرِيَّة ، ثم لمّا اقترب من جيوش المرتدَّةِ - وقد حشدُوا وجمعُوا خلقًا عظيمًا - نزَلَ ونزلوا[1]. وباتوا مُتجاورين في المنازل ، فبينما المسلمون في الليل ، إذْ سمِع العلاءُ أصواتًا عاليةً في جيش المرتدين ، فقال : مَنْ رجلٌ يكشفُ لنا خبرَ هؤلاء ؟ فقام عبد الله بن حذفٍ ، فدخل فيهم فوجدهم سُكَارىٰ لا يعقلون من الشراب ، فرجع إليه فأخبره ، فركِبَ العلاء مِن فوْرِه والجيشُ معه ، فكبسوا أولئك فقتلوهم قتْلًا عظيمًا ، وقلّ مَن هرب منهم ، واستولى على جميع أموالهم وحواصلهم وأثقالهم ، فكانت غنيمةً عظيمةً جسيمةً ، وكان الحطم بن

(١) أيْ : خندق على قواته ، وخندق الكفارُ على أنفسهم ، في حصارٍ استمرّ شهرًا .

ضبيعة - أخو بني قَيْسِ بن ثعلبة ، مِن سادات القوم - نائمًا ، فقام دَهِشًا حين اقتحم المسلمون عليهم ، فركب جوادَه ، فانقطع رِكابُه ، فجعل يقول : مَن يصلحُ لي ركابي ، فجاء رجلٌ من المسلمين في الليل ، فقال : أنا أُصلحها لك ، ارفع رِجْلَك . فلما رفعها ضربه بالسيف ، فقطعها مع قدمه ، فقال له : أجْهِزْ عليَّ . فقال : لا أفعل . ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين ، يقتلونهم بكلِّ مَرْصَدٍ وطريق ، وذهب مَن فرّ منهم - أو أكثرهم - في البحر إلى « دارين » ، ركبوا إليها السُّفنَ ، ثم شرع العلاء في قسْم الغنيمة ونقْل الأثقال ، وَفَرَغَ مِن ذلك ، وقال للمسلمين : اذهبوا بنا إلى « دارين » لِنغزوَ مَن بها من الأعداء ، فأجابوا إلى ذلك سريعًا ، فسار بهم حتى أَتَى ساحلَ البحر لِيركبوا في السفن ، فرأى أنَّ الشُّقةَ بعيدة ، لا يصلون إليهم في السفن حتى يذهب أعداءُ الله ، فاقتحمَ البحرَ بفرسه وهو يقول : يا أرحمَ الراحمين ، يا حكيمُ يا كريمُ ، يا أحَدُ يا صَمَدُ ، يا حيُّ يا مُحيي ، يا قيُّومُ ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إلٰه إلا أنت يا ربّنا . وأمر الجيشَ أن يقولوا ذلك ويقتحموا ، ففعلوا ، فأجاز بهم الخليجَ - بإذن الله - يمشون على مِثْلِ رمْلٍ دَمِثَةٍ ، فوقها ماءٌ لا يَغمِرُ أخفافَ الإبل ، ولا يصل إلى رُكَبِ الخيل ، ومسيرته للسفن يومٌ وليلة ، فقطعه إلى الساحل الآخر ، فقاتَل عَدوَّه وقهرهم ، واحتاز غنائمهم ، ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر ، فعاد إلى موضعه الأول ، وذلك كلُّه في يومٍ ، ولم يتركْ من العدوِّ مخْبرًا ، واستاقَ الذراريَ والأنعامَ والأموال ، ولم يفقدِ المسلمون في البحر شيئًا ، سوى عليقةَ فرسٍ لرجلٍ من المسلمين ، ومع هذا رجعَ العلاءُ فجاءه بها ، ثم قسّم غنائمَ المسلمين فيهم ، فأصاب الفارسُ ألفَيْن ، والراجلُ ألفًا ، مع كثرة الجيش ، وكتب إلى الصِّدِّيق فأعلمَه بذلك ، فبعث الصديقُ يشكره على ما صنع ، وقد قال رجلٌ من المسلمين في مرورهم

في البحر - وهو عفيفُ بنُ المنذر - :

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ ذَلَّلَ بَحْـرَهُ وأنزلَ بالكفار إحدىٰ الجلائلِ
دَعَوْنَا إلى شَقِّ البحارِ فجاءَنا بأعجبَ من فَلْقِ البحارِ الأَوائلِ »

وذكَرَ العلّامةُ ابنُ كثيرٍ جلائلَ معجزاتِ الأنبياء ، فقال : « فمنها نجاةُ نوحٍ في السفينة بالمؤمنين ، ولا شكَّ أنَّ حمْل الماءِ للناس مِن غير سفينةٍ أعظمُ مِنَ السُّلوك عليه في السفينة ، وقد مشى كثيرٌ من الأولياء على مَتْنِ الماء ؛ وفي قصَّةِ العلاء - صاحبِ رسول الله ﷺ - ما يدلُّ على ذلك : روى منجابُ ، قال : غَزَوْنَا مع العلاء بن الحضرمي « دارين » ، فدعا بثلاثِ دَعَوات ، فاستُجِيبَتْ له ، فنزلنا منزلًا فطلب الماءَ فلم يجدْه ، فقام فصلَّى ركعتيْن وقال : اللهمَّ إنا عبيدُك ، وفي سبيلك نقاتل عدوَّك ، اللهمَّ اسقِنَا غَيْثًا نتوضأ به ونشرب ، ولا يكون لأحدٍ فيه نصيبٌ غيرنا . فسرنا قليلًا ، فإذا نحنُ بماءٍ حين أقلعتِ السماء عنه ، فتوضأنا منه وتزوَّدنا ، وملأتُ إداوتي وتركتها مكانها حتى أنظر : هل استُجيبَ له أم لا . فسرنا قليلًا ثم قلتُ لأصحابي : نسيتُ إداوتي . فرجعتُ إلى ذلك المكان ، فكأنه لم يصبْه ماءٌ قطُّ ، ثم سِرْنا حتى أتيْنا « دارين » ، والبحرُ بيننا وبينهم ، فقال : يا عليُّ يا حكيم ، إنا عبيدُك ، وفي سبيلك نقاتل عدوَّك ، اللهمَّ فاجعلْ لنا إليهم سبيلًا . فدخلنا البحرَ فلم يبلغ الماء لُبودَنا ، ومشيْنا على مَتْنِ الماء ولم يبتلَّ لنا شيءٌ ... وذكر بقيّةَ القصة . فهذا أبلغُ من ركوب السفينة ؛ فإنَّ حمْل الماء للسفينة معتادٌ ، وأبلغُ من فَلْق البحرِ لِمُوسىٰ ، فإن هناك انحسرَ الماءُ حتى مَشَوْا على الأرض ، فالمُعْجِزُ : انحسارُ الماء ، وهاهنا صار الماء جسَدًا يمشون عليه كالأرض ، وإنما هذا منسوبٌ إلى النبي ﷺ وبَرَكتهِ . انتهىٰ ما ذكره بحروفه فيما يتعلق بنوحٍ عليه السلام . وهذه القصة التي ساقها شيخنا ذكَرَها الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه

« الدلائل » ، مِن طريق أبي بكر بن أبي الدنيا ، عن أبي كُريبٍ ، عن محمد ابن فُضيل ، عن الصَّلت بن مَطر العَجَليّ ، عن عبد الملك ابن أخت سهمٍ ، عن سهم بن منجاب قال : غزونا مع العلاء بن الحضرمي ... فذكره . وقد ذكرها البخاري في التاريخ الكبير من وجهٍ آخر . ورواها البيهقي من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان مع العلاء وشاهد ذلك . وساقها البيهقي من طريق عيسى بن يونس عن عبد الله ، عن عَوْنٍ ، عن أنس بن مالك قال : أدركتُ في هذه الأُمَّة ثلاثًا ، لو كانت في بني إسرائيل لَمَا تقاسَمها الأمم . قلنا : ما هُنَّ يا أبا حمزة ؟ قال : كنا في الصفة عند رسول الله ﷺ ، فأتته امرأةٌ مهاجرةٌ ومعها ابنٌ لها قد بلغ ، فأضاف المرأة إلى النساء ، وأضافَ ابنها إلينا ، فلم يلبث أنْ أصابه وباءُ المدينة ، فمرِض أيّامًا ثم قُبِضَ ، فغمَّضه النبيُّ ﷺ ، وأمَر بجهازه ، فلما أردنا أن نُغسّله قال : « يا أنسُ ، ائت أمَّه ، فأعْلمها » . فأعلمتُها . قال : فجاءتْ حتى جلست عند قدميْه ، فأخذت بهما ثم قالت : اللهمَّ إني أسلمت لك طوْعًا ، وَخَلَعْتُ الأوثان ، فلا تُحمِّلني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحمله . قال : فوالله ما انقضىٰ كلامُها حتى حرَّك قدميْه ، وألقىٰ الثوبَ عن وجهه ، وعاش حتىٰ قبَضَ اللهُ رسولَه ﷺ ، وحتىٰ هَلَكَتْ أُمُّه . قال أنس : ثم جهَّز عمر بن الخطاب جيشًا ، واستعمل عليهم العلاءَ بن الحضرمي . قال أنس : وكنت في غَزاته ، فأتينا مغازينا ، فوجدنا القوم قد بدروا بنا فعفوا آثار الماء ، والحرُّ شديد ، فجَهَدنا العطشُ ودوابَّنا ، وذلك يوم الجمعة ، فلمّا مالتِ الشمس لغروبها صلى بنا ركعتيْن ، ثم مدَّ يده إلى السماء ، وما نرى في السماء شيئًا . قال : فواللهِ ما حطَّ يده حتى بعث الله ريحًا ، وأنشأ سحابًا وأفرغتْ ، حتى ملأتِ الغدر والشِّعاب ، فشربنا وسقينا ركابنا واستَقَيْنا . قال : ثم أتينا عدوَّنا وقد جاوَزَ خليجًا في البحر إلى جزيرة ،

فوقف على الخليج وقال : يا عليُّ يا عظيمُ ، يا حليمُ يا كريمُ . ثم قال : أجيزوا بسمِ الله . قال : فأجَزْنا ، ما يبلُّ الماءُ حوافِرَ دوابِّنا ، فلم نلبث إلا يسيرًا فأصبنا العدوَّ عليه ، فقتلْنا وأسرنا وسبيْنا ، ثم أتينا الخليجَ ، فقال مِثلَ مقالتِهِ ، فأجزنا ما يبلُّ الماء حوافر دوابنا . ثم ذَكَر موتَ العلاء ودَفْنَهم إيّاه في أرضٍ لا تقبل الموتى ، ثم إنهم حفروا عليه لينقلوه منها إلى غيرها ، فلم يجدوه ثَمَّ ، وإذا اللحدُ يتلألأ نورًا ، فأعادوا الترابَ عليه ثم ارتحلوا . فهذا السياق أتم »[1].

لله دَرُّكَ أيُّهَا القائد الوليّ ... مُجابَ الدعوةِ عالي الهمة ! لله دَرُّكَ يا علاء .. تحثُّ السيرَ لنجدة إخوانك ممّن ثبتوا على إسلامهم في « جواثا » ، أول قرية أقامت الجمعة مِن أهل الرِّدَّة .. القرية التي حاصرها المرتدُّون وضيَّقوا عليها ، حتى منعُوا المسلمين من الأقْوات وجاعُوا جُوعًا شديدًا ، وقال عبد الله بن حذف - وقد اشتدَّ به الجوع - :

ألا أبْلِغْ أبا بكـرٍ رسـولًا ... وَفِتْـيانَ المـدينة أجْمعينـا
فهـلْ لكم إلى قومٍ كِرامٍ ... قُعود في « جوَاثا » مُحصَرينا
كأنَّ دمـاءَهم في كلِّ فـجٍّ ... شعاعُ الشمس يغشى الناظرينا
توكَّلْنـا على الرحمـٰن إنَّا ... وَجَـدْنَا الصـبرَ للمتوكِّلِينـا

لله دَرُّكَ مِن قائدٍ وليٍّ ! يذلل الله له البحرَ كما ذلَّله لنوح النبيِّ .. ويُفاجِئ أهلَ الشرك السُّكَارىٰ ، ويُبيّتهم بتكبيره قبل سيفه ..

كم أشرقتْ في سماءِ المَجْدِ راياتُ ... ورُتِّلَتْ في رِحَابِ الخير آياتُ
وكان رَائِدنَا يحـدُو مسيرتنـا ... اللهُ غايتُنـا الرحمـٰنُ لا اللّاتُ
ودولةُ الحقِّ بالإسلام تحكُمُنا ... والـيومَ تحكُمُنـا ظلمًا دُوَيْلاتُ

---

(١) البداية والنهاية ٦ / ٢٦٤ - ٢٦٥ .

تقـودُ أمّتَنَـا للحـربِ غـانيةٌ ... والجيشُ في الزَّحْفِ قد ألْهَتْهُ مغْنَاةُ
وكمْ لَعُوبٍ تهاوَوْا عند أرجلها ... كما تهاوتْ على نارٍ فراشاتُ
الزِّقُّ والرِّقُّ والمِزْمَارُ عُدَّتُنـا ... والخَصـمُ عُـدَّتُه عِـلْمٌ وآلات
وَشِرْعَةُ اللهِ في القرآن نهجُرها ... وَشِرْعَةُ الخَصْمِ تلْمُودٌ وتوْراةُ
وَعُدَّةُ الخَصمِ صاروخٌ وطائرةٌ ... ونحـنُ عُدَّتُنَـا الكـبرىٰ قراراتُ
سفينةُ الناسِ ضلَّتْ لا شراعَ لها ... والشَّعْبُ حار وما للشعبِ مَنجاةُ
وَجِيلُنَـا ضـاعَ في تيهٍ يُمـزِّقُهُ ... وَدَرْبُـهُ ضَـلَّ قـد دَكَّتْهُ مأساة
الجهلُ والفقرُ والطغيانُ يَسْحَقُهُ ... والكأسُ والجنسُ مَسْلاةٌ وَمَلْهَاةُ
وباطـنُ الشعـب آلامٌ مُبرِّحـةٌ ... وظـاهرُ الشعـب أفراح وزينات
قد هدّهُ الجوعُ وانهارتْ عزائمُهُ ... وقـادةُ الشَّعْـبِ بالأكباد تقتاتُ
كم بدّدوا المال هَدْرًا في مباذِلِهِمْ ... وفي ليالي الخنَا ضاعتْ مُروءاتُ
في السلم كأسٌ وسيجارٌ وغانيةٌ ... وساحةُ الحربِ في الهَيْجَا إذاعاتُ
وقادةُ الشَّعْبِ أمواتٌ بِلا كَفَنٍ ... فَهَلْ يُحَرِّرُ أرضَ القدسِ أمواتُ
يا سوْأَةَ العمرِ في تاريخ أمّتِنا ... لقدْ بدَتْ منكمْ للعينِ سَوْءَاتُ
مَنْ يزرعِ اليومَ شرًّا فالحصادُ غدًا ... وَقُـدرةُ اللهِ للطغيانِ مِذْراةُ[1]

الصحابيُّ الزاهدُ : عتبةُ بنُ غَزْوان ، فاتحُ جنوبِ العراق والأهوازِ ، وأوّلُ مَن مَصَّرَ البصرة :

كان رضي الله عنه أحَدَ السابقين إلى الإسلام ، وكان مِن فرسان المهاجرين وفدائيِّيهم ، وقاتَلَ عتبةُ تحت لواء النبي في كل غزواته . ويذكر التاريخُ لعُتبة أثرَه الكبير في إعادة المرتدين من أهل « عُمان » و« مهرة » إلى

(١) من قصيدة « باسم الشعب .. ولا يدري » ، من ديوان : « في رحاب الأقصىٰ » ليوسف العظم .

الإسلام ، وقاتل رضي الله عنه تحت لواء سعدٍ في القادسية وفي المعارك الأُخرى ، حتى تمَّ للمسلمين فَتْحُ « المدائن » .

عندما أخذ سعدٌ يجهّز لاحتلال المدائن ، قدّر الخليفة عمرُ أنَّ الفُرْس سيستميتُون في الدفاع عنها ، فقرّر أنْ يعمل على تشتيت طاقاتهم ، ومَنْع وصول الإمدادات ، المتوقع أن يصلهم أكثر من « الأهواز » وناحية شرقي « شطِّ العرب » . فكلّف عمر سعدًا أن يبعث عتبة بن غزوان إلى المكان الذي أُنشِئَت عليه مدينة البصرة ، وكانوا يسمّونه « أرض الهند » ، وقال عمر عن عتبة : « فإنَّ له مِن الإسلام مكانًا ؛ فقد شَهِدَ بدرًا ، وقد رجوتُ جزءَه من المسلمين »[1] .

القـائدُ الفـاتِحُ :

« وحين وجّه عمرُ عُتبةَ إلى منطقة البصرة ، أوصاه : « يا عتبة ، إني قد استعملتُك على أرض الهند ، وهي حوْمَةٌ من حَوْمة العدوّ ، أرجو أنْ يكفيَك الله ما حولها ويُعينك عليها ، وقد كتبتُ إلى العلاء بن الحضرمي أن يمدَّك بعَرْفَجةَ بن هَرْثمة ، وهو ذو مجاهدةٍ ومكايدة للعدو ، فإذا قَدِمَ عليك فاستشرْه ، وادعُ إلى الله ، فَمَنْ أجابك : فاقبلْ منه ، وَمَنْ أبى : فالجزية ، وإلَّا : فالسيف »[2] ، وفوْر وصول عُتبة إلى المكان الذي حدّده عمر ، بَلَغَه تواجد قواتٍ للفرْس تبلغ أربعة آلاف مقاتلٍ ، ووصل صاحبَ الفرات خبرُ عُتبة ، وقال له جُنده : إنّ هاهنا قومًا معهم راية ، وهم يريدونك . فأقبَلَ في أربعة أساورٍ ، فقال : ما هم إلا ما أرى[3] ، اجعلوا

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ٦ .
(٢) الطبري ٣ / ٩٢ ، وابن الأثير ٢ / ١٨٨ ، والاستيعاب ٣ / ٢٧ - ١ .
(٣) وكان عددُ المسلمين ثمانمائة رجلٍ .

في أعناقهم الحبالَ وائْتوني بهم . هكذا بكل صَلَفٍ وغرورٍ ! فجعل عتبةُ يزجل ، وقال : إني شهدتُ الحربَ مع النبي ﷺ ، حتى إذا زالتِ الشمس قال : احملوا . فحملوا عليهم ، فقتلوهم أجمعين ، فلم يبقَ أحدٌ إلا صاحِبُ الفراتِ ، أخذوه أسيرًا .

هكذا الرجولةُ والفروسيةُ يا عتبة .

وقام الزاهدُ الناسك عتبةُ يخطب في جنده : « إنَّ الدنيا قد تصرّمتْ وولّت حذّاءَ ، ولم يبقَ منها إلا صبابةٌ كصبابةِ الإناء ، ألَا وإنكم منتقِلون منها إلى دار القرار ، فانتقلوا بخير ما بحضْرتكم ، وقد ذُكر لي : لو أنَّ صخرةً أُلقيتْ مِن شفير جهنمَ هوتْ سبعين خريفًا ، ولَتملأنَّه ، أوَ عجبتم ؟! ولقد ذكر لي أن ما بين مصراعيْنِ مِن مصاريعِ الجنة مسيرة أربعين عامًا ، وَلَيَأْتِيَنَّ عليه يومٌ كظيظ بزحام ، ولقد رأيتُني وأنا سابعُ سبعةٍ مع النبي ﷺ ، ما لنا طعامٌ إلا وَرَق السَّمر ، حتى تقرّحتْ أشداقُنا ، والتقطتُ بُرْدَةً فشققتُها بيني وبين سعدٍ ، فما منّا - من أولئك السبعة - مِن أحدٍ إلّا وهو أميرُ مِصرٍ ، وسيُجرِّبون الناس بعدنا » .

نعم ، حَفِظ عتبة وصِيَّة عمر له : « قد صحبتَ رسولَ الله ﷺ فعزَزْتَ به بعد الذّلة ، وقويتَ به بعد الضعف ، حتى صرتَ أميرًا مسلّطًا وَمَلِكًا مطاعًا ، تقول فيُسمع منك ، وتأمر فيطاعُ أمرُك ، فيا لها نعمةً ! إنْ لم ترفعْك فوق قدْرك ، وتبطِّرك على مَنْ دونك ، احتفظْ من النعمة احتفاظَك من المعصية ، وَلَهِيَ أخوفهما - عندي - عليك أن تستدرجك وتخدعك ، فتسقط سقطةً تصير بها إلى جهنم ، أعيذُك بالله ونفسي من ذلك ، إن الناس أسرعوا حين رُفعتْ لهم الدنيا فأرادوها ، فأرِدِ اللهَ ولا تُرِدِ الدنيا ، واتّقِ مَصَارِعَ الظالمين » . ولقد حفظ عُتبة وصية الخليفة ،

ووعاها ورعاها ، فَهَا هو يختطُّ البصرة ، ولكنه لم يختطَّ لنفسه فيمن اختطَّ من المهاجرين ، فمات رضي الله عنه وهو لا يملك دينارًا ولا دارًا .. ها هو فاتح « الأهواز » يستعفي عمرَ من منصبه ، فيأبَى عمر أن يعفيه .

قِتالٌ آخرُ مِقدارَ جَزْرِ جَزُورٍ :

« استمرَّ تصيُّد المتواجدين من الفرس عند مصبِّ دِجلة وحوْل شطِّ العرب ، حتى لا يدعموا الفرْس ويمدُّوا « المدائن » التي يريد سعد الانقضاضَ عليها . وَبَلَغَ أبا غزوان عتبة أنّ في « الأبلة » خمسمائة مقاتل من سادات الفرس وخيرة محاربيهم وزعمائهم ، وهم الذين يطلق عليهم : « أساورة » ، ففرض عليها عتبةُ الحصار شهرًا ، بعده خرج الأساورة وهاجموا المسلمين ، فناهضهم عتبةُ ، وجعل قطبةَ بن قتادة السدوسي وقسامة بن زهير المازني في عشرة فوارس ، قال لهما : كونا في ظهرنا ، فترُدّانِ المنهزم وتمنعانِ مَنْ أرادنا مِن ورائنا . ثمَّ اقتَتَلوا مقدارَ جزْرِ جزورٍ ، وقسمها ، حتى منحهم اللهُ أكتافهم ، وولَّوْا منهزمين حتى دخلوا المدينة ، ورجع عتبة إلى عسْكره »[1] .

كانت « الأبلة » أعظمَ مَسَالح الفرْس البحرية عند مصبِّ النهريْن ، بالإضافة إلى كونها المرفأ الوحيد لكلّ السفن الوافدة من الهند والصين ، وكلّ أقطار الشرق الأقصى ، وبعد أنْ عاد المنهزمون - من الأساورة - إلى مدينة « الأبلة » ، فرض عليها عتبةُ حصارًا شديدًا ، وانتاب حاميةَ « الأبلة » الرعبُ من العرب المحاصِرين لها ، فتسلّلوا منها هَرَبًا ، بعد أن حملوا معهم ما خفّ مِنَ الأموال ، فدخل المسلمون المدينة . ويروي الطبريُّ أن نافع بن الحارث قَتَل يوم « الأبلة » تسعةً مِنَ الفُرْس ، وَقَتَل أبو بكرةَ ستةً ، فعادتِ

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٥٩٤ .

« الأبلة » إلى المسلمين سنة أربع عشرة من الهجرة ، والمسلمون على أبواب « المدائن » .

وذكر المؤرّخون أنَّ جيش عتبة صار لا يعلمُ بقوةٍ حربيةٍ للفرْسِ في الجنوب ، إلَّا وقتلها وفرّق جمعها ؛ فَمِن ذلك أن عُتبة بلغَه أنَّ مرزبان - « دست ميسانَ » ، القريبةِ من الأبلة - لديه جموعٌ من المحاربين الفرْس ، فخشي أن يوجِّههم نحو « المدائن » ، فسارع إليه وهاجمه ، ثم قتله بعد أن دمّر جيشه .

هذا هو عُتبة الزاهد .. وهكذا فليكنِ القادة ... فما أبعدَ الفرْقَ بين أمسِ واليوم !!

اليومَ يقول الفارغون : « كنتُ لي ذنب سألت الله ألا يغفره » ... « الدنيا سيجارة وكأس » .

ويقول ناصرُهم - في رسالة لحسين ، التقطتها الإذاعة الإسرائيلية - : « دمّرنا ثلثي طائراتِ العدو .. طائراتنا فوق تلّ أبيب » ، التوقيع : « سلمي » ...

ويقول مذيعهم أحمد سعيد : « بشرىٰ يا عربُ ، الطائراتُ تتساقطُ كالذباب » . وطائراتُنا مدمرةٌ في المطارات !!

قالت بنت « ديّان » في كتابها « جندي مِن إسرائيل » - الذي طُبع بأكثر من لغة - : « كانت أبناء الجبهة الجنوبية - مصر - تملؤنا رُعبًا ... فلمّا أتانا الحاخام - ومعه نسخة مِنَ التوراة - استحال خوفنا أمنًا ، بينما كانت إذاعة العدو - تعني الإذاعة المصرية - تقول : قَاتِلْ مِن أجل الربيع ... من أجل الحياة ... قاتلْ وأم كلثوم معك في المعركة ... قاتلْ وعبد الحليم معك في المعركة ...!!

كان « لحنُ » الحياةِ فينا أذانًا ... يتغنَّى به الأباةُ الصِّيدُ
يملئون الوجودَ برًّا ونورًا ... حينَ يصحُو على الأذانِ الوجودُ
وإذا اللَّحنُ صيحةٌ مِن رقيعٍ ... وإذا الترسُ في المعامِعِ « عُودُ »
فَغَدَتْ أمتي معَ « اللَحن » سَكْرَىٰ ... يُرسِلُ « اللحنَ » فاجرٌ عربيدُ
كان أمسُ الأباة مَشْرِقَ مجدٍ ... وإذا اليومَ في حِمانا اليهودُ
سادَنا قادةُ الهزيمةِ زُورًا ... كيفَ نرضَىٰ وا ذلّتا أن يسودوا ؟!
ليسَ فيهمْ « قتيبةٌ » أو « صلاحٌ » ... أو « هشامٌ » وليسَ فيهم « رشيدُ »
هجروا المصحفَ الطهورَ وحارُوا ... و« ابنُ دايانَ » قادةُ التلمودُ
فأَذَلَّ العدوُّ مِنّا جباهًا ... وتلاشَىٰ مِن راحتيْنا الحديدُ
واستُبيحتْ ديارُنا لعدوٍّ ... وسلاحُ الحُكَّامِ فينا وُعودُ
مسخُوا الحقَّ والحقيقةَ لمّا ... صارَ صوتُ الإعلامِ فيهمْ « سعيدُ »[1]
يزرعُ البحرَ والهواءَ وُعودًا ... لا يبالي أن لا يكونَ حصيدُ
شِرْعَةُ الزورِ والضلال « مُذيعًا » ... أنَّ يومَ الهوانِ والذلِ عيدُ
ووجوهُ الطغاةِ بالشرِّ بيضٌ ... ووجوهُ الهداةِ بالحقِّ سُودُ
ذَلَّ مَن يزعمُ الهزيمةَ نصرًا ... تتهاوَىٰ مِن راحتيْهِ البنودُ[2]

عَاصِمُ بنُ عمرٍو التميميّ فاتِحُ « سجسْتانَ » ، وقائِدُ كتيبةِ الأهوال ، ومُسَمِّلُ الأفيال :

تُريقُ سُيوفُه مُهَجَ الأعادي ... وكلّ دمٍ أراقَتْهُ جُبَارُ[3]

قاتل عاصمٌ تحتَ لواءِ خالدٍ في حروب الردة ، وأبلَىٰ فيها بلاءً حسنًا ،

---

(١) إشارة إلى أحمد سعيد ومَدرسته الغوغائية .

(٢) « أمس واليوم » ليوسف العظم .

(٣) الجُبار : الذي لا يُطالب به .

ووجّهه خالد أمام قواته ، على رأس قوةٍ من المسلمين إلى العراق ، وقاتل رضي الله عنه بقيادةِ خالد في العراق ، وَقَتَل في معركة المذار « الأنوشجان » ، الساعِدَ الأيمن لقارن ، قائد قوات فارس . وفي معركة دَوْمة الجَنْدل بعثه خالد على رأس مفزرة من الفرسان لأسْر أكيدر بن عبد الملك ، أمير دومة الجندل ، فنجح عاصم في أسره ، وسلّمه إلى خالد ، فقتله جزاءَ غدْره بالمسلمين .

وقاتل عاصم تحت لواءِ أبي عبيد الثقفي وكان قائدًا لقوْمه بني تميم ، وبعد معركة كسكر وجّهه أبو عُبيد إلى نهر « جور » فهزم الفرس[1] .

وفي معركة الجسر حمىٰ المثنَّى وعاصم - مع أشجع أبطال المسلمين - الانسحاب ، حتى عقدوا جسرًا فعبر المسلمون عليه ، وعبر المثنَّى وعاصم وأصحابُهم في آثارهم ، وبذلك أنقذ المثنى وعاصم ورجالُهما أرواح الآلاف من المسلمين .

وتحت لواءِ المثنى ، وفي معركة « البويب » كان عاصم يقود المجرّدة[2] ، وهو واجب لا يُعهد به إلا لفارسٍ مقدام ، ولمّا انهزم الفرس ، كان عاصم أحد القادة الذين قاموا بالمطاردة ، فكان أول مَن دخل حصن الفرس في « ساباط » هُو عاصم[3] ، وكان لِتغلْغُله العميق في أرض الفرس أثرٌ بالغ على تحطيم معنويات الفرس ، ورفْع معنويات العرب .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٦٣٧ .
(٢) الطبري ٢ / ٦٤٥ .
(٣) الطبري ٢ / ٦٥٣ .

في القادسية :

أثناء المسير إلى القادسية كان عاصم قائدًا للساقة ، وكان المسلمون في أشدِّ الحاجة إلى الموادِّ الغذائية ، لذلك أرسل سعد عاصمًا إلى « مَيْسان » في غارةٍ غَنَم فيها بعض الماشية ، فأتى بها إلى سعد ، فقسّمها على الناس ، فأخصبوا أيامًا[1] .

وقُبيل معركة القادسية جرتْ مفاوضات بين رجالاتِ سعد وبين كسرى يزدجرد ، وفي نهاية المفاوضات غَضِبَ كسرىٰ على المفاوضين العرب ، فقال لرجاله : « ائتوني بِوِقْرٍ من ترابٍ ، واحملوه على أشرف هؤلاء » . فتقدم عاصم ليحمل على أصحابه التراب قائلًا : « أنا أشرفهم .. أنا سيّدُ هؤلاء » . ثم حمل التراب على عنقه ، وخرج إلى راحلته فركبها ، وأخذ التراب معه ، وقال لسعد : « أبشرْ ، فوالله لقد أعطانا الله أقاليدَ مُلْكِهم »[2] . وكانت نتيجة تلك المفاوضات نصرًا معنويًّا للمسلمين على الفرْس ؛ إذْ قال كسرى : « ما كنتُ أرى أنّ في العرب مثلَ رجال رأيتهم دخلوا عليّ !! ما أنتم بأعقلَ منهم ولا أحسنَ جوابًا منهم »[3] .

وعندما نشب القتال بين المسلمين والفرس في القادسية ، برزَ عاصمٌ في اليوم الأول من أيامها بروزًا جعله سيدَ الموقف بدون منازِع ؛ كان أحدَ ذوي الرأي والنجدة ، الذين أرسلهم سعد لتحريض الناس على القتال ، فقام عاصم في « المجردة » ورجالها أوَّلَ مَن يلاقي العدو ؛ وقال يخاطبهم : « إنَّ هذه البلاد قد أحلَّ الله لكم أهلَها ، وأنتم تنالون منهم منذُ ثلاث سنين ما

---

(١) الطبري ٣ / ١٤ .
(٢) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٧٦ .
(٣) تاريخ الطبري ٣ / ١٩ .

لا ينالون منكم ، وأنتم الأعـلَوْن ، والله معكم إن صبرتم ، وصدقتموه الضربَ والطعنَ »[١] . ووقف خطيبًا في آخرين ، وقال : « يا معاشر العرب ، إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العَجَم ، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحوطَ منكم على آخرتكم ، ولا تُحدثوا اليوم أمرًا تكونون فيه شيْنًا على العرب غدًا »[٢] .

وكان ممّا قال : « اللهَ اللهَ ... اذكروا الأيامَ وما منحكم اللهُ فيها ... أَوَلا ترون أن الأرض وراءَكم بسابسُ قِفار ، ليس فيها خمرٌ[٣] ولا وزرٌ يُعقل إليه ولا يمتنع به ؟! اجعلوا الآخرة همَّكم » . وخرج عاصم أمامَ مواقع بني تميم وهو يقول :

قد عَلِمَتْ بيضاءُ صفراءُ اللَّببْ ... مِثْلُ اللُّجَيْنِ إذْ تغشَّاهُ الذَّهَبْ
أني امـرؤٌ لا مَـنْ يُعينُـه السَّبَبْ ... مِثْلي على مِثْلِكِ يُغريهِ العَتَبْ[٤]

فطارد رجلًا من العجم فهرب منه ، وتبعه عاصم حتى خالط صفَّهم ، فالتقى بفارسٍ معه بغلٌ ، فترك الفارسُ البغلَ ، واعتصم بأصحابه فاحتمى بهم ، واستاقَ عاصم البغل والرحْلَ ، وكشَفَ عن الغنيمة ، فإذا ذلك الرجل كان طبّاخَ رستم ، وإذا ذلك الذي كان معه : طعامُه من الأخبصة والعسل المعقود ، فتغدّى عاصم وَمَنْ معه - يومها - بغداء رستم . وزحف المسلمون ، فحملتِ الفِيَلة على الميمنة والميسرة ، وأحجمتْ خيول المسلمين ،

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٤٤ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٤٦ .
(٣) غِطاء .
(٤) بيضاء : يقصد بها فرسه ، ومعنى البيت : ثقتُه بنفسه أنه يدخل بدون وسيلةٍ للقتال ، كلّما عتبوا عليّ في شدتي عليك يُغريني ذلك بكِ .

وبقي المشاة يقاتلون وحدهم ... في ذلك الموقف العصيب أرسل سعد إلى عاصم ، وقال له : يا معشرَ بني تميم ، ألستم أصحاب الخيل والإبل ؟! أما عندكم لهذه الفيلة مِن حيلة ؟! فقال عاصم : بلى والله . ثم نادى عاصم في قومه ، فجمَعَ أفضل مَن في بني تميم من الرماة ، وآخرينَ لهم خفّة ومهارة في القتال ، ووضع خطته على أساس مُشاغَلة ركبانِ الفيلة ، ثم مهاجمتها من الخلف في غفلة منهم . قال لهم : « يا معشر الرماة ، ذُبُّوا ركبانَ الفيلةِ عنهم بالنبل » . وقال : « يا معشرَ أهل الثقافة ، استدبروا الفيلة فقطِّعوا وُضُنَهَا »[(١)] . وخرج معهم يحميهم ويقودهم ، فَشَقُّوا طريقهم نحو الأفيال التي تهاجم بني أسَد ، وأقبل رجاله على الفيلة ، فأخذوا بأذنابها وقطّعُوا وضنَهَا ، فارتفع عُـواؤها ، وألقـتْ بركبانها ، وكان كلما سقط صندوقٌ بمن فيه ، هجم عليهم المسلمون فقتلوهم ، فنفسَ عن بني أسد وبجيلة ، وَرَدّتْ تميم هجوم العجم إلى مواقفهم الأولى ، وكان عاصم بن عمرو في ذلك اليوم - بحقٍّ - عادية الناس وحاميهم[(٢)] .

وفي اليوم الثالث من أيام القادسية - لما أعادت فيَلة الفرس هجومها الكاسح ، يقودها الفيل الأبيض - حمل عاصم والقعقاع ، فوضعا رمحيْهما معًا في عيني الفيل الأبيض ، فتراجع الحيوان وطرحَ سائسه ودلّى مِشْفَره ، فضربه القعقاع بالسيف فرمى بمشفره ، ووقع الفيل لجنبه ، فقتلا مَن معه مِن الفرْس[(٣)] .

فللّهِ دَرُّ عاصم مُسمل عينِ الفيل !! أيّ شجاعةٍ تفوق هذه الشجاعة ؟!

---

(١) الأحزمة .

(٢) الطبري ٣ / ٥٠ .

(٣) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٨٥ .

ولما هربتِ الفيلة أخذ أبطال المسلمين يضيِّقون الخناق على الفرس ، وكان أبرز هؤلاء الأبطال : عاصم . وفي ليلة « الهرير » : هزم عاصمٌ قائد الفرس الذي كان بإزائه ، وسحَق قواته[١] .

ولله دَرُّ مَن قال عن عاصم : كانت له في القادسية مقاماتٌ محمودة وبلاء حسن[٢] .

في فتح المدائن :

لما قرَّر سعد أن يعبر النهر بقواته على ظهور الخيل سباحةً ، كان لا بُدَّ له من قوةٍ كافية تعبر النهر أولًا ، لاحتلال رأس جِسْرٍ في الجانب الثاني من النهر ، وبذلك تحمي عبور قوات القسْم الأكبر من قوات المسلمين ، فقال سعد : « مَنْ يبدأ ويحمي لنا « الفِراضَ »[٣] ، حتى نلاحق به الناس ، لكي لا يمنعوهم من الخروج ؟ » . فتطوّع عاصم ، وتطوَّع معه ستمائةٌ من أهل النجدة ، فأمّر سعد عاصمًا عليهم ، فساروا ، حتى إذا بلغوا شاطئَ دجلة ، قال عاصم لأصحابه : « مَنْ ينتدب معي لنكون قبل الناس دخولًا في هذا البحر ، فنحمي الفراض من الجانب الآخر ؟ » فانتدب له ستون فارسًا ، وهم الذين أُطلق عليهم اسم « كتيبة الأهوال » ، فجعلهم نصفَيْن على خيولٍ إناثٍ وذكورٍ ليكون أساس العوْمِ على الخيل ، ثم تقدّمهم هو إلى حافّة النهر ، وهو يقول للذين تردّدوا : « أتخافون مِن هذه النطفة ؟! » ، ثم تلا قوله تعالىٰ : ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تموتَ إِلَّا بإذنِ اللهِ كتابًا مؤجَّلًا** ﴾ [آل عمران : ١٤٥] ، ثم دفع فرسه واقتحم النهر ، واقتحم زملاؤه معه ، فلما

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٦٦ .

(٢) الإصابة ٤ / ٦ ، والاستيعاب ٢ / ٧٨٤ .

(٣) الفراض : جمع فرضة ، وهي موضع في الجهة المقابلة مِن النهر .

رآهم الفرس بعثوا فرسانهم ، فاقتحموا النهر أيضًا ، فلقُوا عاصمًا ورجاله في وسط النهر ، فقال عاصم : « الرماحَ الرماح ، اشرعُوها وتوخوا العيون » فالتقوا ، فاطَّعنوا . فولّى الفرْسُ . وَلَحِقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم ، ومَن نجا منهم صار أعورَ من الطعن[1] .

لله دَرُّكَ يا عاصم .. هنا يقف التاريخ ، وبأحْرُفٍ من نور يسجّل لعاصم معجزة عسكرية ، يقف العقل والقلب معًا أمامها وقفةَ إكْبار وإعجاب .

هِمَمٌ بلّغَتْكُـــمُ رُتَبَـــاتٍ قَصُرَتْ عن بُلُوغِهَا الأوْهَامُ
ونفــوسٌ إذا انبرتْ لقتــالٍ نَفِدَتْ قبل أن ينفدَ الإقدامُ
وقلوبٌ مُوَطَّناتٌ على الرَّوْ عِ كأنَّ اقتحامَهَا استسلامُ
طال غِشيانُك الكريهةَ حتى قال فيك الذي أقول الحسامُ
فارسٌ يشتري بِرازَك للْـ ـفخرِ بقتلٍ مُعجَّلٍ لا يُلامُ

لله دَرُّكَ يا عاصم ، بطولة نادرة ، مِقدامٌ لا يَهمُّك أوقعْتَ على الموتِ أمْ وقعَ الموتُ عليك .

فتًى لا يضمُّ القلبُ همَّات قلبِهِ ولو ضمّها قلبٌ لمَا ضمَّه صَدْرُ

لله دَركَ يا عاصم من فارس قومه .. أعلم الناس بالخيلِ .. كأنك والقعقاع وقومك وُلدتم على صهواتها .. عَرَفُوا الخيلَ وعَرَفتْهم .

الثابتــينِ فروســةً كجُلودهــا في ظهرها والطعنُ في لَبّاتِهَا
العارفــين بِهَـا كمـا عَــرَفَتْهُمُ والرّاكبــين جــدودهم أُمّاتهـا
فكأنهـا نُتِجَــتْ قيامًا تَحْتَـهُمْ وكأنهمْ وُلِدُوا على صَهَواتها
إن الكــرامَ بلا كــرامٍ مِنْهُمُ مثلُ القلوبِ بـلا سُوَيْدَاوَاتِها

---

(١) الطبري ٣ / ١٢٠ ، وابن الأثير ٢ / ١٩٨ .

تلكَ النفوسُ الغالباتُ على العُلىٰ ... والمجدُ يغلبها على شَهَوَاتها

للهِ دَرُّكَ يا عاصم ! لَكأنك تصيح بدنيء الهمة مِنْ أمثال من يشتكي منهم عصرُنا .

ولا تحسبَنَّ المجدَ زِقًّا وقَيْنة ... فما المجدُ إلا السيفُ والفتكةُ البِكرُ
وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأنْ تُرَىٰ ... لكَ الهَبَوات السّودُ والعسكَرُ المَجْرُ(١)
وَتَرْكُكَ في الدنيا دَوِيًّا كأنَّما ... تَداولَ سَمْعَ المرءِ أنمُلُهُ العَشْرُ
وكمْ مِن جبالٍ جُبْتُ تشهدُ أنني الْـ ... ـجبالُ وبحرٍ شاهدٍ أنني البحرُ

للهِ دَرُّكَ يا عاصمٍ ! كم كان عميقًا إيمانُك بالقضاء والقدَر وَسِرِّ اللهِ فيه !

في « البصرة » و« فارس » :

سار عاصم في جيشِ عتبة بن غزوان الذي بعث به عتبة ، لإنقاذ جيش العلاء بن الحضرمي ، وَشَهِدَ عاصم كافَّة معارك عتبة بن غزوان في جنوبيّ العراق .

عاصم الفاتح :

بعد فتْح « نهاوند » ، عقد عمر – بنفسه – سبعة ألْوية لسبعةِ قادة ، عَهِدَ إليهم بالانسياح في أرض فارس كلها ، وكان من بين هذه الألوية السبعة لواءُ « سجستان » ، دفعه إلى عاصم ، وأمّره على رأس قوةٍ من أهل البصرة ، وأمدّه برجال من الكوفة ، منهم عبد الله بن عمير ؛ فعسكر عاصم قريبًا من البصرة ، ثم تحرّك إلى « سجستان » ، وهي أعظم من خراسان وأبعد فروجًا ، يقاتل أهلُها « القندهار » وأُممًا ....

---

(١) الهَبَوات : الغَبَرات . المَجْر : الكثير .

كثيرة[١] ، وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة ، كلّ ذلك يدلّ على أهمية واجب عاصم ، وأن اختياره لهذا الواجب الخطير كان دليلًا على الثقة البالغة بقيادته . والتقى عاصم بحُماةِ « سجستان » على تُخُوم بلادهم ، فلم يثبتُوا للمسلمين ، بل انسحبوا إلى « زَرنج » عاصمةِ ولاية « سجستان » ، فحاصرهم المسلمون فيها ، وبثُّوا كتائبهم تتغلغل في المنطقة بأسْرها ، ولمّا أيقن المحاصَرون أن طول الحصار لا يُجدِيهم نفعًا ، طلبوا الصُّلح ، على أن تكون مزارع « سجستان » حمًى لا يطؤُها المسلمون[٢] ، وبذلك فُتحت ولايةُ « سجستان » .

لله دَرُّكَ يا عاصم !!

ولا تزال منائر « سجستان » رافعةً رؤوسها شامخةً ، تذكر فاتحها عاصمًا التميمي الصحابي الجليل رضي الله عنه .

الأَحنفُ بن قَيْسٍ التميمي فاتحُ « قاشان » و« خراسان » ، أبو بحر ، سيِّدُ أهل المشرق ، المسمَّى بغيْر اسمِهِ :

سيِّدٌ من سادات التابعين ، لمّا وفد على عمر بن الخطاب احتبسه عنده حَوْلًا كاملًا ، ثم قال له : « هل تدري لِمَ حبستُك ؟ إنّ رسول الله ﷺ خوّفنا كلَّ منافقٍ عليم ، ولستَ منهم إن شاء الله » . وقال له : « يا أحنف ، قد بلوتُك وخبّرتك ، فلم أرَ إلّا خيرًا ، ورأيتُ علانيتك حسنة ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مِثْلَ علانيتك » ..

كان الأحنف سيدَ قومه ؛ قال فيه معاوية : « هذا الذي إذا غَضِبَ

---

(١) تاريخ الطبري ٣ / ٢٥٦ .
(٢) تاريخ الطبري ٣ / ٢٥٦ ، وابن الأثير ٣ / ٧ .

غَضِبَ لغضبه مائةُ ألفٍ من بني تميمٍ ، لا يدرون فيمَ غَضِبَ »[١].

قال فيه الشاعر :

إذَا الأبصارُ أبصَرَتِ ابنَ قيسٍ ظَلَلْنَ مهابةً منْهُ خُشُوعا

ضُرِبَ بحلمه المثلُ ، وكان رحمه الله من دهاةِ العرب ، وكان رحمه الله عاليَ الهمّة ؛ فقد سمع الأحنفُ رجلًا يقول : ما أبالي أمُدحتُ أمْ ذُمِمْتُ ، فقال له : « لقد استرحتَ مِن حيثُ تَعِبَ الكرامُ »[٢]..

لله دَرُّكَ من سيدٍ ينطق بالحكمة !

أشار الأحنفُ على عُمر ، ورغّب إليه الانسياح في بلاد فارسٍ ، فقال الأحنف : « يا أمير المؤمنين ، إنك نهيْتَنَا عن الانسياح في البلاد ، وإنّ مَلِكَ فارس بين أظهرهم ، ولا يزالون يقاتلون ما دام مَلِكُهم فيهم ، ولم يجتمع مَلِكانِ مُتَّفقان حتى يُخرج أحدُهما صاحبَه ، وقد رأيتُ أنَّا لم نُؤْخذ شيئًا بعد شيءٍ إلا بانبعاثهم وغدرهم ، وإنّ ملكهم هو الذي يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح ، فنسيح في بلادهم ونُزيل ملكهم ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس » . فقال عمر : « صدقتني والله » . وَأَذِن في الانسياح في بلاد فارس[٣].

الفـاتِح :

عَرَفَ عُمرُ الأحنفَ معرفةً شخصيةً ، فرأى منه عقلًا ودينًا ، كما برز مجاهدًا في الحروب ، فدفع إليه لواءَ « خراسان » حين أذِنَ في الانسياح في

---

(١) وفيات الأعيان ٢ / ١٨٦ - ١٨٧ ، وشذرات الذهب ١ / ٢٨ .

(٢) وفيات الأعيان (٢ / ١٨٨) .

(٣) الطبري ٣ / ١٨٤ - ١٨٥ ، وابن الأثير ٢ / ٢١٣ .

بلاد فارس سنة سبع عشرة من الهجرة ، وقبل أن يتوجّه إلى خراسان شهد مع أبي موسى فتْح « قم » ، ووجّهه أبو موسى إلى « قاشان » ، ففتحها عَنوةً ، ثم لَحِق بأبي موسى الأشعري . وسار إلى خراسان ، وكان « يزدجرد » قد قصد خراسان ، فأتى « مرو » فنزلها وبنى بيتًا للنار ، فدانَ له مَن فيها من الفرس ، فكاتَب الهرمزانَ ، وأثار أهل فارس والجبال ، فسار الأحنف حتى دخل خراسانَ من « الطَبسَين » ، فافتتح « هراة » عَنوة ، وسار نحو « مرو الشاهجان » ، فكتب « يزدجرد » - وهو في « مرْو الرّوذ » - إلى خاقان ملك الترك ، وإلى ملك « الصغد » ، وإلى ملك الصين ، يستمدهم . وخرج الأحنف من مرو الشاهجان ، بعد أن وصلته إمداداتُ أهل الكوفة ، فسار نحو « مرو الروذ » ، فلما سَمِعَ « يزدجرد » سار عنها إلى « بلخ » ، وَقَدِمَ أهل الكوفة إلى « بلخ » وأتبعهم الأحنف ، فالتقى أهل الكوفة بيزدجرد في « بلخ » فهزموه ، فما لَحِقَ الأحنف بأهل الكوفة إلا وقد فَتَحَ الله عليهم . وتتابع أهل « خراسان » - ممن شذّ أو تحصّن - على الصلح ، فيما بين « نيسابور » إلى « طخارستان » ، ممن كان في مملكة كسرى ، وكتب الأحنفُ إلى عمر بن الخطاب بفتح خراسان ، فقال عمر عن الأحنف : « هو سيد أهل المشرق ، المسمّى بغير اسمه » . وخشي عمر أن يتقدم الأحنف بجنوده إلى ما وراء خراسان من أرض المشرق ، فكتب إلى الأحنف : « أما بعد ، فلا تَجُوزَنَّ النهر ، واقتصرْ على ما دونه ، وقد عرفتم بأي شيءٍ دخلتم على خراسان ، فداوموا على الذي دخلتم به يدمْ لكم النصر ، وإياكم أن تعبروا فتنفضّوا » . وقد كان عمرُ رضي الله عنه حصيفَ الرأي ، بعيدَ النظر ، فقد سار خاقان الترك في جنده ، ويزدجرد معه ، فعبروا النهر إلى « بلخ » ، واضطر جند الكوفة أنْ يتراجعوا منها إلى « مرْو الرّوذ » ، ومِن « بلخ » تقدمتْ قوات « خاقان » وحلفائه باتجاه الأحنف في « مرو الروذ » ، وكان الأحنف قد خرج بقواته ليلًا من المدينة

وعسكر خارجها ، وفي الصباح جمع الناسَ وقال لهم : « إنكم قليل ، وإن عدوَّكم كثير ، فلا يَهُولَنَّكم ؛ فكم من فِئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله ، والله مع الصابرين . ارتحِلُوا من مكانكم هذا ، فاسندوا إلى هذا الجبل ، فاجعلوه في ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوِّكم ، وقاتِلوهم مِن وجهٍ واحد » .

وهذه الفكرة أخذها الأحنف من فَمِ جنوده ليلًا وهو يتسمَّع ، فعمل بها ، فللَّه دَرُّه من قائدٍ ! وكانت قوة الأحنف تُقدَّر بعشرين ألفًا : عشرة آلافٍ من الكوفة ، وعشرة آلافٍ من البصرة . وأقبل الترك ، فكانوا يُناوِشون المسلمين نهارًا ويتنحَّوْن عنهم ليلًا ، فخرج الأحنف بنفسه - ليلةً - طليعةً لأصحابه حتى كان قريبًا من معسكر « خاقان » الترك ، فلمّا تنفّس الصبحُ ، خرج فارسٌ من الترك بطوْقه ، وضرب بطبله ، فَحَمَلَ عليه الأحنف ، فاختلفا ضربَتَيْن ، فطعنه الأحنف وهو يقول :

إنَّ علـى كلِّ رئيـسٍ حقّـا ... أنْ يَخضُبَ الصَّعْدَةَ أوْ تَنْدقّا[1]

إنّ لنـا شيخًـا بهـا مُلَقَّـى ... سيفُ أبي حفصٍ الذي تبقَّى

وخرج فارسٌ تركِّي ثانٍ ، فأورده الأحنف حَتْفَهُ بطعنة نجلاءَ ، وهوَ يرتجزُ :

إنّ الرئيـسَ يَرْتـبي ويَطْلـعُ ... ويمنَـعُ الخـلّاء إمَّـا أربعُوا[2]

---

(١) الصعدة : الرمح ، والمعنى : واجب كل أمير أن يقاتل حتى يُدمي رمحه أو يتحطمَ من شدَّة القتال .

(٢) يرتبي : يصعد الرابية . الخلّاء : جمع خليّ ، وتميم تقول : خلّا فلان على اللبن واللحم ، إذا لم يأكل معه شيئًا ولا خلط به . رَبَعَ المكانَ : أقام ، يريد : أن واجب الرئيس أن يتحمل عِبْءَ الدفاع عن رجاله وحمايتهم .

وخرج فارس تركيٌّ ثالث ، فأورده الأحنف مَوْرد صاحبيْه وهو يرتجز :

جرى الشَّمُوسُ ناجِزًا بِنَاجِزْ مُتحفلًا في جرْيِهِ مُشارِزْ[1]

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره ، وأعدّ رجاله للقتال ، ولكنّ الترك آثروا العودة إلى ديارهم ؛ لأنّ مقامهم لا جَدْوَىٰ فيه ، ولأنّهم تكبّدُوا خسائرَ فادحةً بالأرواح ، وعَبَر « يزدجرد » معهم إلى بلاد الترك ، وثار عليه الفُرْس لما أراد أنْ يمضي بخزائن فارس إلى أرض الترك ، وفرّ « يزدجرد » إلى « فرغانة » عاصمة الترك ، وأقبل أهل فارس على الأحنف ، فصالحوه وعاهَدوه ، ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، فسار الأحنف بجنْد الكوفة من « مرو الروذ » إلى « بلخ » ، فأنزلهم بها ، ثم عاد إلى مَقرِّ قيادته في « مرو الروذ » ، وكتب الأحنفُ إلى عمر بالفتح ، فجمع عُمرُ الناسَ وخطبهم ، وقرأ عليهم كتاب الفتح ، وقال في خطبته : « ألَا إنّ الله قد أهلك مُلك المجوسية ، وفرّق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبرًا يضرُّ بمسلم ، ألَا وإنّ الله قد أورثكم أرضَهم وديارهم ، وأموالهم وأبناءَهم لينظر كيف تعملون ، واللهُ بالغٌ أمرَه ، ومنجزٌ وَعْدَه ومُتْبِعٌ آخِرَ ذلك أوَّلَه ... » . وكان فتْح الأحنف لخراسان النذيرَ الصادق لانتهاءِ دولة الأكاسرة مِن بني « ساسان » ، ونشْر راياتِ الإسلام في تلك البلاد .

استِعادة فتح خراسان :

ولمّا نكث أهلُ فارس العهد بعد عمر ، استعادَ عبد الله بن عامر فتح بعض أرض فارس ، في أيام عثمان بن عفان ، وغزا خراسان وعلى مقدمته

---

(١) الشموس : الفرس التي تمنع ظهرها ، مشارز : الشدة والقوة . يعني أنه يزجُّ نفسَه في الحرب بقوة واندفاع كما تندفع الشموس ، لا تلوي على شيءٍ في جريها الشديد .

الأحنف ، فأتى « الطبسَين » ، وهما حِصْنا وبابا « خراسان » ، فصالحه أهلها ، فسار إلى « قهستان » فلقيه أهلها ، وقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم ، فَقَدِمَ عليها عبدُ الله بن عامر وصالَحَ أهلَها . ووجّه ابن عامر الأحنف إلى « طخارستان » ، فأتى إلى حصن « مرو الروذ » ، وله رستاقٌ[1] عظيم يُعرف برستاق الأحنف ، فحصر الأحنف أهله ، فصالحوه على ثلاثمائة ألفِ درهم . ومضىٰ الأحنف إلى « مرو الروذ » ، فصالَحَ أهلها بعد قتالٍ شديد ، وسيّر الأحنف سريةً ، فاستولت على رستاق « بغ » ، وصالَحت أهله . وجمع له أهل « طخارستان » ، فاجتمع أهل « الجوزجان » و« الطالقان » و« الفارياب » ، ومَن حولهم ، فبلغوا ثلاثين ألفًا ، وجاءهم أهل « الصغانيان » ، وهم من الجانب الشرقي من نهر « جيحون » ، فالتقوا ، وقاتل قتالًا شديدًا ، فانهزمَ الفرس وحلفاؤهم ، فطاردهم المسلمون ، وألحقوا بهم خسائرَ فادحةً بالأرواح[2] .

وسيّر الأقرعَ بن حابس إلى « الجوزجان » فهزَم عدوّه ، وفتحوا الجوزجان عَنوةً ، واستعاد الأحنف فتْح « الطالقان » صلحًا ، وفتح « الفارياب » ، ثم سار إلى « بلخ » فصالحه أهلُها . وهكذا استعاد الأحنف فتْح خراسان مرةً ثانيةً .

رضي الله عن الأحنف ؛ فقد كان إمامًا في الحِلم ، إمامًا في الدهاء ، إمامًا في رَجَاحة عقلِهِ ، إمامًا في وَرَعه ، إمامًا في عبقرية قيادته .. لقد كان رجلًا في أُمَّة ، وأُمَّة في رجل .. إنه سيدُ أهل المشرق ، المسمَّىٰ بغير اسمه ، كما يقول الفاروق رضي الله عنه .

---

(١) مجموعة القرىٰ .

(٢) الطبري ٣ / ٢٥٦ ، والبلاذري ٣٩٧ .

عبدُ الله بنُ سعْد بنِ أبي سَرْحٍ ، الصحابيُّ ، فاتحُ إفريقيَّة (تونس) :

كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح قائدًا لميمنة عَمرو ، منذ توجّه من « قيسارية » إلى أن فرغ من حروبه في مصر ، وكان عَمرو يبعثه إلى أطراف إفريقية غازيًا ، ويمدُّه بالجنود ، فيعود من غزواته ظافرًا غانمًا .

وولّاه عمر بن الخطاب صعيدَ مصر بعد فتْحها ، ولمَّا تولَّى عثمانُ رضي الله عنه الخلافة ، عزلَ عَمْرًا وولّى عبد الله مكانَه على مصر والصعيد .

فتحُ إفريقية :

يذكر التاريخ لعبدِ الله بن سعد فتْحه لإفريقية ؛ فلقد سار إليها في جيش تعداده عشرون ألفًا ، سنة ستٍ وعشرين هجرية ، والتقىٰ مع جيش « جرجير » - البالغ عددُه مائة ألفٍ وعشرون ألفًا - بـ « عقوبة » ، ونشبتْ معركة حامية بين الطرفين .. ذكرنا خبرها في ترجمة عبد الله بن الزبير ، وقتل فيها ابنُ الزبير « جرجيرَ » وأخذ ابنته سَبيَّةً .

فللَّه درُّ جيش العبادلة : ابن عباس ، وابن الزبير ، وابن عمرو ، وابن عمر ، وابن جعفر .

وحاصر ابن سعد « سُبَيْطلة » ، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلافِ دينارٍ ، وسهْمُ الراجل ألف دينار ، وبعث عبد الله جيوشه في البلاد ، فبَلغت « قفصة » ، فسبُوا وغنِموا ، كما سيّر جيشًا إلى حصن « الأجم » ، وقد احتمىٰ به أهل تلك البلاد ، فحصروه ، وفتحه بالأمان ، فصالحه أهل إفريقية على ألفي ألفٍ وخمسمائةِ ألفِ دينار ، وهذا ما يساوي ثلاثمائة قنطارٍ من ذهب ، وأرسل عبدُ الله بن الزبير إلى عثمانَ بالبشارة بفتح إفريقية .

فرضي الله عن عبد الله بن سعد فاتح إفريقية سَهْلِهَا ....

وجَبلِها[١] ؛ فلقد فتح الله على يديْه فتحًا عظيمًا[٢] ، وأذلَّت تلك الواقعةُ الرُّومَ بإفريقية ، وأصابهم رعبٌ شديد[٣]. وكان فتحه لها فتحًا مستدامًا .

فأين الرجال ؟! تولَّوْا ، وبقي « زَيْنُ العابدين » ، واسمه منه بريءٌ .

ألقابُ مملكةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كالهِرِّ يَحكي انْتفاخًا صَوْلَةَ الأسدِ

إي والله ... هذا اسمُهُ ؛ « زين العابدين » :

واستبدَّ البُغاثُ في ذِروة النَّسْرِ ... وقادَ الأُسودَ سِربُ النعامِ
في الجبالِ الشَّمَّاءِ مِن أرضِ تونس ... في البوادي مِن مَوْطني المترامي
عربداتٌ مِن الطِّلَى ورؤوس ... غارقاتٌ في سَكْرة الأحلامِ
وضلالٌ عنِ الهدَى وضياعٌ ... وانحرافٌ عن دَرْبهِ المتسامي
نامَ فيكَ الرعاةُ حتَّى استكانُوا ... فهنيئًا لِعُصْبَةِ النُّوَّامِ
وأقامُوا علَى الفجورِ وذُلُّوا ... يا لقومي مِن ضَيْعَةِ الحُكَّامِ
أُمَّةُ الذُّلِّ في ظلامِ الليالي ... ترشُفُ العارَ مِن كئوسِ مدامِ
قسّموها قطعانَ ذلٍّ مَهينٍ ... وَرَمَوْا جَمعَها بِشَرِّ سِهَامِ
فقطيعٌ « ميترانَ » يحمي حِمَاهُ ... وقطيعٌ يعتزّ بالعمِّ سامِ
وقطيعٌ باتَ الرغيفُ هَواهُ ... شاردُ اللُّبِّ حائِرُ الأفهامِ
ليسَ يدري مِنْ أمرِهِ غيرَ دُنيا ... مُلِئَتْ بالغِنَاءِ والآثامِ
أمة الفسقِ والمهانةِ قومي ... وعلى الذلِّ والمهانةِ نامي

* * *

(١) النجوم الزاهرة ١ / ٧٩ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١ / ٢٧٠ .

(٣) البيان المُغرب ١/٨ .

غَـزْوُه للنُّـوبة :

غزا عبد الله النوبة سنةَ إحدى وثلاثين هجرية ، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالًا شديدًا ، فأصيبتْ عيونُ كثيرٍ من المسلمين ؛ قال الشاعر :

لَمْ تَرَ عيني مثلَ يومِ « دُنْقُلَهْ »[1] والخيـلُ تعـدُو بالدُّروعِ مُثْقَلَهْ

وسـأل أهـل النوبة عبد الله بن سعد الهدنة ، فصالحهم على رقيقٍ يُؤدُّونه ، وبعد دخول جيش المسلمين « دنقلة » و« مقرة » ، بنَى على باب مدينة ملِكهم مسجدًا ، وشرط عليهم حفْظه أبدًا ، ثم أسلمتْ النوبة والبجّة كلهم .

في قُبْرُص :

كان لعبد الله فضْل كبيرٌ في فتحها مع فاتحها معاوية بن أبي سفيان ، سنةَ ثمانٍ وعشرين .

في غزوةِ ذاتِ الصَّوَارِي :

في سنة أربع وثلاثين هجريةً : غزا عبد الله غزوةَ : « ذات الصواري » في البحر ، من ناحية الإسكندرية ، فلقيَه قسطنطين بن هِرَقل في جمْع لم تجمعِ الرومُ مثلَه مُذْ كان الإسلام ، فخرجوا في خمسمائةِ مركبٍ أو ستمائة ، والمسلمون في مائتي مركبٍ ، وكان في كلّ مركبٍ نصفُ شحنته ، إذْ قد خرج النصف الآخر إلى البر للقتال في منطقة أُخرىٰ ، وَقَدِمَ أهل الشام وعليهم معاويةُ بن أبي سفيان ، وعلى البحر عبد الله بن سعد ، وكانت الريح على المسلمين لمّا شاهدوا الروم ؛ فأرسى المسلمون والروم وَسَكَنَتِ الريحُ ، فقال المسلمون : الأمان بيننا وبينكم . فباتوا ليلتهم ، والمسلمون يقرءون

---

(١) مدينة كبيرة في بلاد النوبة .

القرآن ويصلّون ، وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا ، فقرّبُوا سفنهم ، وقرّب المسلمون سفنهم ، فربطوا بعضها إلى بعض ، وصفّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن ، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصَّبر ، واقتتل الطرفانِ بالسيوف والخناجر ، فَقُتِلَ مِن الروم بَشَرٌ كثير ، وقُتِلَ من الروم ما لا يُحصىٰ ؛ وصبر المسلمون يومئذٍ صبْرًا لمْ يصبروا مثلَه في مَوْطن قطُّ ، فجُرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة ، فانهزموا ولم يَنْجُ منهم إلا الشَّرِيدُ . وفي هذه المعركة تعرضت حياة عبد الله لخطرٍ داهمٍ ؛ فقد قَرَنَ مركبَه بمركبٍ مِن مراكبِ الروم ، فكاد مركب العدو يجرُّ مركبَ عبد الله إليهم ، إلا أنّ أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبيْن بالسيف فقطعها ، وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر . لقد أظهر عبد الله في معركة « ذات الصواري »[1] بطولةً فائقة ، تلك الغزوة التي أبعدت خطر الروم ، بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام . ومات القائد ، الذي قضىٰ سبعَ سنواتٍ من مدة حكمه مصر غازيًا ، وثلاث سنوات بين أهله ..

ودعا ابن أبي السرح : « اللهمّ اجعلْ خاتمتي على صلاة الصبح » . فلما طلع الفجر - من يوم وفاته - توضأ ، ثم صلّى الصبح ؛ فقرأ في الركعة الأولىٰ بفاتحة الكتاب و« العاديات » ، والثانية بأم القرآن وسورةٍ ، ثم سلّم عن يمينه ، ثم ذهب ليُسلِّم عن يساره ، فقبض اللهُ رُوحه ، سنةَ ستٍ وثلاثين[2]. فرضي الله عنه ، وما أطيب خاتمته من خاتمةٍ !!

---

(١) سُمِّيت بذلك لكثرة صواري المراكب واجتماعها .

(٢) الروْض الأُنُف ٢ / ٢٧٤ ، وتهذيب الأسماء واللغات ١ / ٢٧٠ ، والإصابة ٤ / ١١ ، والكامل لابن الأثير ٣ / ١١٤ .

القائد الصالح مجابُ الدعوة : عقبةُ بنُ نافعٍ ، فاتحُ « زويلة » و« غدامس » ، وبعض كُور السودان ، و« فزّان » ، وعامّة بلاد البربر و« باغاية » ، وبلاد « الزاب » و« طنجة » ، و« السوس الأدنىٰ » و« السوس الأقصىٰ » ومُختَطُّ « القَيْروان » :

١ - في مصر وليبيا :

شهد عقبةُ فتح مصر تحت لواء عمرو ، وبرزت مواهبُه القياديّة بصورةٍ مبكِّرة حينذاك ؛ بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش إلى « زَويلة » ، فافتتحها صُلْحًا وصار ما بين « برقة » و« زويلة » - سلمًا - للمسلمين[١] .

ولقد كان عقبة على رأس حاميةِ برقة ، يحمي الحدود الغربية لمصر ، وحافَظَ عقبة على تلك المنطقة ، حتى في أخطر الظروف والأحوال ، وحَمَاها من الروم ، وأصبحت قاعدةً متقدمة للمسلمين ، ينطلقون منها إلى فتْح إفريقية .

٢ - مِن ليبيا إلى القَيْروان :

في سنة إحدى وأربعين هجرية استعمل عمرو بن العاص عقبة على إفريقية ، فانتهىٰ إلى « لُوَاته »[٢] وكانوا قد صُولِحوا ، فنقضُوا عهدَهم زمنَ معاوية بن أبي سفيان ، فغزاهم عقبةُ ، فتنحَّوْا ناحيةَ « أطرابلس » ، فقاتلهم عقبةُ حتى هزمهم ، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم ، فأبىٰ عليهم وقال : « إنه ليس لمشركٍ عهدٌ عندنا ؛ إنَّ الله عز وجل يقول في كتابه : ﴿ **كيفَ يكونُ للمُشركينَ عهدٌ** ﴾ [التوبة : ٧] ، ولكنْ أبايعكم على أنكم تُوفوني ذمّتي ، إنْ شئنا أقررناكم ، وإنْ شئنا بعناكم » .

---

(١) المغرب في حُلىٰ المغرب ١ / ٤٥ ، والطبري ٣ / ٢٢٧ .

(٢) من أشهر قبائل البربر .

وعقد عمرو لعقبة على « هَوّارة »[١] ، فأطاعوهُم و« لواته » ثم كفروا ، فغزاهم عقبة من سنته ، فَقَتَل وسَبىٰ .

وفي سنة اثنتين وأربعين الهجرية افتتح عقبة « غدامس » ، وقتل وسبى ، وفي سنة ثلاث وأربعين افتتح كور[٢] من السودان ، وافتتح « ودان » ثانية ، وهي من برقة ، وذلك سنة ستٍ وأربعين ، فقد خرج عقبة إلى « ودان » في أربعمائة فارس ، وأربعمائة جمل ، وثمانمائة قِرْبةِ ماءٍ ، على كلِّ جملٍ قربتان ، فلما وصلها ، أبىٰ أهلها إلا العصيان وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلدًا بلدًا ، وقبض على ملكهم فجدَع أُذُنَه ، فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟! » فقال عقبة : « فعلتُ هذا بك أدبًا لك ، إذا مَسَسْتَ أذنَك ذكرته فلا تحارب العرب !! »

لله دَرُّكَ يا عقبة ! فهذه عِزّة القائد المسلم .

واستخرج منهم ما كان بُسْر بن أبي أرطاة فرضَه عليهم سنة ثلاثٍ وعشرين هجرية ، ثلاثمائة رأسٍ وستين رأسًا من العبيد ، ولمّا استتبَّ الأمرُ لعقبة في بلاد « ودّان » ، سأل عقبةُ أهلها : « هل من ورائكم مِن أحدٍ ؟ » . فقيل : « جرمة »[٣] . فسار إليها ثمانيَ ليالٍ من « ودّان » ، فلمّا دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام ، فأجابوا ، فنزل منها على ستة أميالٍ ، وخرج مِلِكهم يريد عقبة ، فأرسل عقبة خيلًا ، فحالت بين ملكهم وبين موْكبه ، فأمشَوْه راجلًا ، حتىٰ أتىٰ عقبة وقد لَغِبَ - وكان ناعمًا - فجعل يبصُق الدم ، فقال له : « لِمَ فعلتَ هذا بي ؛ وقد أتيتك طائعًا ؟! » . فقال عُقبة :

---

(١) من أشهر قبائل البربر .

(٢) الكورة تطلق على مجموعة من القرىٰ .

(٣) عاصمة بلاد « فزّان » أيام الفتح الإسلامي .

« أدبًا لك ، إذا ذكرته لمْ تحاربِ العرب » . وفرض عليهم ثلاثمائةٍ وستين عبدًا ، ومضىٰ عقبة في فتْحه حتى فتح بلاد « فزّان » ، حتىٰ أتىٰ على آخرها ، ونشر الإسلام في رُبوعها . وهذه أول مرةٍ دخل فيها العرب بلادَ « فزان » فاتِحينَ . وسأل عقبة أهل فزّان : « هل مِن ورائكم أحد ؟ » . فقالوا : أهل « خاور » . وهو قصرٌ عظيمٌ على رأس المفازة ، في وُعورةٍ على ظهر جبل ، وهو قصبة « كاوار » ، فسار إليه خمسَ عشرةَ ليلةً ، فلما وصل إليه دعا أهلَه إلى الإسلام فأَبَوْا ، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصْنهم ، فحاربهم ، وأقام على حصارهم شهرًا ، وتقدّم بجيشه جنوبًا لفتح بقية بلاد « كاوار » ، ففتحها حتىٰ أتىٰ على آخرها ، وقبض على ملكهم وقطع إصبعه ، فقال : « لِمَ فعلت هذا بي ؟ » . فقال عقبة : « أدبًا لك ، إذا أنتَ نظرتَ إلى أصبعك لم تحارب العرب » ... ثم فرَض عليهم ثلاثمائةٍ وستين عبدًا[1] .

وأراد عقبة أن يمضي قُدُمًا في مجاهل الصحراء ، فسأل أهل « كاوار » : « هل من ورائكم أحد ؟ » . فقال الدليل : « ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة » . فانصرف عقبة راجعًا ، فمرّ بقصر « خاور » فلم يعرِض له ، ولم ينزل بهم ، ثم سار ثلاثة أيام فأمنوا وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بمكانٍ اسمُه اليوم « ماء فَرَس » ، ولم يكن به ماءٌ فأصابهم عطشٌ شديد ، أشفىٰ منه عقبةُ وأصحابُه على الموت ، فصلّى عقبةُ ركعتيْن ودعا الله ، وجعل فرسُ عقبة يبحث بيديه في الأرض ، حتى كشف عن صَفَاةٍ ، فانفجر الماء منها ، فجعل الفرسُ يمصُّ ذلك الماء ، وأبصره عُقبةُ ، فنادىٰ في الناس « أنِ احتفرُوا » . فحفروا سبعين حسْيًا[2] ، وشربوا

(١) فتوح مصر والمغرب صـ ٢٦٣ .
(٢) الحسيُ : الحفرة القريبة العُمق .

واستقوا فسُمّيَ ذلك المكان لذلك : « ماء فرس » . ورجع عقبة إلى « خاور » من غير طريقه التي أقبل منها ، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلًا ، فوجدهم مطمئنِّين قد تمهَّدوا في أسرابهم ، فاستباح ما في المدينة مِن ذُريّاتهم وأموالهم ، وقتل مُقَاتِلَتَهم .

فللَّهِ درُّه ! وما أبرع حركته هذه ، وما أحلى مباغتته ! فقد أطبق على « خاور » في وقتٍ لم يتوقعه أهلها . وانصرف عُقبة بعد فتح « خاور » ، حتى نزل بموضع زويلة اليوم ، ثم ارتحل ، حتى قدِم على عسكره بعد خمسةِ أشهر ، وقد جمّت خيولُهم وظهورُهم . وسار عقبة بجيشه إلى المغرب ، وجانَب الطريق الأعظم ، وأخذ إلى أرض « هوارة » فافتتح كل قصر بها ، ومضى إلى « صفر » ، فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلًا إلى « غدامس » فاستعاد فتحها ، وتوجّه إلى « قفصة » فافتتحها ، ثم افتتح « قَسْطِيلية » ، ثم انصرف إلى القيروان .

لقد طهّر عقبة بهذا الفتح كلَّ المقاومات المعادية ، بين « برقة » و« القيروان » ، فأصبحت هذه المنطقة خالصةً للمسلمين ، حَرِيّةً أن تكون قاعدةً رصينة ، تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي .

بِناءُ عقبة للقيْروان[1] ، وما كان فيه من الكَرامات :

« قال عقبة لرجاله : « إنَّ إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام ، فإذا تركها رجع مَن أجابَ منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عِزًّا للإسلام إلى آخر الدّهر » . فركب إلى موضع « القيروان » ، اليوم ، وكان غَيْضةً ، كثيرَ الأشجار ، مأوى

---

(١) معنى القيروان : المدينة أو المعسكر أو المسلحة ، وموضع اجتماع الناس والجيش .

الوحوش والحيّات ، فقال له رجاله : « إنك أمَرتنا بالبناء في شعارٍ وغِياض لا تُرام ، ونحن نخاف من السباع والحيّات ، وغير ذلك من دوابِّ الأرض » . وكان في عَسْكَرِهِ خمسة عشر رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وسائر ذلك تابعون ، فدعا الله عز وجل ، وجعل أصحابه يؤمِّنون على دعائِه ، ومضى إلى «السنجة» وواديها ونادى : « أَيَّتُهَا الحيّات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله ﷺ ، فارحلوا عنا فإنا نازلون ، ومن وجدْناه بعد ذلك قتلناه » . ونظر الناس بعد ذلك إلى أمرٍ مُعجب ، من أن السباع تخرج من الشعار تحمِل أشبالها ، والذئب يحمل جَرْوَه ، والحيّاتُ تحمل أولادها ، ونادىٰ في الناس : « كُفُّوا عنهم حتىٰ يرتحلوا عنا » . فلمّا خرج ما فيها من الوحوش والهوامّ - وهم ينظرون إليها - نزل عقبة الوادي ، وأمرهم أن يقطعوا الشجر »[1].

وفي السِّيَر : « كان الموضعُ غيْضةً لا يُرام من السباع والأفاعي ، فدعا عليها ، فلم يبقَ فيها شيءٌ ، وهربوا ، حتى إن الوحوش لتحملُ أولادها » .

وعن موسىٰ بن محمد ، عن أبيه قال : نادىٰ : « إنا نازلون فاظعنوا » . فخرجْنَ من جِحَرَتِهن هوارب .

وروى نحوه يحيىٰ بن عبد الرحمن بن حاطب، قال : لمّا افتتح عُقبة إفريقية ، قال : « يا أهلَ الوادي ، إنا حالُّون إنْ شاء الله ، فاظعنوا » . ثلاثَ مراتٍ ، فما رأينا جُحْرًا ولا شجرًا إلا يخرج من تحته دابَّةٌ ، حتى هبطْنَ بطنَ الوادي ، ثم قال للناس : « انزلوا بسم الله » .

---

(١) رياض النفوس ١ / ٦ - ٧ ، والبيان المغرب ١ / ١٣ - ١٤ .

قال مفضل بن فضالة : « كان عقبة بن نافعٍ مجابَ الدعوة »[١] .

وأمر عقبة ببناء القيروان سنة خمسين ، وأنجز بناءَها سنة خمسٍ وخمسين ، وكان عقبة في أثناء عِمَارة المدينة يغزو ويُرسل السرايا ، فتغيرُ وتنهب ، ودخل كثير من البربر في الإسلام ، ورسخ الدين ، وصارت القيروان عاصمةَ الإسلام في المغرب ، والقاعدة الأمينة للمسلمين في شمال إفريقية .

مِن القيروان إلى المحيط :

وفي ولايته الثانية خرج عقبة بن نافع من القيروان ، بعد أن استخلف بها زهير بن قيس البلوي ، ودعا عقبة بأولاده قبل مغادرته القيروان ، وقال لهم : « إني قد بعتُ نفسي مِن الله عز وجلّ ، فلا أزال أجاهد مَن كفر بالله »[٢] . ثم وعظهم ووصَّاهم ، ثم قال : « عليكم سلامُ الله ، وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا » . ثم قال : « اللهمَّ تقبّل نفسي في رضاك ، واجعلِ الجهادَ رحمتي ، ودار كرامتي عندك »[٣] .

سار عقبة في عسكر عظيم حتى انتهى إلى مدينة « باغاية » ، لا يُدافعه أحدٌ ، والرومُ يهربون في طريقه يمينًا وشمالًا ، فحاصرها ، وقد اجتمعوا بها ، وقاتلهم قتالًا شديدًا ، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلًا ذريعًا ، وغنَم منهم مغانم كثيرة ، واحتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فكَرِهَ المُقَام عليهم[٤] .

---

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٢٤٠ ، وتاريخ ابن عساكر ، وطبقات علماء إفريقية ٨ ، وحسن المحاضرة ٢ / ٢٢٠ - ٢٢١ .
(٢) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .
(٣) رياض النفوس ١ / ٢٢ - ٢٣ .
(٤) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .

ورحل عقبة إلى « تلمسان » ، وهي من أعظم مدائنهم ، فانضمَّ إليها مَنْ حَوْلَهَا من الروم والبربر ، فخرجوا إليه في جيشٍ ضخم لَجِبٍ ، والتحم القتال ، ووقع الصبر ، حتى ظنَّ المسلمون أنه الفناء ، ولكنهم هاجموا الروم هُجُومًا عنيفًا ، حتى ألجئوهم إلى حصونهم ، فقاتلوهم إلى أبوابها ، وأصابوا منهم غنائم كثيرة .

وسار عقبة إلى بلاد « الزاب » ، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب ، فقيل له : « أرَبة » ، وهي دار مِلكهم ، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية ، كلّها عامرة ، فامتنع بها مَن هناك من الروم والنصارىٰ ، وهرب بعضهم إلى الجبال ، فاقتتل المسلمون وَمَنْ بالمدينة من النصارىٰ ، ثم انهزم النصارى ، وقُتل كثير من فرسانهم[1] .

ورحل عقبة إلى « تاهرت » ، فاستغاث الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة في الناس خطيبًا ، فحمِد الله وأثنىٰ عليه ، وقال : « أيُّها الناس ، إنَّ أشرافكم وخياركم - الذين رضي الله تعالىٰ عنهم ، وأنزل فيهم كتابه - بايعوا رسول الله ﷺ بيعةَ الرضْوان على مَن كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة ، باعُوا أنفسَهم من رب العالمين بجنَّته بيعةً رابحةً ، وأنتم اليوم في دار غُربة ، وإنما بايعتم ربَّ العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبًا لرضاه وإعزازًا لدينه ، فأبشروا ؛ فكلّما كثر العدوّ كان أخزىٰ لهم وأذلَّ ، إن شاء الله تعالى ، وربُّكم عزّ وجلّ لا يُسْلِمُكم ، فالقُوهم بقلوبٍ صادقة ؛ فإنّ الله عز وجل جعلكم بأسَهُ الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين » . فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدوّ ، ولكنهم انتصروا أخيرًا ، فانهزَمَت الروم

---

(١) ابن الأثير ٤ / ٤٢ .

والبربر ، وأخذهم السيف ، وكثُر فيهم القتْل ، وغَنِمَ المسلمون أموالهم وسلاحهم[(١)].

وسار عقبة حتى نزل طنجة ، فلقيه بِطْرِيقٌ من الروم اسمُه « يليان » ، فنزل على حُكْمه ، وأراد عُقبة فتح الأندلس ، فقال له « يليانُ » : « أتترك كُفّار البربر وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ، ويقطع البحر بيْنك وبين المدد ؟! » . فقال عقبة : « وأين كفار البربر ؟ » . فقال : « في بلاد « السوس » ، وهم أهل نجدة وبأس » . فقال عقبة : « وما دينهم ؟ » . فقال : « ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حقٌّ ، وإنما هُم كالبهائم » . وكانوا على دين المجوسية يومئذٍ . فتوجّه عقبة ، فنزل على مدينة « وَلِيْلى » بإزاء جبل « زرهون » ، وهي يومئذٍ من أكبر مُدن المغرب ، وهي المسمَّاة اليوم : « قصر فرعون » ، فافتتحها عقبة وغَنِمَ وَسَبَى .

وانتهى عقبةُ إلى « السوس الأدنى » ، وهو مغرب طنجة ، فقاتل جموعَ البربر الكثيرة ، وقتل منهم قتْلًا ذريعًا ، وبعث خيله في كل مكانٍ هربوا إليه ، ثم سار حتى وصل إلى « السوس الأقصى » ، وقد اجتمعَ له البربر في عالم لا يُحصى ، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم ، وسار عقبة حتى وصل إلى « مالبان » - أقصى بلاد المغرب - ورأى البحر المحيط ، فقال : « يا رب ، لولا هذا البحر لمضَيْتُ في البلاد مجاهدًا في سبيلك »[(٢)]. ثم قال : « اللهمَّ اشهدْ ؛ إني قد بلغتُ المجهود ، ولولا هذا البحرُ لمضيْتُ في البلاد أقاتل من كفر بك ، حتى لا يُعبد أحدٌ دونك »[(٣)].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤ / ٤٢ .
(٢) الكامل لابن الأثير (٣ / ٤٢ - ٤٣) .
(٣) رياض النفوس ١ / ٢٥ .

لله دَرُّ عُقبة وهو يتنقَّل مِن نصرٍ إلى نصرٍ ناشرًا الإسلام ، حتىٰ وصل إلى بلاد « أسَفى »[1] على المحيط الأطلسي ، وأدخل قوائم فرسه في البحر المحيط ، ووقف ساعةً ، ثم قال لأصحابه : « ارفعُوا أيديَكم » . ففعلوا ، فقال : « اللهمَّ إني لم أخرجْ بطرًا ولا أشرًا ، وإنك لَتَعلمُ أنّما نطلب السببَ الذي طلبه عبدُك ذو القرنَيْن ، وهو أنْ تُعْبَدَ ولا يُشرك بك شيءٌ ، اللهمَّ إنا معاندون لدينِ الكفر ، ومدافعون عن دين الإسلام ، فكنْ لنا ولا تكن علينا ، يا ذَا الجلال والإكرام » . ثم انصرف راجعًا[2]. وبعد ذلك سقط البطل شهيدًا في « تهوذة » ، على يد البربر .

لله دَرُّك يا عقبة !! كانت فتوحاتك مَدْعاة للفخر والاعتزاز ، وهي من الناحية العسكرية تستحقُّ كلّ التقدير والإكْبار ؛ لقد انطلق عقبة بكلّ حماسةٍ لتحقيق آماله وأمانيه في فتح إفريقية ، من القيروان حتى المحيط الأطلسي ، وأنجز ذلك في وقتٍ قد لا يصدِّقه العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحْتة ، ولكنّ هذا هو الذي حدَث فعلًا .

تُرىٰ ، هل يذكر التاريخ عقبة الفاتح الذي أذلَّ ملوك « ودان » و« جرمة » و« فزان » وأدّبهم ؟! أمْ سيذكر التاريخ مَأْفُون الصحراء صاحبَ « الكتاب الأخضر » ؟! وأيُّ ذلٍّ لم نعرفه علىٰ أيدي هؤلاء العبيد ؟!

مُطَأْطَأَ الرأسِ ظلَّ السيفُ يسبقني ... وطعنةُ الغدْرِ .. يا للموتِ .. تُلهينا
وأنَّةُ الأرضِ تَبكي في سلاسِلِهَا ... والقُدسُ في كَرْبِهِ يدعو المُعزِّينَا
وطارقُ البطْشِ يغدُو في منازِلنا ... وفزْعَةُ الموتِ لمْ تَسْتَبْقِ لي دِينا
والمئذناتُ التي كمْ هبّ ثائِرُهَا ... غَابَ الأذانُ بِهَا يا وَيحَ نَادِينَا

---

(١) بلدة على شاطئ البحر المحيط بأقصىٰ المغرب .
(٢) الاستقصا (١ / ٧٤) .

وأمَّـةُ البَعْـثِ بالأعتـابِ جاثِيَةٌ ... تُقَبِّلُ الأرضَ والأحلامُ تَطْوِينا
وصوّحَ العُشبُ والمرعىٰ غَدَا لَهَبًا ... نمشي على جَمْرَةٍ ذلًّا وَتَهْوِينا
« اللهُ أكبرُ » كانَ الكونُ يَسمعُهَا ... فيتّقي بأسَ مَـن قـالوا ويُعْلينا
كَانَ الضُّحَىٰ ماجدًا والأرضُ مَرْحَمَة ... والمُنْتَدَىٰ والنّدىٰ يبكي رَيَاحِينَا
نتلُو على الدهرِ ما تُمْليهِ عِزَّتُنَا ... ويسمعُ الكونُ ما يتلُوه رَاوِينَا
« الرعْدُ » في بعْثِنا و« النصرُ » مَوْعِدُنَا ... و« الفجرُ » و« الشمسُ » و« الإسراءُ » حَادِينَا
حَتَّى كَبَتْ خيلُنَا في الشوْطِ وانطفأَتْ ... مَشَاعِلُ القومِ وانكبّتْ نواصِينا
والمسلمونَ انطوَوْا في الأرضِ وانكسرُوا ... واتَّخمُوا بِطنةً واستطعموا طينا
وبَاحَةُ البيتِ ناحتْ عَلَّ فَارِسَهَا ... لهُ عيونٌ ترىٰ مَنْ جاءَ يُفْنِينا
لكنَّهُ الليلُ أغفىٰ في كَلاكِلِهِ ... وومضَةُ النَّجمِ أغفتْ من غَواشِينا
وغصَّةُ الحزْنِ في الأحشاءِ واحدةٌ ... إنَّ المصائبَ يَجمَعْن المُصَابينا
نَمـدُّ كَفًّا بِهَـا للذلِّ مَسْغَبَـةً ... وَنُغْمِضُ العَيْنَ شُحًّا مِن تَدَنِّينا
وَنَعْلُكُ البُؤْسَ ممَّا شاءَ راجِمُنَا ... ونشربُ اليأسَ من إبْريقِ سَاقِينَا
وَنُرسِلُ السَّهْمَ مِن أفياءِ راقصةٍ ... ونُمطرُ العينَ دَمعًا مِن تشاكِينا
ونشربُ الموتَ صَابًا مِن عَلالَتِهِ ... بئْسَ الشرابُ الذي قد ساءَ غِسْلِينَا
وَنَقْرَعُ الكأسَ تِلوَ الكأسِ في سَفَهٍ ... ونَفتحُ الأرضَ وَهْمًا صارَ يَطْوِينَا
ورَايةُ الحقِّ تَبكي أهلَ نُصْرَتِهَا ... فليسَ في أرضِنَا مَن يَرتجي حِينَا
وأصبحَ القِرْدُ والخنزيرُ يَحكُمُنا ... وارْتجَّ في حَلْقِهِ دَمْعُ المُوَاسِينا
غُبَارُ خَيْلِ الوَغَىٰ تشتاقهُ رئتي ... ومقْبَضُ السيفِ يَبكي مِن تجافينا
هـلْ ينـبري فـارسٌ للهِ يَبْعَثُـهُ ... يُحْيي قلوبًا عَتَتْ عَنْ أمْرِ بارِينا
وَيَبْعَثُ الطُّهْرَ نُورًا في أجنَّتِهَا ... ويقتفـي راشـدًا دَرْبَ النَّبِيِّيـنا

* * *

موسىٰ بنُ نُصير فاتحُ المغرب الأقصىٰ والأندلس :

« **أَمَا واللهِ لو انقادُوا إليَّ لَقُدْتُهم إلى رُوميَّة** » ... [**موسىٰ بن نصير**]

الأمير الكبير أبو عبد الرحمٰن فاتح الأندلس .

استعاد موسى فتح المغرب الأوسط ، وبدأ باستعادة جبل « زغوان » وما حوله ، واستعاد فتح زغوان وسبَىٰ منهم ، ووجّه ابنَه عبد الله بن موسىٰ إلى نواحي إفريقية ، فأتى بمائة ألفٍ من السَّبْي ، ثم وجَّه ابنه مروان فأتىٰ بمثلها ، وبعث ابن أخيه فسبىٰ أيضًا مائة ألفٍ ، فكان الخمس يومئذ ستين ألفًا ، واستطاع موسىٰ القضاء علىٰ جيُوب المقاومة في إفريقية ، واستطاع إخضاع قبائل البربر .

أرسل موسىٰ ألف فارس إلى « هوارة » و« زناتة » ، من قبائل البربر ، فأغاروا عليهم وقتلوا منهم وسبوا ، وصالحهم المسلمون ، وصالحتْه أيضًا قبيلةُ « كتامة » .

وأغار موسىٰ بأربعة آلافٍ من أهل الديوان ، وألفين من المتطوِّعة ومن قبائل البربر ، على « صنهاجة » من البربر ، وهم لا يشعرون ، فقتلهم قتْل الفناء في وادي « مَلْوِية » .

وغزا موسىٰ « سجومة » - في المغرب الأوسط - في عشرة آلافٍ ، واقتتلوا اقتتالًا شديدًا في جبل شديد ، لا يصل إليهم إلا من أبواب معلومة ، واستمر القتالُ ثلاثة أيامٍ ، وانهزم أهل سجومة ، ففتح المدينة وقتل ملوكها ، وأمر أولاد عُقبة بن نافع أن يأخذوا حقَّهم من قاتِل أبيهم ، فقتلوا مِن أهل « سجومة » ستمائة من كبارهم ، ثم قال لهم موسىٰ : « كُفُّوا » . وتتبع موسىٰ قبائل البربر فتبدَّدتِ القبائل أمامه ، فتتبَّعها عبْر « السوس الأدنىٰ » حتىٰ بلاد « سجلماسة » ووادي « درعة » . وسيّر ابنه مروان إلى « السوس

الأقصىٰ » وسيّر قائده زرعة بن أبي مدرك إلى بربر « مصمودة » ، في أطلس العليا ، ونجحت الحملتانِ ، وتأكّد انتشار الإسلام في بلاد المَصَامِدة ، الذين دخلوا فيه طَوْعًا . واستعاد موسىٰ فتح مدينة « مجانة » التي فتحها من قَبْلُ بُسْر بن أبي أرطاة .

فَتْح طنْجَة :

خرج موسىٰ من القيروان لفتح طنجة ، وجعل على مقدِّمته مولاه طارق ابن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة « طنجة » ، وهي قصبة الولاية وأُمُّ مدائنهم ، فلما دنا من طنجة بثَّ السرايا ، وانتهتْ خيلهُ إلى السوس الأدنىٰ ، فوطئهم وسباهم ، وحاصر طنجة حتىٰ افتتحها ونزلها ، وهو أولُ مَن نزلها ، واختطَّ فيها للمسلمين ، فأسلم أهلها ، واستعمل موسىٰ على أهلها مولاه طارق بن زياد ، وترك عنده تسعة عشر ألفًا من البربر الذين حَسُنَ إسلامهم بالأسلحة والعُدَّة الكاملة ، وترك موسىٰ عندهم خَلْقًا من العرب ، ليُعلِّموا البربر القرآن . وبهذا تم فتْح ولاية طنجة التي كانت تتَّسع في القديم لمسيرة شهرٍ ، وليس المدينة فقط .

وبعد قتالٍ شديد ترك موسىٰ بن نصير « سبتة » ، ثم بعد ذلك عَرَض عليه أميرُها « يوليان » تسليم سبتة ، ودعاه إلى فتح أسبانيا .

لقد فتح موسىٰ بلاد المغرب ، وغنم منها أموالًا لا تعدُّ ولا تُوصف ، وله بها مقاماتٌ مشهورة هائلة[1] ، وأسلم على يديْه أهل المغرب ، وبثَّ فيهم الدينَ والقرآن .

* * *

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ١٧١ .

جهادُه في البحر :

ولي غزو البحر لمعاوية ، وعقد موسىٰ لابنه عبد الله بن موسىٰ لواءَ غزوة الأشراف ، وسار عبد الله في المراكب إلى صقليّة ، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غُزِيت في بحر إفريقية « البحر الأبيض المتوسط » ، وافتتح عبد الله مدينة في صقلية ، وبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهبًا ، وكان عدد المسلمين ما بين الألف إلى التسعمائة .

وبعث موسىٰ عيَّاش بن أخيل على مراكب فَشَتَا في البحر ، وأصاب مدينة « سرقوسة » .

وبعث موسىٰ عبد الله بن مرّة إلى « سردانية » في بحر إفريقية فأصابها ، وافتتح مدائنها ، وبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأسٍ ، سوىٰ الذهب والفضة .

وجهَّز موسىٰ ولده عبد الله ، فافتتح جزيرتي « ميورقة » و« منورقة » .

فتح الأندلس :

كان موسىٰ يتُوق إلى فتح الأندلس ، وبعث موسىٰ رجلًا من البربر - يسمَّىٰ « طريفًا » - في مائة فارسٍ وأربعمائة راجلٍ ، فجاز في أربعة مراكب ، حتىٰ نزل ساحل الأندلس في جزيرة « طريف » وأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء ، وأصاب سَبْيًا ومالًا كثيرًا ورجع سالمًا في سنة إحدىٰ وتسعين هجرية .

وبادَرَ طارق بن زياد مولىٰ موسىٰ بن نصير ، فافتتح الأندلس ، ولحقه موسىٰ لمّا استغاث به طارق ، ولقيه في « طلبيرة » ، على مقربةٍ من « طُليطلة » ؛ عبرَ موسىٰ إلىٰ الأندلس على رأس جيشٍ قوامُه : ثمانية عشر ألفًا ، من قريشٍ والعرب ووجوه الناس ، ودخل الجزيرة الخضراء ، فلما عزم على المسير ،

جمع حوله راياتِ العرب ووجوه الكتائب ، وعددُها يزيد على عشرين راية ، وتفاوض الجميع في الرأي ، وكيف تكون الخطة للفتح ، فأجمعوا على السير إلى « إشبيلية » ، وغزْو ما بقي من غرب الأندلس حتى « أكشونية ».

زحف موسىٰ إلى « شذونة » فافتتحها عَنوةً ، ثم سار إلى « قرمونة » ، ولم يكن بالأندلس أحصن منها ، فدخلها المسلمون عَنوة ، وسار إلى « رعواق » - المعروفة بقلعة « جابو » - فافتتحها . وبهذا أُمِّنتْ خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى « قرطبة » .

لقد كان ترصينُ قواعد الفتح المتقدمة ، وتأمينُ خطوط مواصلات الفتح ، وحمايةُ الجانب الغربي لمنطقة فَتْح طارق - الأهدافَ الحيويةَ الأولى التي حقّقها موسىٰ بعد إنزال قواته الأندلس .

وفتح موسىٰ أشبيلية - وكانت من أعظم قواعد الأندلس - بعد أن حاصرها حصارًا شديدًا ، وبعد أن امتنعتْ عليه أشهرًا .

وفتح « ماردة » بعد أن حاصرها حصارًا شديدًا ، وبعد كثرة قتْلٍ في المسلمين ، على أن تكون أموال القتلىٰ ، وأموالُ الهاربين ، وأموال الكنائس ، وحُليُّها للمسلمين . ولما ثار عَجَمُ إشبيلية على الحامية التي بها ، وجّه موسىٰ ابنه عبد العزيز فاستردَّها ثانيةً ، بعد أن فتحها وقتلَ أهلها ، ونهضَ إلى « لبلة » ففتحها أيضًا .

التقىٰ موسىٰ بطارق بن زياد في موضعٍ يقال له : « تايد » أو « تاتير » ، وخرج طارق مُعظِّمًا له ، ونزل بين يديْه ، فعاتبه موسىٰ على مخالفته لرأيه في تسرُّعه باقتحام الأندلس من الوسط ، فاعتذر إليه طارق ، وقال : « إنما أنا مولاك ، وقائدٌ من قوّادك ، ما فتحته وأصبته إنما هو منسوب إليك » . والتقىٰ موسىٰ وطارق بـ « لذريق » ، عند بلدة « تمامس » ،

وهزم القُوط هزيمة نكْرَاءَ ، ولقي لذريقُ ملكُ الأندلس حتفَه على يد مروان ابن نصير .

وفُتحت طليطلة ثانيةً على يد موسىٰ ، بعد نقْضهم طاعة المسلمين ، ودخلها موسىٰ دخول المظفّر ، وسلّم طارق إلى موسىٰ الكنوزَ التي غنمَها من الكنائس .

وبعث موسىٰ برسولَيْن إلى الوليد بن عبدالملك يُنْهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختيارُه على التابعيّ الجليل عليّ بن رباح ومغيث الرومي ، فقال علي بن رباح للوليد : « يا أمير المؤمنين ، تركت موسىٰ ابن نصير في الأندلس ، وقد أظهره الله ونصره ، وفتَح على يديه ما لم يُفتح على يد أحد » . ثم دفع الكتاب إلى الوليد ، فقرأه الوليد ، فلمّا أتىٰ علىٰ آخره خرّ ساجدًا .

نعم .. لقد غَنِمَ المسلمون مِن كنوز « طليطلة » الزاخرة التي وجدوها في قصور « القُوط » – في كنيسة « طليطلة » الكبيرة بوجهٍ خاص – ما لا يخطر على بالٍ ، وأسْهبُوا في وصفها ، وسمّوها مائدة سليمان بن داود ، وهي التي حقَّق ابنُ حبان أنها كانت المذبحَ الكنسي ، وكان دُرَّةً من الدُّرر ، مُحلًّى بأثمنِ ما لدىٰ القوط من الذهب الخالص ، وطار الذكرُ مَطارَه عنها ، وكانت مرصَّعةً بفاخر الدُّر والياقوت والزُّمُرد ، لم تَرَ الأعين مثلَها .

فتْح شمالِ الأندلس :

عزم موسىٰ علىٰ متابعة الفتح شمالًا ، لإكمال فتح شبْه جزيرة الأندلس ، ففتح المدينة البيضاء « سرقسطة » ، بعد رعب أهلها منه ، وبعدها فتح « وشقة » و« لاردة » و« طركونة » ، وحين أوْغل موسىٰ وجاوز « سرقسطة » اشتدَّ

ذلك على الناس ، وقالوا : « أين تذهب بنا ؟! حَسْبُنَا ما في أيدينا » . وقال التابعي الجليل « حنش بن عبد الله الصنعاني » : « أيها الأمير ، أين تذهب ؟! تريد أن تخرج من الدنيا ؟! أَوَتلتمس أكثر مما آتاك الله عز وجل ، وأعْرَضَ ممّا فتح الله عليك ودوّخ لك ؟! إني سمعتُ من الناس ما لم تسمع ، وقد مَلئوا أيديَهم وأحبُّوا الدَّعَة » . فقال موسىٰ : « أما والله لو انقادوا إليَّ لقدتُهم إلى روميّة - روما - ثم يفتحها الله علىٰ يديَّ ، إن شاء الله » . واستطاع موسىٰ بعد ذلك أن يُعيد إلى الجنود نشاطَهم وحماستهم للفتح ، وفتحَ « سرقسطة » ، و« قشتالة » ، وحصن « بارو » ، واخترق باب « تارنا » ، وسار متابعًا مجرىٰ نُهَيْر « النالون » ، ثم حَطَّ رِحاله عند قلعة « لُك بأشتوريش » غيرَ بعيدٍ عن « أبيط » ، وما زال بها حتىٰ فتحها ، ثم سار بنفسه حتىٰ بلغ « خيخون » ، وبعث سرية من فرسانه ، أدركت البحر عند صخرة « بلاي » على البحر الأخضر ، فطاعتِ الأعاجم ، ولاذوا بالسَّلْم وبذْل الجزية . وهكذا وصلتْ جيوش موسىٰ حتىٰ البحر المحيط ، واطمأنَّ إلى أنه فتَحَ شبهَ الجزيرة كلها .

وهناك بعض المؤرِّخين يذكرون أنّ موسىٰ بن نصير بعث سراياه إلى « قطالونة » ، فَفَتَحَتْ « برشلونة » ، ومِن هناك اخترقتْ جبال البرتات « البرانس » ، وتوغّلتْ في بلاد « غالة » فاستولت على « أربونة »(١) ، وحصن « لودون » بوادي « نهر الرون » ، ووصلت إلى « قرقشونة » بجنوب فرنسا ، كما ذكر المَقَّري(٢) . وفتح عبد العزيز بن موسىٰ ما بقي من مدائن الأندلس ، واستكمل فتْح غرب الأندلس « البرتغال » حاليًا .

---

(١) مدينة في الساحل الفرنسي الجنوبي .
(٢) في كتابه : « نَفْحُ الطِّيب » ١ / ٢٦٠ .

لله دَرُّ فاتحنا العظيم !! سيسجِّل التاريخ بكلِّ الإكبار فتوحاتِ موسىٰ ابن نصير ، التي وصفها هو نفسه وهَالَتْه ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك : « إنها ليست الفتوح ، ولكنَّها الحشر »[1].

رجع موسىٰ إلى المغرب وهو راكب على بغله « كوكب » وهو يجرُّ الدنيا بين يديْه ، أمر بالعَجَلِ تجرّ أوْقارَ الذهب والحرير ، وأخذ معه مائة من كُبَراء البربر ، ومائة وعشرين من الملوك وأولادهم ، فقدِم مصر في هيئة ما سمع به .. ووصل إلى دمشق ، وأهانه سليمان الخليفة ، وآثَرَ البطلُ رضا اللهِ ولم يَرَ الخروج ؛ قال رحمه الله : « واللهِ لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي طرفًا ، ولكني آثرت الله ورسوله ، ولم نَرَ الخروج عن الطاعة والجماعة » .

لله دَرُّه مِن عظيم .. يُظهر حلْمَه وعظمته وقد أدخلوه على الخليفة سليمان ، ورأْس ابنه عبد العزيز بن موسىٰ بين يديْه ، فقال له : « أتعرف هذا الرأس يا موسىٰ ؟ » قال : « نعم ، هذا رأْس عبد العزيز بن موسىٰ بين يديك يا أمير المؤمنين ، فرحمةُ الله تعالى عليه ؛ فَلَعَمْرُ اللهِ ما علمتُه نهارَه إلَّا صوّامًا ، وليلَه إلَّا قوّامًا ، شديدَ الرأفة بمن وليه من المسلمين ... هنيئًا له بالشهادة ، قتلتم - واللهِ - صوّامًا قوّامًا »[2].

وهذا موقفٌ بطوليٌّ آخر لموسىٰ لا يقلُّ روعةً عن مواقفه الأخرىٰ في الفتوح ، وهو موقف الصابر المحتسب ، الذي يصدَعُ بالحقّ غيرَ وَجِلٍ ولا هيَّابٍ . قال له الخليفة سليمانُ : « ما الذي كنتَ تفزع إليه في مكان حربك من أمور عدوِّك ؟ » . قال : « التوكُّل والدعاء إلى الله ، يا أمير

---

(١) نفْح الطيب ١ / ٢٦٦ .
(٢) البيان المغرب ٢ / ٣٢ .

المؤمنين » . قال له سليمان : « هل كنتَ تمتنع في الحصون والخنادق ، أو كنتَ تخندق حولك ؟ » . قال : « كلّ هذا لم أفعلْه » . قال : « فما كنت تفعل ؟ » قال : « كنت أنزل السَّهْل ، واستشعر الخوف والصبر ، وأتحصَّن بالسيف والمِغفر ، وأستعين بالله وأرغب إليه في النصر » . قال له سليمان : « أيُّ الأمم أشدُّ قتالًا ؟ » . قال : « هم أكثر من أن أصف » . قال : « فأخبرني عن الروم » . قال : « أُسدٌ في حصونهم ، عِقبان علىٰ خيولهم ، نساءٌ في مراكبهم ، إنْ رأوا فرصةً انتهزوها ، وإنْ رأوْا غَلَبَةً ، فأوعالٌ تذهب في الجبال ، لا يَرَوْنَ الهزيمة عارًا » .

وقال رحمه الله : « والله ما هُزِمَتْ لي رايةٌ قطُّ ، ولا بُدِّد لي جمع ، ولا نُكِبَ المسلمون معي ، منذ اقتحمتُ الأربعين إلى أن بلغت الثمانين ، ولقد بعثتُ إلى الوليد بتورٍ[1] زبرجد ، كان يجعل فيه اللبن حتى تُرىٰ فيه الشَّعرة البيضاء ... ». ثم أخذ يُعدّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد ، حتىٰ تحيّر سليمانُ .

وقال مرةً : « يا أمير المؤمنين ، لقد كانت الألفُ شاةٍ تباع بمائة درهم ، وتباع الناقةُ بعشرة دراهم ، وتمرُّ الناسُ بالبقر ، فلا يلتفتون إليها ، ولقد رأيت العِلْجَ الشاطر وزوجتَه وأولادَه يُبَاعون بخمسين درهمًا »[2].

لله دَرُّ موسىٰ :

النصرُ يقدُمُهُ والحَزْمُ سائِقُهُ ... عفُّ الخلائِقِ ماضٍ غيرُ وسنانِ
الحقُّ نِسْبَتُهُ والعدلُ سيرتُهُ ... جَزْلُ المواهبِ مُعْطٍ غيرُ منّانِ

دخل مرةً على الخليفة سليمان ، فلمّا رآه سليمان قال : « ذهبَ

---

(١) إناء .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٩٩ - ٥٠٠ .

سلطان الشيخ » . فقال له موسىٰ : « أما واللهِ لَئِنْ ذَهَبَ سلطانُ الشيخ ، لقد أثّر الله به في دينه أثرًا حسنًا ، ولقد كنتُ طويلَ الجهاد في الله ، حريصًا على إظهار دين الله حتىٰ أظهره الله ، وكنتُ ممَّن أتمّ الله به موعده لنبيّه ، ولئن أدبر معك ، لقد كان مع آبائك ناضرَ الغصن ميمونَ الطائر » .

نعم واللهِ ؛ لقد نشر الإسلام ، وكان طويل الجهاد ، فتكلّل جهادُهُ بثمرات يانعة من الفتح الضخم ، الذي يضعه في مصافٍّ أعظم الفاتحين وأكبر المجاهدين ، ولا غروَ أنْ قال له سليمان بعد ذلك - لما أراد غزو الروم - : « أَشِرْ عليّ يا موسىٰ ؛ فلم تزلْ مُبارَكَ الغزوة في سبيل الله ، بعيدَ الأثر ، طويلَ الجهاد » .

رحم الله موسىٰ بن نصير ، فكمْ كان وَرِعًا تقيًّا ، يحبُّه عمر بن عبد العزيز كلَّ الحُبِّ ، لتقواه وعطائه .

قال جعفر بن الأشتر : « كنتُ فيمن غزا الأندلس مع موسىٰ ، فحاصرْنا حِصنًا من حصونها عظيمًا ، بضعًا وعشرين ليلةً ، ثم لمْ نقدر عليه ، فلمّا طال ذلك عليه ، نادىٰ فينا : « أن أصبحوا على تعْبئةٍ ». وظننَّا أنه قد بلغَه مادّةٌ من العدو ، وقد دَنَتْ مِنَّا ، وأنه يريد التحوُّل عنهم ، فأصبحنا على تعبئةٍ ، فقام فحمِد الله ، ثم قال : « أيُّها الناس ، إني متقدِّم أمام الصفوف ، فإذا رأيتموني قد كبّرتُ وحملت ، فكبّروا واحمِلُوا » . فقال الناس : « سبحان الله ! أترىٰ فقد عقله ، أم عزبَ عنه رأيُه ؟ يأمرنا نحمل على الحجارة وما لا سبيلَ إليه ؟! » . فتقدم بين يدَي الصفوف حيث يراه الناس ، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة ، فأطال ونحن رُكُوب ، منتظرون تكبيرَه ، فاستعددنا ، ثم إنّ موسىٰ كبّر وكبّر الناسُ ، وحمَل وحمل الناسُ »[1] .

---

(١) الإمامة والسياسة ٢ / ٧٩ .

قال الذهبي في السير (٤ / ٤٩٧) : « عمل مع الروم مُصافًا مشهودًا ، ولمّا هَمَّ المسلمون بالهزيمة ، كشف موسىٰ سرادقه عن بناته وحُرَمِه ، وبرز ورفع يديْه بالدعاء والتضرُّع والبكاء ، فكُسرت بين يديه جفونُ السيوف ، وصدقوا اللقاء ، ونزل النصر ، وغَنِموا ما لا يُعبّر عنه » .

« ولما دخل موسىٰ إفريقية ، وجد غَالِبَ مدائنها خالية ، لاختلاف أيدي البربر ، وكان فأمر الناس بالصلاة والصوم والصلاح ، وبرز بهم إلىٰ الصحراء ، ومعه سائر الحيوانات ، ففرّق بينها وبين أولادها ، فوقع البكاء والضجيج ، وبقي إلى الظُّهر ، ثم صلّى وخطب ، فما ذَكَرَ الوليدَ ، فقيل له : « ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ ». فقالوا : « هذا مقامٌ لا يُدعىٰ فيه إلا الله » . فسُقُوا وأُغِيثوا »[1].

لله دَرُّه من قائدٍ تقيٍّ وليٍّ ! بمثله تنتصر الجيوش .. لا كغيره من قواد الهزيمة :

وَشِسْعُ النَّعْلِ مِن موسىٰ الوليِّ   يفـوقُ الهَـامَ منهمْ والجَبِينـا

لله دَرُّ القائد موسىٰ بن نصير !! أيّ همةٍ همتُه ؟!

إني أراكَ من المكارمِ عَسْكرًا   في عسْكرٍ وَمِنَ المعالي مَعَادِنَا

نعم يا سيدي :

أَكَلَتْ مَفَاخِرُكَ المفَاخِرَ وانثَنَتْ   عَنْ شأْوِهِنَّ مَطِيٌّ وَصْفي ظُلَّعَا[2]
وَجَرَيْنَ جَرْيَ الشمسِ في أفلاكِهَا   فقطعْنَ مغربَهَا وجُزْنَ المَطْلَعَا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٩٨ ، ابن الأثير ٤ / ٢٠٦ ، وفيات الأعيان ٤ / ٤٠٣ .

(٢) الشأو : الغاية ، وظُلّعًا : تمشي كأنَّ بها عَرجًا .

لَوْ نِيطَتِ الدنيا بأخرىٰ مِثْلِهَا لَعَمَمْنَهَا وخشيْنَ أنْ لا تَقْنَعَا

نعم يا سيدي :

لِو استفرغْتَ جُهْدَكَ في قتالٍ أتيتَ بهِ على الدنيا جَميعَا
قَدِ استقصَيْتَ في سَلَبِ الأعادي فُردّ لهمْ من السلَبِ الهجُوعَا
إذا ما لمْ تُسِرْ جيشًا إليهمْ أسَرْتَ إلى قلوبهمُ الهُلُوعَا
سَمَوْتَ بهمَّةٍ تسمو فتسمُو فما تُلْفَىٰ بمرتبةٍ قَنُوعَا
وَهَبْكَ سمَحْتَ حتىٰ لا جوادٌ فكيفَ عَلَوتَ حتىٰ لا رفيعَا

لله دَرُّه ! كيف كان طموحه أنْ يقود رجاله إلى « روميّة » ليفتحها ؟! وكيف كان طموحه يذهب به إلى مدًى أبعد من ذلك ، فيقود رجالَه مخترقًا ما بين الأندلس والقسطنطينية ، فاتحًا ما بينهما من أوربا ؟ فقد « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام دروبَه ودروبَ الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أُمَم الأعاجم النصرانية ، مجاهدًا فيهم ، مُستلحمًا لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة ، فنمىٰ الخبرُ إلىٰ الوليد بن عبد الملك ، فاشتدَّ قلقُه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنَّ ما هَمَّ به موسىٰ غرر بالمسلمين ، فبعث إليه بالانصراف ، ففتّ ذلك في عزْم موسىٰ ، وقفل عن الأندلس »[1].

ومات القائد موسىٰ وأغمض البطلُ عينيْه إلى الأبد ، ولكنّ التاريخ لم يُغمض عينيْه عن مآثره الخالدة ؛ ذلك لأنه « كان قد جمع من خِلالِ الخير ما أعانه الله سبحانه به ، على ما بنىٰ له من المجد المشيّد ، والذكر الشهير المخلَّد ، الذي لا يُبليه الليل والنهار ، ولا يُعَفّي جديدَه بِلَىٰ الأعصار »[2].

---

(١) نفح الطيب ١ / ٢١٨ .
(٢) نفح الطيب ١ / ٢٦٨ .

وفي واقعنا : رَحَل موسىٰ وبقي مَن يَدّعي إمْرةَ المؤمنين .. وأنه قُرشيٌّ ، مَن جمع حوْله أهلَ الغناءِ .. يُرسل بالطائرة الخاصة تحملُ مطربًا يُحيي له عيدَ موْلده !! ويساهم في إنشاء كازينو الليل ... يا أمير المؤمنين .. ما أنت بالحسَن ، يا قُرشيُّ .. ذهبتْ قريشُ التي نعرفها عطرًا وضياءً ومجدًا ، وخالدًا وعمرًا وعقبة .. وأتتْ قريشُ الأردن وقريشُ المغرب ...!! لسانُ حالِكم يقول :

قُريشيُّون لَكِنّا بغير اللهِ نعتصمُ ... ونسْتذْني كلابَ الأرض في المحرابِ تنتظمُ
فبئرُ النِّفْطِ بدّلنا أعاريبًا مُشَرذَمَةً ... وقبلتُه لَهَا نسعىٰ .. وما بِسِوَاهُ نلْتزمُ
قريشيُّون لكِنّا بنا نَسَبٌ يُدَنِّسُنَا ... « مُسَيلمةٌ » جرىٰ فينا ومِن سبأٍ أتىٰ صنمُ
غَدَا الإسلامُ في يدِنَا بَراميلًا ندحْرِجها ... وظَلَّ البيتُ يلعَنُنَا لأنَّا أُمَّةٌ غَنَمُ
عبدْنا اللهَ لَكِنَّا ... نُحبُّ اللاتَ والعُزَّىٰ ... وأصغَيْنَا لِقَوْلِ اللهِ يعلُو سمْعَنَا الصَّمَمُ
حمَلْنَا الإثمَ والعُدوانَ فوقَ البرِّ والتَّقْوَىٰ ... تواصيْنا بغيرِ الحقِّ ليسَ يضمُّنَا رَحِمُ
وخاصمْنَا كتابَ اللهِ ألقيْناه ظِهْريّا ... وأصبحْنا وأمسيْنا معَ الظُّلماتِ نرتَطِمُ
ونُذْبَحُ دونما ثمنٍ وَنَفْنَىٰ دونما أثرٍ ... ويلعَنُنَا ترابُ الأرضِ يَحْيَا بيننا العَدَم
تبعثرْنا علىٰ الأيام لا ندري لنا شرفًا ... تلاصقْنَا بِوَحْلِ الأرضِ لا يعلو لنا قَدَمُ
وشاهتْ كلُّ باسمةٍ تُلوِّثُ طُهْرَهَا يَدُنَا ... وكأسُ عذابِنَا المنكودُ فوقَ الرأسِ ينْحَطِمُ
خرْجنا من فِجاجِ الأرضِ في حَمَأٍ بِهِ نَتَنٌ ... ودينُ اللهِ في الأنحاءِ لا تسمُو به رِمَمُ
وعدْنا مِن غثاءِ السَّيْلِ يأبىٰ الكلُّ قصْعَتَنَا ... فليسَ جِفَانُنَا المملوءُ بالأقذارِ يُلتهمُ

يا أمير المؤمنين بالاستسلام لليهود ، وبفتح مُدن المملكة لهم ... يا مَرء القيس في أيامنا :

لجميعِ عَبيد رءوسِ العُرْبِ يُشرّفنا هذا الإعلانْ
« سيقومُ سيادةُ مَرءِ القيسِ تُرافقه زُمْرةُ فرسانْ

سيُيَمِّمُ شطرَ البيتِ الأسودِ يقرعُ أبوابَ الرومانْ
سيُعَرِّج مَرْءُ القيس على صنمٍ يطلبُ منهُ استئذانْ
سيعودُ إلينا مَرْءُ القيسِ ليحملَ شِرعةَ جُوستنيانْ
سيعودُ إلينا مَرْءُ القيسِ يُعَبِّئُ جُعْبَتَهُ الإيمانْ
إيمانٌ بسلامٍ عدلٍ وشمولٍ يملأ كلَّ مكانْ
بسلامٍ يقطع ثدْيَ الثَّكلىٰ كي تنسىٰ ألَمَ التَّمْنانْ
بسلامٍ ينشرُ كأسَ الخمرِ ويفتحُ حانًا للسكران
بسلامٍ يعزفُ للتلمودِ ليخنقَ ترتيلَ القرآنْ »[١]

فاتح الأندلس : طارق بن زياد :

مَوْلىٰ موسىٰ بن نصير ، ولكنْ يعْجز السادةُ عن أن يأتُوا بمعشار فتْحه .

جهّز موسىٰ جيشًا من البربر والعرب ، يبلغ سبعة آلاف مقاتل ، بقيادة طارق بن زياد الليثي ، فعبَر البحر من « سبتة » بجيشه تِباعًا ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة ، التي تسمَّىٰ بجبل طارق .

« وفي « تاريخ ابن بشكوال » أنه لمّا ركب البحر رأى - طارق - وهو نائمٌ النبيَّ ﷺ ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلَّدوا السيوفَ وتنكَّبوا القِسيّ ، فيقول له رسول الله ﷺ : « يا طارق ، تقدَّمْ لشأنك » . ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قُدّامه ، فهبّ من نوْمه مستبْشِرًا ، وبشَّر أصحابه ، وثابتْ نفسُه بِبُشْراه ، ولم يشكَّ في الظفر »[٢].

---

(١) قصيدة : « امرؤ القيس » مِن ديوان : « كيف السبيل » لخالد عبد القادر - طبع : مكتبة المنار .
(٢) نفح الطيب ١ / ٢٣١ .

قال طارق :

رَكِبْنَا سفينًا بالمجازِ مُقَيَّرا ... عسىٰ أنْ يكونَ اللهُ مِنَّا قدِ اشترىٰ
نفوسًا وأموالًا وأهلًا بجنَّةٍ ... إذا ما اشتهيْنا الشيءَ فيها تيسَّرا
وَلَسْنَا نبالي كيفَ سالتْ نفوسُنا ... إذا نحنُ أدركْنا الذي كانَ أجْدَرَا[1]

وتوالت انتصارات طارق ؛ ففتح مدينة « قرطاجنة الجزيرة » ، ثم زحف غربًا واستولىٰ على المنطقة المحيطة بها ، وبعد معاركَ مَحليَّةٍ أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء ، وكتب عاملُ « لذريق » - « تُدْميرُ » - إليه : « إنه قد نزل بأرضنا قومٌ ، لا ندري أمِنَ السماء هُم أم مِن الأرض » . فزحف « لذريق » لصدِّ المسلمين في نحو مائةِ ألفٍ ذوي عددٍ وقوةٍ ، وكتب طارق إلى موسىٰ بأنه قد زحف إليه « لذريق » بما لا طاقة له به ، فجهّز له وأمدَّه بخمسة آلاف ، فكملوا بمن تقدَّم اثني عشر ألفًا ، وقام طارق في أصحابه ، فحثَّ المسلمين على الجهاد ورغّبهم فيه ، قائلًا : « أيُّهَا الناس ، أين المفرُّ ؟! البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم واللهِ إلَّا الصدق والصبر » . والتقىٰ الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنةَ اثنتين وتسعين الهجرية على وادي « برباط » أو وادي « لكة » ، واستمرّت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام ، وانتهت بهزيمة القوط هزيمةً ساحقة ، وأقامت عظامهم بعد ذلك بدهرٍ طويل مُلْبِسةً لتلك الأرض ، وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين ، وأحدث انتصار طارق في وادي « لكة » دويًّا هائلًا في المشرق والمغرب ، وتسامَع الناسُ من أهل « برّ العدوة » بالفتح على طارق بالأندلس ، وسَعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه مِن كلّ وجه ، وخرقوا البحر على كلّ

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٦٥ .

ما قدروا عليه من مركب وقشر[1] ، فلحقوا بطارق .

وبدأ طارق يَجني ثمارَ جهاده وانتصاره في وادي لكة ، ففتح « شذونة » عَنوة ، ثم مضىٰ إلىٰ « المُدُور » ثم عطف على « قرمونة » ، ثم إشبيلية ، فصالحه أهلها على الجزية ، ومنها زحف إلى « إستجة » وكانت تؤلّف المركز الأول للمقاومة ؛ إذ كانت فلول القوط قد تجمّعتْ هناك ، فظفر طارق بصاحب المدينة ، وأرغمه على الصلح ، وفَرَض عليهم الجزية ، وعبَرَ طارقٌ الوادي الكبير ، فدخل طليطلة سنة ثلاث وتسعين ، دون مقاومة تُذكر ، وتغلغل طارق تغلغلًا عميقًا في أنحاء الأندلس ، ولم تقفْ هزيمة القوط على موضعٍ ، بل كانوا يُسلّمون ، بلدًا بلدًا ومَعقلًا مَعْقلًا ، وقذف الله في قلوبهم الرعب مِن طارقٍ ، لمّا رأوْه يُوغِل في البلاد ، وكانوا يحسبونه راغبًا في المَغْنم ، عاملًا على القُفُول ، فَسُقِطَ في أيديهم ، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل .

وعبر موسىٰ إلى مولاه طارق ، ولمّا التقيا قال موسىٰ لطارق : « يا طارق، إنه لن يُجازيَك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحَك الأندلس ، فاستبحْه هنيئًا مريئًا » . فقال له طارق : « أيُّهَا الأمير ، والله لا أرجع عن قصدي هذا ، ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط ، أخوض فيه بفرسي » . يعني : البحر الشمالي ، ولم يزل طارق يفتح وموسىٰ معه إلى أن بلغ « جلّيقية » ، وهي على ساحل البحر المحيط[2] . اهـ .

يا شَـذَا ذكْـرِ طارقِ بن زيادٍ ضـوّعتْ مِن عبيرِه العَرَصَـاتُ
أنتَ فوقَ الأمواجِ تقدُم جيشًا أولًا عيـب تستغـير الفـلاةُ

---

(١) يُراد به : الزَّوْرق الصغير .

(٢) نفح الطيب ١ / ٢٤٢ .

كُلّمـا دقّ للفتـوح بطَبْـلٍ مجّـدَتْ وافـدَ الكمـيّ لُغاتُ
جـاءَ أسبانـيا بِمَقْـدِمِ صِـدْقٍ نُشـرتْ في مسـيرهِ هَبَـواتُ
وإذا ما سمِعـتَ للسيفِ قـوْلًا فهـوَ حـقٌّ وهـلْ يخونُ الثِّقاتُ
والقنـاةُ التي بكفِّ شُجـاعٍ صُـوِّبتْ مِن زنادهـا الطَّلَقـاتُ
وإذَا الكفُّ بالقنـاةِ جبـانٌ فَمِنَ العَجْز أنْ تُصيبَ القَناةُ[1]

ونحن يا طارق ، يا قابض الجزية من القوط :

صار ميراثُنا بيد الغرباء
نستقي بعد خيل الأجانب من ماء آبارنا
صُوفَ جِمْلاننا
ليس يلتفُّ إلا على مغْزَلِ الجزية
النار لا تتوهّج بين مضاربنا
بالعيون الخفيضة نستقبل الضيف
أبكارنا ثيّبات .. وأولادنا للفِرَاش
فمَن سيروّضُ مُهْرَ الخِيالْ
ومن سيضمّدُ في آخرِ الصيد جُرْحَ الغزالْ
ومن للرجالْ ؟!
إذا قيلَ : ما نَسَبُ القوم ؟
فانسكبتْ في خدود الرمالْ
دموعُ السؤالْ
أبي ظَامِىءٌ يا رجالْ

(١) مِن قصيدة : « سيرة الأبطال » للشيخ عائض القرني صـ ٢٠ – طبع : دار جرش للنشر والتوزيع .

أريقوا له الدمَ كي يرتوي
وصبّوا له جَرعةً في الفؤاد الذي يكتوي
عسىٰ دمه المتسرِّب بين عروقِ النباتات ... بين الرمالْ
يعود له قطرةً قطرةً
فيعود له الزمن المنطوي

يا مدريد :

يا مدريد ... قد جاءك طارق وجئناك ، وعندك الخبر اليقين .. فحدّثي :

أرقتُ وليلي مُذ فُجعتُ طويلُ — أَيُلامُ في حِفْظِ الهوىٰ مَتْبولُ
ما زلتُ أرقُبُ في شذاك أحبّتي — فمتى سَيَشفىٰ يا نسيمُ عَليلُ
أشقانيَ المحرابُ يسأل عنهمُ — مُذْ فارقُوا والمنبرُ المثكول
والمصحفُ المطوِيُّ يسأل عنهمُ — قدْ شاقهُ الترتيلُ والتأويلُ
مَنْ هؤلاءِ القادمونَ ؟ أَعقبةٌ ؟؟ — المجدُ في عزَمَاتِهِ مَوْصولُ
أمْ طارقٌ تشكُو القواربُ مجدَهُ — والفتحُ فوقَ رِكابهِ مَحمولُ
مَنْ هؤلاءِ القادمونَ جلودُهُمْ — سُمْرٌ ولكنْ في القلوبِ شهُولُ
لمْ يستقلُّوا الصافناتِ وإنَّما — رَكِبُوا بغالًا سَعْيُهُنَّ ثقيلُ
وتجرَّدُوا مِن كلِّ أبيضَ صارمٍ — للمجدِ فيهِ تلألُؤٌ وصَليلُ
جاءُوا يَسوقهُمُ الأعادي عَنوةً — فهُمُو لهُمْ بينَ الأنامِ ذُيولُ
جاءُوا إلى مدريدَ بئسَ مَجيئهُمْ — لا السعيُ محمودٌ ولا مأْمُولُ
جاءُوا ويا بئسَ المجيء مجيئُهم — حُمُرٌ تُساقُ إلى الردىٰ وعُجولُ
جاءُوا وخلْفَهمُ الكرامةُ تشتكي — أسَفًا وجنْبُ المسلمين ذليلُ

يَـٰأَيُّهَا الأقصىٰ الأبيُّ وقد عَلا فـوْقَ المـآذنِ غاصِـبٌ ودَخِيلُ
يَـٰأَيُّهَا الأقصىٰ الأبيُّ وقد جَثَا فَـوْقَ المنــابرِ خــائنٌ وعميلُ

قُتَيْبَةُ بنُ مسلمٍ الباهِليّ ، فاتح خوارزم وبُخارىٰ وسمرقند :

قال الذهبي في السير (٤ / ٥٠١ ، ٤١٠) : « كان لقتيبة بن مسلم بالمشرق فتوحات لم يُسمع بمثلها » .

الأمير أبو حفص ، أحدُ الأبطال والشجعان ، ومِن ذوي الحَزْم والدهاءِ ، والرأي والغناء ، وهو الذي فتح خوارزم ، وبخارىٰ ، وسمرقند ، وكانوا قد نقضوا وارتدُّوا ، ثم إنه فتح « فرغانة » وبلاد الترك ، في سنة خمسٍ وتسعين .

أرسل عبد الملك بن مروان إلى الحجّاج بن يوسف : « انظر لي رجلًا صارمًا ، ماضيًا لأمرك » . فسمَّى قتيبةَ بن مسلم ، فكتب إليه : « وَلِّهِ » . فأسند إليه إمارة خراسان ، فتسلّمها سنة خمسٍ وثمانين هجرية .

ولمّا قدِمَ قتيبة خراسان ، جمع الناسَ وحضَّهم على الجهاد ، وقال : « أمّا بعد .. إنّ اللهَ أحلّكم هذا المحلّ لِيعزّ دينه ، ويَذبَّ بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المالَ استفاضةً ، والعدوَّ وَقَمًا[1] ، ووعد نبيَّه ﷺ النصرَ ، بحديث صادق ، وكتابٍ ناطق ، فقال : ﴿ **هُوَ الذي أرسلَ رسولَهُ بالهدَىٰ وَدِينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ علىٰ الدِّين كلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشْركونَ** ﴾ [الصف : ٩] ، ووعدَ المجاهدين في سبيلِهِ أحسنَ الثواب ، وأعظم الذُّخْر عنده ، فقال : ﴿ **ذٰلِكَ بأنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمصَةٌ في سبيلِ اللهِ ولا يطئونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكفارَ ولا يَنالُونَ مِنْ عدوٍّ نَيْلًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالحٌ إنَّ اللهَ**

(١) ذُلًّا .

لا يُضِيعُ أجرَ المُحْسِنِينَ وَلَا يُنفِقُونَ نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعونَ واديًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجزيَهم اللهُ أحسنَ ما كانُوا يعملونَ ﴾ [التوبة : ١٢٠ - ١٢١] ، ثم أخبرَ عمَّن قُتل في سبيله أنه حيٌّ مرزوقٌ ، فقال : ﴿ **ولا تَحسبَنَّ الذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتًا بَلْ أحياءٌ عندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٩] ، فتنجّزوا موعودَ ربِّكم ، ووطِّنوا أنفسَكم علىٰ أقصىٰ أثرٍ وأمضىٰ ألمٍ ، وإيايَ والهُوَيْنَىٰ »[١] .

لقد اشتُهر في فتح المشرق كثيرٌ من القادة ، كانوا شُهُبًا أضاءت سماءَ المشرق ، وانفتحت أمام عزيمتِهم أبوابُ الدنيا ، وسقطت دولة بني ساسانَ تحت سنابك جندهم ، وعندما جاء قتيبة ، وجد طابورًا خامسًا ممَّن تمرَّسوا قتالَ المسلمين ، وعرفوا أساليبَ حربهم ، ومع هذا أذلّ أنوفَهم ، وهنا يظهر عُلوُّ همّةِ هذا القائد الذي لا يُبارَىٰ ، ولقد فتح رحمه الله أقاليمَ واسعةً ، تزيد على ما فتحه أسلافه كلهم ، ويزيد الأمرَ أهميةً طبيعةُ الأقاليم الصعبة ، ومناخها القاسي ، وطبيعةُ سكّانها المقاتلين الأشدَّاء ، كما عرَفهم تاريخ الحروب منذ زمنٍ بعيدٍ ، ويَكفي شرفًا لقُتيبة شهادةُ « الأصبهبذ » - ملك الترك - له ، عندما علم بمَصْرعه ؛ فقد قال لرجالٍ كانوا عنده : « يا معشر العرب ، قتلتم قُتيبة ويزيد[٢] ، وهما سيدا العرب ! » . فقيل له : « فأيُّهما كان أعظم عندكم وأهيب ؟ » . قال : « لو كان قتيبة بالمغرب ، بأقصىٰ جحر به في الأرض ، مكبّلًا بالحديد ، ويزيدُ معنا في بلادنا والٍ علينا ، لَكَانَ قتيبةُ أهيبَ في صدورنا وأعظم مِن يزيد »[٣] .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٤٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٤ / ١٠٥ .
(٢) يزيد بن المهَلّب بن أبي صفرة ، وكان واليًا على خراسان قبل قتيبة .
(٣) « قتيبة بن مسلم الباهلي » لبسّام العسلي صـ ٧٣ - ٧٤ - دار النفائس .

الفتـوح :

لمّا قَدِمَ قتيبة خراسان سنة خمسٍ وثمانين هجرية ، عَرَضَ الجند في السلاح والكُراع ، فكان جميعُ ما أحصَوْا مِن الدروع في جند خُراسان ثلاثمائة وخمسين درعًا ، وبعد أن أتمّ تنظيمه غادر مرو ، واستخلف على حرْبها إياس بن عبد الله بن عمرو ، وعلى الخراج عثمان بن السعدي ، وعندما وصل الجيش إلى نهر «جيحون»- المعروف حاليًا باسم «أموداريا»- توقّف في بلخ[١] ؛ لأن بعضَها كان منتقضًا عليه ، وقد ناصَب المسلمين ، فحارَب أهلَها ، ثم إنّ أهل بلخ صالحوا مِن غدِ اليوم الذي حاربهم قتيبة ، فأمر قتيبة بردِّ السَّبْي ، ثم مضىٰ إلى « الطالقان »[٢] بعد أن استقبل دهاقين بلخ ، وبعض عظمائهم الذين ساروا معه ، فلما قطع نهر جيحون تلقّاه ملك « الصغانيان »[٣] بهدايا ومفتاحٍ مِن ذهب ، فدعاه إلى بلاده فأتاه ، وأتىٰ « كفتان » بهدايا وأموال ودعاه إلى بلاده ، فمضىٰ إلى الصغانيان ، وكان ملك « أخْرون » و« شومان » – وهما من طخارستان – قد أساء جوار ملك الصغانيان ، فغزا قتيبةُ أخرون وشومان ، فجاءه ملكُها « غيسلشنان » ، فصالحه على فديةٍ أدّاها إليه ، فقبِلها قتيبة ، ثم قفَل فركِب السفن ، فانحدر إلى بلدة « آمل » ، وخلّف الجند بقيادة أخيه صالح بن مسلم ، وتقدّم قتيبة جندَه فسبقهم إلىٰ مرو ، وفتح صالحُ – وهو في طريقه – مدينة « باسارا » ، ثم تابع طريقه إلى بلخ ، فمرو ، وعندما بلَغ الحجاجَ ذلك ، كتب إلى قتيبة يلُومه ، ويُعجّز رأيه في تخليف الجند ، وكتب إليه : « إذا غزوتَ فكنْ في مقدمِ الناس ،

---

(١) مدينة بخراسان .

(٢) بلد بخراسان بين « مرو الروذ » و« بلخ » .

(٣) ولاية عظيمة فيما وراء نهر « جيحون » متصلة الأعمال بـ« ترمذ » .

وإذا قفلت فكنْ في أُخْرياتهم وساقتهم » .

أمضىٰ قتيبة عام ٨٦ هـ = ٧٠٥ م في تنفيذ هذه العمليات ، التي كانت بمثابة استطلاعٍ مَيْداني للموقف أكثرَ منها عمليات قتالية ، وعندما رجع إلى مقرِّ عملياته ، ومركزِ إدارته لإقليم خراسان ، انصرف إلى إدارة ولايته ، استعدادًا للمرحلة القتالية التالية ، في سنته القادمة .

غَزْو « بيكند »[1] :

علم قتيبة بوجودِ أسرىٰ للمسلمين في قبضة « نيزك » ملك طرخان ، فكتب إليه طالبًا إطلاق سراح الأسرىٰ ، وتهدّده في كتابه ، فخاف نيزك ، فأطلق الأسرىٰ وبعث بهم إلى قتيبة . فوجّه إليه قتيبةُ مَن يدعوه إلى الصلح ، وإلى أن يُؤَمِّنه ، وكتب إليه كتابًا يحلِفُ فيه بالله لئن لم يقدم عليه لَيغزونَّه ، ثم لَيطلبنَّه حيث كان ، لا يقلع عنه حتى يَظفر به ، أو يموت قبل ذلك ، وتوجَّه سفير قتيبة إلى نيزك والكتاب بيده ، وكان يستنصحه ، فقال نيزك للسفير : « ما أظنُّ عند صاحبك خيرًا ، كتب إليّ كتابًا لا يُكْتبُ إلىٰ مثلي ! » . فقال له السفير : « يا أبا الهياج ، إنَّ هذا رجلٌ شديد في سلطانه ، سهل إذا سُوهل ، صعبٌ إذا عُوسر ، فلا يمنعك مِن غلظة كتابه إليك ، فما أحسنَ حالَك عنده وعند جميع مضر » . فقدِم نيزك مع السفير على قتيبة ، فصالحه أهل « باذغيس » في سنة ٨٧ هـ = ٧٠٦ م على ألا يدخل باذغيس . وبعد أنْ أمِن قتيبة شرَّ نيزك وصالحه ، أقام إلى وقتِ الغزو ، ثم سارَ من مرو وأتىٰ مرو الروذ ، ثم أتىٰ « زم » ، ثم مضىٰ إلى « آمل » ، فقطع نهر جيحون وسار إلى بيكند ، وعندما علم أهل بيكند باقتراب جيش قتيبة ، استنصروا

(١) بيكند : أدنىٰ مدائن بُخارىٰ إلى نهر جيحون ، يُقال لها : مدينة التجار ، علىٰ رأس المفازة من بُخارىٰ . « تاريخ الطبري » ٦ / ٤٣٠ .

الصغد ، واستمدّوا مَن حولهم ، فأتوْهُم في جمع كثير ، وأخذوا بالطريق - قطعوا عليهم محاور اتصالهم بالخليفة - فلم ينفَذْ لقتيبة رسول ، ولم يصل إليه رسول ، ولم يجر له خبرٌ شهرين ، وأبطأ خبرُه على الحجاج ، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاءِ لهم في المساجد ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، وهم يقتتلون كلَّ يوم .

كان لقتيبة جاسوس - عين - يقال له : « تنذر » ، من الفرس العجم ، فأعطاه أهل بخارى الأعلى مالًا على أن يصرف عنهم قتيبة ، فأتى تنذر إلى قتيبة ، وطلب الاجتماع به على انفرادٍ ، فنهض الناسُ وانصرفوا ، واحتبسَ قتيبةُ ضرارَ بن حصين الضَّبِّي حتى يحضر المقابلة ، فقال تنذر : « هذا عامل يقدم عليك ، وقد عُزل الحجاج ، فلو انصرفتَ بالناسَ إلى مرو ! » . فدعا قتيبة « سياه » مولاه ، فقال : « اضرب عنقَ تنذر » . فقتله ، ثم قال لضرار : « لم يبقَ أحدٌ يعلم هذا الخبر غيري وغيرك ، وإني أُعطي اللهَ عهدًا : إنْ ظهر هذا الحديثُ مِن أحدٍ حتى تنقضي حربنا هذه لألحقنَّك به ، فاملُكْ لسانك ، فإنَّ انتشارَ هذا الحديث يفتُّ في أعضادِ الناس » . ثم أذِن قتيبة للناس بالدخول عليه ، وعندما دخلوا راعَهم قتلُ تنذر ، فوجموا وأطرقوا ، فقال قتيبة : « ما يروعكم مِن قتل عبدٍ أحانه الله ؟! » . قالوا : « إنا كُنَّا نظنُّه ناصِحًا للمسلمين » . قال : « بل كان غاشًّا ، فأحانه الله بذنبه ، فقد مضى لسبيله ، فاغدُوا على قتالِ عدوِّكم ، والقوهم بغير ما كنتم تلقوْنهم به » . فغدا الناس متأهِّبين ، وأخذوا مصافَّهم ، ومشى قتيبة ، فَحَضَّ أهل الرايات ؛ فكان بين الناس قتالٌ بالرماح ، ثم تزاحفوا والتقَوْا ، وأخذتِ السيوف مأخذها ، وأنزل الله على المسلمين الصبرَ ، فقاتلوهم حتى زالت الشمس ، ثم منح الله المسلمين أكتافهم ، فانهزموا يريدون المدينة ، واتَّبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول ، فتفرَّقوا ، وركبهم المسلمون

قتلًا وأسرًا كيف شاءوا ، واعتصم مَن دخل المدينةَ بالمدينة ، وهم قليلٌ ، فوضع قتيبة الفَعَلة - المهندسين - للعمل في أصلها لِيهدمها ، فسألوه الصلح ، فصالحهم ، واستعمل عليهم رجلًا من بني قتيبة ، ثم ارتحلَ عنهم يريد الرجوع ، فلمّا سار مرحلة أو اثنتين - وكان منهم على خمسة فراسخ (خمسة عشر ميلًا) - نقضوا وكفروا ، فقتلوا العامِلَ وأصحابَه ، وجدَعُوا أنوفَهم وآذانهم ، وبلغ قتيبةَ الخبرُ ، فرجع إليهم وقد تحصنوا ، فقاتلهم شهرًا ، ثم وضع الفَعَلة في أصل المدينة ، فعلّقوها بالخشب ، وهو يريد - إذا فرغ من تعليقها - أن يحرِق الخشب فتنهدم ، فسقط الحائطُ وهم يعلّقونه ، فقتل أربعين مِن الفعلة ، فطلبوا الصلح فأبىٰ ، وقاتلهم حتىٰ ظفر بهم عَنوة ، فقتل مَن كان فيها مِن المقاتِلة ، وكان فيمن أخذوا في المدينة رجلٌ أعور ، كان هو الذي استجاش (استثار) الترك على المسلمين ، فقال لقتيبة : « أنا أفدي نفسي » . وسألوه : « ما تبذل ؟ » . قال : « خمسة آلافِ حريرةٍ صينية ، قيمتُها ألفُ ألفٍ » . فقال قتيبة : « ما ترون ؟ » . قالوا : « نرىٰ أنّ فداءَه زيادةٌ في غنائم المسلمين ، وما عسىٰ أن يبلغ مِن كيْد هـذا ؟! » . قال : « لا والله لا تُرَوَّعُ - لا تُخاف - بك مسلمةٌ أبدًا » . وأمر به فَقُتِلَ .

لما فتح قتيبة « بيكند » ، أصاب المسلمون فيها مِن آنية الذهب والفضة ما لا يُحصىٰ ، وصار في أيدي المسلمين شيءٌ لم يصيبوا مثله بخراسان ، ورجع قتيبة إلى مرو ، وقوي المسلمون فاشترَوْا السلاح والخيل ، وجُلبت إليهم الدوابُّ ، وتنافسوا في حُسْن الهيئة والعدّة ، وغالوا بالسلاح ، حتى بلغ الرمح سبعين دينارًا[1] . وكان في الخزائن سلاح وآلة حرب كثيرة ،

---

(١) ولّى قتيبة لقسمة الغنائم عبدَ الله بن وَأْلان العدوي - أحد بني مَلَكَان ، =

فكتب قتيبة إلى الحجاج يستأذنه في دفْع ذلك السلاح إلى الجند ، فأذن له ، فأخرجوا ما كان في الخزائن مِن عُدّة الحرب وآلة السفر ، فقسمه في الناس ، فاستعدُّوا ، فلما كان أيام الربيع ، ندب الناسَ وقال : « إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد ، وأنتقلكم قبل أنْ تحتاجوا إلى الإدفاء - من البرد - فسار في عُدّة حسنة من الدوابّ والسلاح ، فأتى « آمل » ، ثم عبر مِن « زم » إلى « بخارىٰ » ، فأتىٰ « نومشكت » - وهي من بخارىٰ - وذلك بعد أن استخلف على مرو بشار بن مسلم .

كان التحرك المبكّر لقتيبة غير مُتوقَّع ، فبُوغت أهل نومُشَكَت ، مما حملهم على استقبال قتيبة ، وعقد الصلح معه في عام ٨٨ هـ = ٧٠٧ م ، ثم سار قتيبة إلى « راميثنه » ، فصالَحه أهلها أيضًا ، فانصرف عنهم ، وزحف إليه الترْك ، ومعهم « السغد » وأهل « فرغانة » ، فاعترضوا المسلمين

= وكان قتيبة يسميه : الأمين ابنَ الأمين - ومعه إياسَ بن بيْهس الباهلي ، فأذَابا الآنية والأصنام ، فرفعاه إلى قتيبة ، ورفعا إليه خَبَثَ ما أذابا - من بقية الذهب غير النقي والأوشاب - فوهبه لهما ، فأُعطيا به أربعين ألفًا ، فأعلماه ، فَرَجَعَ فيه وأمرهما أن يذيباه ، فأذاباه ، فخرج منه خمسون ألف مثقال . وفي كثرة غنائم هذا اليوم قال الشاعر الكُمَيْت :

ويومَ بِيكَنْدَ لا تُحصَىٰ عجائبهُ وما بُخارَاءُ ممّا أخطأَ العَدَدُ

ساعدت وفرة الغنائم قتيبة على شراء اثني عشر ألفًا من جياد الخيل ، واثني عشر ألفَ هجينٍ . ودفع ثمن كل راحِلة أربعة آلاف درهم ، وتعهدها بالرعاية طوال فصل الشتاء ، وعندما أخذ في الاستعداد لغزْو نومشكت وراميثنه ، قيّد الخيولَ وأضْمرها ، حتى تذوبَ شحومُها وتصبح أكثر خفّةً ، لتجاوز الأنهار ، وقفْزِ الحواجز ، والسيْر في المسالك الوعرة . ثم عهد بهذه الخيول إلى أشرف الفرسان الذين يدفعهم في الطلائع (المقدمات) .

في طريقهم ، فلحِقوا عبدَ الرحمـٰن بن مسلم الباهلي ، وهو على الساقة « المؤخرة » ، بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميلٌ واحد ، فلما قربوا منه أرسل رسولًا إلى قتيبة يخبره ، وغَشيهُ الترك ، فقاتلوه ، وأتىٰ الرسول قتيبة فرجع بالناس ، فانتهىٰ إلى عبد الرحمـٰن وهو يقاتلهم ، وقد كاد الترك يُلحقون بهم الهزيمة ، فلمّا رأى الناسُ قتيبة ، ارتفعتْ رُوحهم المعنوية ، وصبروا ، واستمرّ القتال حتى الظهر ، وأبلى يومئذ نيزك – وهو مع قتيبة – بلاءً حسنًا ، فهـزم اللهُ التركَ وفضَّ جمعَهم . ورجع قتيبـة إلى قاعدته (مرو) ، وقطع النهر مِن الترمذ إلى بلخ ثم إلى مرو . وقال الباهليُّون : لقي التركُ المسلمـين – عليهم « كوربغانون » التركي ، ابن أخت ملك الصين – في مائتي ألف ، فأظهر الله المسلمين عليهم .

بدأ قتيبة عملياته في السنة التالية : ٨٩ هـ = ٧٠٨ م ، مع إطْلالة الربيع ، وعبَر نهر جيحون عند « زم » ، وتجمّع بقوات الصُغْد[1] و« كش » و« نسف » ، عند بداية المفازة الصحراوية ، وبعد معركة ضاريةٍ ، انتصر المسلمون على الترك . ومضىٰ قتيبة بالمسلمين حتى نزل بخرقانة السفلى ، عن يمين وردان ، فلقُوه بجمع كبير ، فقاتلهم يومَيْن وليلتين ، حتى ظَفِرَ عليهم ، ثمّ إنَّ قتيبةَ غزا « وردان خذاه » ملك بخارىٰ ، فلم يتمكّن من حسْم الصراع معه ، ولم يظفر مِن البلد بشيءٍ ، فرجع إلى مرو ، وكتب إلى الحجَّاج بذلك ، فكتب إليه الحجَّاج : « أن صَوِّرْهَا لي » . فبعث إليه بصُورتها (مخططها) ، فكتب إليه الحجَّاج : « أن كِسَّ بـ« كش » ، وانسفْ « نسَف » ، وَرِدْ « وَرْدان » ، وإيَّاكَ والتحويط ، ودعني مِن بنيات الطريق ، وارجعْ إلى مراغتك ، فتبْ إلى الله مِمّا كان منك ، وأْتِهَا مِن مكانِ

(١) ولاية عظيمة ، عاصمتُها : سمرقند ، وهي وعِرة المسالك ، اشتُهر أهلُها بالبطولة والبسالة .

كذا وكذا »[١].

فتح بُخارىٰ (٩٠ هـ = ٧٠٩ م) :

لم تكن أعمالُ السنوات السابقة في حياة قتيبة بن مسلم ، أكثر من غزوات استطلاعية ، ودراسة ميدانية للطبيعة البشرية والطبيعة الجغرافية ، وأساليب القتال الملائمة .

وجاءت رسالة الحجاج ، وفيها انتقاص مِن كفاءة قتيبة ، وتحذيره له من نِقاط ضعْفٍ ، لا يجوز لقائد كقتيبة الوقوع فيها ، فخرج قتيبة لغزاته في عام تسعين هجرية ، وهو أكثر تصميمًا على بلوغ هَدَفِه .

وكان « وردان » ملك بخارىٰ قد استعد لمجابهة احتمال هجوم قتيبة ، فأرسلَ في طلب الدَّعْم من الصغد والترك ومَن حولهم ، وسَبَق قتيبةُ وصولَ الدعم ، فحصر بخارىٰ ، وطوّق قواتِ وردان .

عندما وصلت قوات الدعم ، خرجت قوّة من المسلمين لقتالها ، فقالت قبيلة الأزد – وقد أرادتْ شَرَفَ مجابهة قوات الدَّعم وحدَها – : « اجعلونا على حِدَة – ناحية – وخلُّوا بيننا وبين قتالِهم » . فوافق قتيبة ،

---

(١) انسفْ : نسف : بمعنى : دَمّرْ بلدة نَسف . وإياك والتحويط : بمعنى : احذرْ من التردُّد أو اللُّجوءِ إلى الأهداف الثانوية ، وركزْ على المواقع الهامّة . وحوِّطْ : بمعنى : طَوِّقْ ، أو ابنِ حوْله حائطًا . وإياك وبنيات الطريق : أي : اسلكِ الطريق المستقيم الذي لا تعريج فيه ، وابتعدْ عن الطرق الفرعية . وارجعْ إلى مراغتك : أي : ارجعْ إلى بخارىٰ واجعلْها هدفًا لك . والمراغة في الأصل : مُتمرغ الدابة . وأراد الحجاج من قتيبة أنْ يفتح بخارىٰ ويجعلَها قاعدةً له ، ويتقلّب فيها كما تتقلّب الدابة في مراغتها . (الطبري ، وابن الأثير – أحداث سنة ٨٩ هـ) .

وتقدّمت قبيلة الأزدْ للقتال - وقتيبة جالسٌ ، عليه رداء أصفر فوق سلاحه - فصبروا جميعًا في معركة طاحنةٍ كان التفوُّق فيها لصالح قوات الدعم ، ولم تلبث هذه القوات أن حطَّموا صمود الأزد ، واندفعوا في تقدّمهم حتى دخلوا معسكر قتيبة ، وجاوزوه إلى منطقة الشئون الإدارية ، ومعسكر النساء ، فخرجتِ النساء المسلمات لمجابهة قوات العدو ، حتى ضرب النساء وجوهَ الخيل ، وعندئذٍ تدخّل قتيبة ، فأمر المَجْنبتين بتطويق قوات الترك وإبادتها ، وأسرع هؤلاءِ بالانسحاب إلى منطقة مرتفعة ، فقال قتيبة : « من يزيلهم لنا عن هذا الموضع ؟ » . فلم يقدُم عليهم أحد ، والأحياء من العرب كلهم وُقُوفٌ ، فمشىٰ قتيبة إلى بني تميم ، وحضَّهم على القتال ، بقوله : « يومٌ كأيامِكم » . وتقدّم وكيعٌ - من تميم - فحمل الراية ، واستثار قومه ، وسلّم الراية لقائد فرسان تميم : هريم بن أبي طلحة المجاشعي ، في حين تولّى وكيع قيادة قوّة المشاة ، ووصلتْ قبيلة تميم بفرسانها ومشاتها إلى نهرٍ واسع ، وتقدّم الفرسان بقيادة هريم ، حتى خاضُوا النهر وعبروه إلى الضفة المقابلة ، فيما كان وكيع يجمع الخشب ، حتى أقام جسرًا على النهر ، وقال لأصحابه : « مَنْ وطّن نفسه على الموت فلْيعبر ، ومَنْ لا ، فليثبت مكانه هنا » . وعبَرَ الجسر ثمانمائة مقاتل ، وسار بالقوة بعد ذلك ، حتى اقترب من العدو ، فأعطى جنده المشاة فترةَ استراحة قصيرة ، ومضىٰ لتنظيم قواته ، فجعل الخيلَ على مجنبتيْه لحمايتهما ، ثم قال لهريم : « إني مُطاعِنٌ القوم ، فاشغلْهم عنّا بالخيل » . وقال للناس : « شدُّوا » . فحملوا ، فما انثنَوْا حتى خالطوهم ، وحمل هريم خيلَه عليهم ، فطاعنوهم بالرماح ، فما كفُّوا عنهم حتى حَدَرُوهم عن موقفهم ، ونادى قتيبة : « أمَا تَرَوْن العدوَّ منهزمين ؟ » . فأتْبعهم الناسُ ، ونادىٰ قتيبة : « مَن جاء برأسٍ فلهُ مائة » . وانطلق الجند يعبرون النهر ، وأسرعتْ قوات الخَصم

بإخلاء ميدان المعركة ، والانسحاب بسرعةٍ قبل أن تصلَهم قوات المسلمين .

كان من نتيجة الهزيمة المنكرة التي نزلت بجيشَي الصغد وبخارىٰ ، وإصابة خاقان الترك وابنه في المعركة ، أن تقدّم ملك السّند « طرخون » ، حتى وصل الضفة المقابلة مِن نهر جيْحون ، وعرض على قتيبة الصلح ، فوافقه قتيبة ، ووقّعا اتفاقية الصلح ، وعندما رجع « طرخون » إلى بلاده ، رفض أهل مملكته قبول الصلح ، وخلعُوه عن الملْك ونَصبُوا ابن أخيه مكانه ، وشعر « طرخون » بالألم لهذا الموقف المتمرّد ، فاتّكأ على سيْفه وانتحَر .

وأرسل الملك الجديد رسولًا يعلن رفضَه لاتفاقية الصلح المعقودة مع عمّه ، وفي الوقت ذاته ، كان قتيبة ينظّم أمور بخارىٰ ، حتىٰ إذا فرغ منها ، رجع إلى مرو ومعه نيزك ، وقد أذهله ما شهِده من فتوح ، وأصبح يخاف بَأْسَ قتيبة . فقال لأصحابه وخاصته : « ... مُتَّهَمٌ أنا مع هذا ، ولست آمَنه ، وهو شديد السطوة فاجرٌ ، فلو استأذنتُه ورجعتُ ، كان الرأي » . قالوا : « استأذنْه » . فلما كان قتيبة بآمل ، استأذنه في الرجوع إلى تخارستان ، فأذِن له ، فلما فارق عسْكره متوجّهًا إلى بلخ ، قال لأصحابه : « أغذوا السير » . فساروا سيْرًا شديدًا ، حتى أتوْا النوبهار ، حيث قال لأصحابه : « إني لا أشكّ أن قتيبة قد ندِم حين فارقْنا عسكره على إذنه لي ، وسيقْدم الساعةَ رسوله على المغيرة بن عبد الله يأمره بحبْسي ، فأقيموا ربيئةً - نقطة مراقبة - للنظر ، فإذا رأيتم الرسول قد جاوز المدينة ، وخرج من الباب ، فإنه لا يبلغ « البروقان » ، حتى نبلغ تخارستان ، فيبعث المغيرة رجلًا ، فلا يدركنا حتى ندخل شعب (خُلُم) » . ففعلوا . ولم تمضِ سوى فترة قصيرة ، حتى أقبل رسولٌ مِن قبل قتيبة إلى المغيرة يأمره بحبْس نيزك ؛ فلمَّا مرّ الرسول إلى المغيرة وهو بالبروقان - ومدينة بلخ يومئذ

خراب - ركب نيزك وأصحابه فمضَوا ، وقدِم الرسولُ على المغيرة فركب بنفسه في طلبه ، فوجده قد دخل شِعب « خُلُم » ، فانصرف المغيرة ، وأظهر نيزك الخلْع ، وكتب إلى « إصبهبذ » بلخ ، وإلى « باذام » ملك « مرو الروذ » ، وإلى « سهرب » - أو سهرك - ملك الطالقان ، يدعوهم إلى خلْع قتيبة فأجابوه ، وواعدهم الربيع أنْ يجتمعوا ويغزوا قتيبة .

كان ملك تخارستان - واسمه : جبغويه - ضعيفًا ، فأخذه نيزك ، فقيّده بقيدٍ من ذهبٍ ، مخافة أن يشغب عليه - وجبغويه ملك تخارستان ، ونيزك مِن عبيده ، جعله قائدًا لقواته - فلمّا استوثق منه ، وضع عليه حراسة قوية ، وأخرج عاملَ قتيبة من تخارستان ، وبلَغَ قتيبةَ خلْعُه قبل الشتاء ، وقد تفرّق الجند ، فلم يبقَ مع قتيبة إلا أهل مرو ، فبعث عبد الرحمٰن أخاه إلى بَلْخ في اثني عشر ألفِ مقاتل ، وكلّفه بالتوجُّه إلى البروقان ، وقال له : « أقمْ بها ، ولا تُحدِث شيئًا ، فإذا حسرَ الشتاء ، فعَسْكِرْ وسِرْ نحو تخارستان ، واعلمْ أني قريبٌ منك » . فسار عبد الرحمٰن فنزل البروقان ؛ وأمهَلَ قتيبة ، حتى إذا كان آخر الشتاء ، كتب إلى « أبرشهر » ، و« بيورد » ، و« سرخس » ، وأهل « هراة » ، لِيقدموا قبل أوانهم الذي كانوا يَقْدمون عليه فيه للغزو والحرْب .

كان أول من استجابَ لنيزك : طرخان ملك الطالقان ، واتّفق معه على حرب قتيبة ، فلمّا هرَبَ نيزك من قتيبة ودخل شِعبَ خُلم الذي يصل إلى طخارستان ، علم أنه لا طاقة له بقتيبة ، فهرب ، وسار قتيبة إلى الطالقان ، فأوقع بأهلها ، وقتل منهم مقتلةً عظيمة ، وصلَب منهم على امتدادِ أربعة فراسخ - اثني عشر ميلًا - في نظامٍ واحدٍ .

مضىٰ فصل الشتاء ، وجاء العام الجديد (٩١ هـ = ٧١٠ م) ، وقدِم أهل « أبرشهر » ، و « بيورد » ، و« سرخس » ، و« هراة » ، بجيوشهم

على قتيبة ، فسار بالناس إلى « مرو الروذ » ، واستخلف على الحرب حمّاد بن مسلم ، وعلى الخَراج عبد الله بن الأهتم ، وبلغ « مرزبان » مرو الروذ إقبالُه إلى بلاده ، فهرب إلى بلاد الفرس ، وقدِمَ قتيبة مرو الروذ ، فأخذ ابنيْن له فقتلهما وصلبهما ، ثم سار إلى الطالقان ، فقام صاحبُها ولم يحاربه ، فكفَّ عنه ، وفيها لصوصٌ ، فقتلهم قتيبة وصلبهم واستعمل على الطالقان عمرو بن مسلم ، ومضى إلى الغارياب ، فخرج إليه ملكها مُذعِنًا مُقرًّا بالطاعة ، فرضي عنه ولم يقتل بها أحدًا ، واستعمل عليها رجلًا من « باهلة » ، وبلغ صاحب « الجوزجان » خبرهم ، فترك أرضه وخرج إلى الجبال هاربًا ، وسار قتيبة إلى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين ، فقبل منهم ، فلم يقتل فيها أحدًا ، واستعمل عليها عامر بن مالك الحماني ، ثم أتى « بلخ » ، فلقيه الأصبهبذ في أهل بلخ ، فدخلها فلم يُقِمْ بها إلّا يومًا واحدًا ، ثم مضىٰ قتيبة وهو يتبع أخاه عبد الرحمـٰن ، حتى أتى شعب خُلم ، وقد مضى نيزك فعسكر ببغلان ، بعد أن ترك مجموعةً من المقاتلين لحماية مضيق الوادي - فم الشِّعب - وللدفاع عن مداخله وحراستها ، كما وضع نيزك حاميةً من المقاتلين في قلعة حصينة من وراء مضيق الوادي ، فأقام قتيبة أيامًا يقاتلهم عند مدخل الوادي ، دون أنْ ينال منهم أو ينتصر عليهم ، ولم تكن المعلومات المتوافرة لقتيبة تشير إلى وجود محاور للاقتراب سوى طريق الوادي ، وسوى مفازة لا يستطيع المجازفة بدفع الجند لاختراقها ، فوقف في موقعه ، محاولًا إيجاد مخرج من هذا المأزق ، وفي تلك الفترة ، قدم عليه ملك « الروب » و« سمنجان » ، فاستأمنه على أن يدلَّه على مدخل القلعة التي وراء هذا الشعب ، فآمنه - أعطاه الأمان - وبعث معه رجالًا في الليل ، فانتهى بهم إلى القلعة التي مِن وراء مدخل الوادي ، فباغتوهم بالهجوم وأبادوا حامية القلعة ، وهربَ مَن بقي منهم ، ومن كان في الشِّعب -

مدخل الوادي – فدخل قتيبة والناس الوادي ، وأتى القلعة ، ثم مضى إلى سمنجان ، و« نيزك » ببغلان ، عند نَبْعٍ يُعرف باسم : « فنج جاه » ، ولم تكن المفازة بين سمنجان وقرية بَغلان شديدة الوعورة أو صعبة المسالك .

أقام قتيبةُ بسمنجان أيّامًا ، ثم سار إلى نيزك ، وقدَّم أخاه عبد الرحمٰن ، وبلغ نيزك ذلك ، فارتحل مِن منزله حتى قطع وادي « فرغانه » ، ووجّه ثِقَلَه وأمواله إلى ملك كابول ، ومضى حتى نزل الكرز ، وعبد الرحمٰن ابن مسلم يتبعه ، فنزل عبد الرحمٰن وأخذ بمضائق « الكرز » ونزل قتيبة « أسكيمشست » ، بينه وبين عبد الرحمٰن فرسخان ، فتحصّن نيزك في الكرز ، وليس إليه مسلك إلا مِن وجهٍ واحد ، وكان ذلك الوجه صعبًا لا يمكن للفرسان الوصول إليه ، فحاصره قتيبة مدة شهرين كاملين ، حتى نفد التموين عند نيزك ، وأصاب جندَه الجدري ، وخاف قتيبة الشتاء ، فدعا « سُليمًا الناصح » ، وقال له : « انطلق إلى نيزك ، واحْتَلْ لأن تأتيني به بغير أمان ، فإنْ أعياك وأبَى فآمَنْهُ ، واعلم أنّي إنْ عاينتُك وليس هو معك صلبتُك ، فاعملْ لنفسك » . فقال سُليم الناصح : « فاكتب لي إلى عبد الرحمٰن ، لا يخالفني » . قال قتيبة : « نعم » . وكتب إلى عبد الرحمٰن بذلك ، وعندما وصل سُليم إلى عبد الرحمٰن ، طلب إليه إرسال مجموعة من الفرسان للتمرْكُز عند مدخل الوادي ، وقال له : « إنّ على هؤلاء الفرسان إعاقَتَنَا عن الوصول إلى مدخل الوادي ، إذا ما خرجنا أنا ونيزك » . وبعث عبد الرحمٰن قوة من الفرسان إلى حيث أمرهم سُليم ، ومضى سُليم وقد حمل معه من الأطعمة ما يكفي أيّامًا ، حتى أتى نيزكًا ، ونصحه بتسليم نفسه إلى قتيبة ومحاولة إزالة غضبه ، وأنّ قتيبة لن يبرح موضعه ، وقد صمّم على قضاء الشتاء في موقعه ، هلَكَ أو سلِم . وبعد مناقشة طويلة ، استطاع سُليم إقناع نيزك بالتسليم ، لا سيما بعد أن برهن له عن مدى حاجة جنده

للطعام ، عندما عرض ما يحمله عليهم ، وقبل نيزك في النهاية مرافقة سُليم . وتدخّلت قوة الفرسان ، فحالوا بين الأتراك والخروج ، ورافقوا نيزكًا ، حتى قدِموا به إلى عبد الرحمـٰن بن مسلم ، فأرسل رسولًا إلى قتيبة يُعْلِمه ، فأرسل قتيبة بطلبهم ، فقدِم بهم عبد الرحمٰن عليه ، فحَبَس أصحاب نيزك ، ودفع نيزكًا إلى ابن بسّام الليثي ، وكتب إلى الحَجّاج يستأذنه في قتل نيزك ، وفي انتظار ذلك جعل ابنُ بسّام نيزكًا في قبّتِهِ - خيمته - وحفَر حول القبة خندقًا ، ووضع عليه حراسة قوية ، وجاء كتاب الحجَّاج بعد أربعين يومًا ، يأمر بقتل نيزك . عندما جاء أمر الحجاج ، استدعى قتيبة نيزكًا للمثول بين يديه ، وقال له : « هل لك عندي عقْد أو عند عبد الرحمـٰن أو عند سليم ؟ » . قال : « لي عند سليم » . قال : « كذبت » . وقام ، وردّ نيزكًا إلى حبْسه ، ومكث قتيبة ثلاثة أيام لا يظهر للناس ، وقام المهلّب ابن إياس العدوي ، وتكلّم في أمر نيزك ، فقال بعضهم : « ما يحلّ له أنْ يقتله » . وقال بعضهم : « ما يحـلُّ له تركه » . وخـرج قتيبة في اليوم الرابع ، فجلس وأذن للناس ، فقال : « ما ترون في قتْل نيزك ؟ » . فاختلفوا ، فقال قائل : « اقتلْه » . وقال قائل : « أعطيتَه عهدًا فلا تقتلْه » . وقال قائل : « ما نأمنهُ على المسلمين » . ودخل ضرار بن حصين الضّبّي ، فقال : « ما تقول يا ضـرار ؟ » . قال : « إني سمعتُك تقول : أعطيتَ الله عهدًا إنْ أمكنَكَ منه أن تقتله ، فإنْ لم تفعل ، لا ينصرنّك اللهُ عليه أبدًا » . فأطرق قتيبة طويلًا ، ثم قال : « والله لو لم يبقَ من أجَلي إلا ثلاث كلمات ، لقلتُ : اقتلوه ، اقتلوه ، اقتلوه » . وأرسل إلى نيزك فأمر بقتله وقتل أصحابه ، فقال المغيرة بن حبناء كلمة طويلة في مديح عمل قتيبة ، مطلعها :

لَعَمْري لَنِعْمَتْ غَزْوةُ الجندِ غزوةً   قَضَتْ نَحْبها مِن نيزكٍ وتعلّتِ

عمل قتيبة بعد ذلك على إعادة تنظيم الإدارة في تخارستان ، وأطلق

سراح ملكها جغبويه ، وأرسله إلى الوليد ، فلم يزل بالشام حتى مات الوليد ، ورجع قتيبة إلى مرو ، واستعمل أخاه عبد الرحمٰن على بلخ ، وأرسل إلى الحجاج بالخراج وبأخبار الفتح ، فكان ما يردّده الحجاج دائمًا : « بعثتُ قتيبةَ فتًى غِرًّا ، فما زدته ذِراعًا إلا زادني باعًا » .

ما إن استقرّ قتيبة في مرو ، حتى وصله طلب أمان من ملك الجوزجان ، وكان قد هرب عن بلاده تأييدًا لنيزك ، ثم تراجع عن موقفه عندما عَلِمَ بمصرعه ، فآمنه قتيبة على أن يأتيه فيصالحه ، فطلب رهنًا يكونون في يديه ويعطي رهائنَ مقابل ذلك ، فأعطى قتيبةُ حبيبَ بن عبد الله بن عمرو بن حصين الباهلي ، وأعطى ملكُ الجوزجان رهائن من أهل بيته ، فخلَّف ملك الجوزجان حبيبًا بالجوزجان في بعض حصونه ، وقدم على قتيبة فصالحه ، ثم رجع فمات بالطالقان مسمومًا ، وقتل أهل الطالقان حبيبًا ، فما كان من قتيبة إلا أن قتل الرُّهُن الذين كانوا عنده ، وفي ذلك قال نهار بن توسعة :

أراكَ اللهُ في الأتراكِ حكمًا ... كحُكْمٍ في قُرَيْظَةَ والنّضيرِ
قضاءً من قتيبةَ غَيْرُ جوْرٍ ... بهِ يُشْفَىٰ الغليلُ مِنَ الصدورِ
فإنْ يَرَ نيزكٌ خِزْيًا وَذُلًّا ... فكمْ في الحربِ حُمقٌ مِنْ أميرِ

غزْو شُومان و « كَسّ » و « نَسَف » سنة إحدىٰ وتسعين هجرية :

أفاد ملك شومان « قيسلشتان » مِنَ الاضطراب الذي أثاره غدْرُ نيزك ، فطرد عامل قتيبة ، ومنع الفدية التي كان قد صالح عليها قتيبة ، فبعث إليه قتيبة رسولًا - وهو : « عيّاش الغَنَوي » - ومعه رجلٌ من نُسّاك أهل خُراسان ، يدعوانِ ملك شومان إلى أنْ يؤدِّي الفِدية على ما صالح عليه قتيبة ، فقدِما البلد ، فخرجوا إليهما فرمَوْهما ، فانصرف الرجل ، وأقام عيّاش الغَنَوي . فقال : « أمَا هاهنا مسلمٌ ؟! » . فخرج إليه رجلٌ من المدينة فقال : « أنا

مسلم ، فما تريد ؟ » . قال : « تعينني على جهادهم » . قال : « نعم » .
فقال له عيّاش : « كن خَلْفي لتمنعَ لي ظهري » . فقام خلفه ، وكان اسم
الرجل : المهلّب ، فقاتلهم عيّاش ، فحمل عليهم ، فتفرّقوا عنه ، وحمل
المهلبُ على عياش من خلفه فقتله ، فوجدوا به ستين جراحة ، فغمّهم
قتلُه ، وقالوا : « قتلنا رجلًا شجاعًا » . بلغ قتيبةَ ما فعله أهل شومان
بسفيرَيْه ، فسار إليهم بنفسه ، ولمّا تكدْ قواته تأخذ قِسْطها من الراحة بعد
قتال نيزك ، وأخذ طريقَ بلخ ، بعد أن دفع أخاه عبد الرحمٰن لقيادة
مقدمته ، وكان ملك شومان صديقًا لصالح - أخو قتيبة - فأرسل إليه
صالح رجلًا يأمره بالطاعة ، ويضمن له رضا قتيبة إنْ رجع إلى الصلح ،
فأبى وقال : « ما تُخوّفني به من قتيبة ، وأنا أمنع الملوك حصنًا ؟! أَرْمي
أعلاه ، وأنا أشدُّ الناس قوْسًا ، وأشدُّ الناس رميًا ، فلا تبلغ نُشّابتُه نصفَ
حصني ، فما أخاف من قتيبة » . فمضى قتيبة من بلخ ، فعبر النهر ، ثم
أتى شومان وقد تحصّن ملكها ، فوضع عليه المجانيق ، ووضع منجنيقًا
كان يسمّيها « الفحجاء » ، فرمى بأول حجر ، فأصاب الحائط ، ورمى
بآخر فوقع في المدينة ، ثم تتابعتِ الحجارة ، حتى دمّر الحصن ، وخاف
ملك شومان من الوقوع في قبضة قتيبة ، ورأى ما نزل به ، فجمع ما كان
عنده من مال وجوهر ، فرمىٰ به في عيْنٍ في وسط القلعة لا يُدرَك قَعْرها ،
ثم جمع قواته ، وفتح أبواب القلعة ، وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى
قتل ، ودخل قتيبة القلعة بعد أن فتحها عَنوة ، فقتَل المقاتِلة ، وسَبىٰ الذرية ،
ثم رجع إلى « كِس » و« نسف » ، ثم مضى إلى بُخارىٰ ، ثم سار إلى
طرخون بالصغد ، ليقبض منه ما كان صالَحه عليه ، فلما أشرف على وادي
الصغد ، توقّف هناك ، وقبض من طرخون صلْحه ، وعاد مُتّبِعًا محور :
بُخَارىٰ ، آمل ، مرو .

كانت عمليات السنة التالية سهلة هيّنة ؛ فقد غزا قتيبة سجستان ، يريد « رُبتيل الأعظم والزابل » ، فلما نزل سجستان ، استقبلتْهُ رُسل رُبتيل بالصلح ، فقبل ذلك وانصرف ، واستعمل عليهم ربّة بن عبد الله بن عمير الليثي ، وعاد إلى مرو .

صلح قتيبة مع ملك خُوارزم شاه ، وفتْح « خام جرد » سنة ثلاث وتسعين هجرية :

كان ملك خوارزم – الآرال حاليًّا – ضعيفًا ، فغلبه أخوه « خرذاذ » على أمره – وخرذاذ أصغر منه – فكان إذا بلغه أنّ عند أحد مِن مواطني مملكته جاريةً أو دابةً أو متاعًا فاخرًا ، أرسل فأَخَذَه ، أو بلغَه أنّ لأحدهم منهم بنتًا أو أختًا أو امرأة جميلةً ، أرسل إليه فغصَبَه ، وأخذ ما شاء ، وحبس ما شاء ، لا يمتنع عليه أحد ، ولا يستطيع الملكُ منعَه أو تأديبه ، وكثيرًا ما رفع الناس ظلاماتهم للملك ، فكان يقول : « لا أقوى عليه » . وزاد الأمر على الملك حتى ملأه غيظًا ، فلما طال الأمر عليه ، كتب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه حتى يسلّمها له ، وبعث إليه بمفاتيح مدائن خُوارزم ، وهي ثلاثة مفاتيح من ذهب ، واشترط عليه أن يدفع إليه أخاه ، وكلَّ مَن يضادُّه أو يقاومه ، ليحكم فيه بما يرى ، وبعث في ذلك رُسلًا ، ولم يُطلع أحدًا من معاونيه ومستشاريه – مرازبته ودهاقينه – على ما كتب به إلى قتيبة ، فقدمتْ رسله على قتيبة في آخر الشتاء ووقْت الغزو ، وقد تهيّأ للحرب واستعدّ لها ، فأظهر قتيبة أنه يريد التوجُّه إلى الصغد ، ورجع سفراءُ خوارزم شاه إليه بما يحبُّ مِن قِبَل قتيبة ، وسار بعد أن استخلف على مرو ثابتًا الأعور مولى مسلم ، وجمع ملك خوارزم ملوكَه ، وأحْباره – كهنته – ومستشاريه ، وخدعهم بقوله « أن المعلومات المتوافرة له تؤكّد أنّ قتيبة يريد الصغد ، ولا يريد الهجوم على خوارزم شاه » ، فانصرف أهل خوارزم عن الاستعداد

للحرب ، ولم يشعروا باقتراب الخطر منهم ، إلّا عندما نزلتْ قوات المسلمين في « هزارسب » ، دون النهر ، واجتمع أصحابُ الملك لمناقشة الموقف ، وطالبوا بالتعرُّض لقتال قتيبة ، ولكنّ الملك قاوم هذا الاتجاه ، عندما قال لهم : « إني لا أرى ذلك ؛ فقد عجز عنه مَن هو أقوىٰ منّا ، وأشد شوكة ، ولكنني أرى أنْ نَصرفه بشيءٍ نؤدّيه إليه ، فنصرفه عامنَا هذا ، ونرى رأينا » . فوافقوه على رأيه ، فأقبل خُوارزم شاه ، فنزل في مدينة الفيل ، من وراء النهر ، « وكانت مدائن خوارزم الرئيسية ثلاثة ، لكنّ « فيل » كانت أكثرَهن منعة وقوةً وتحصينًا » وبقي نهرُ بلخ هو الفاصل بين مواقع قوات قتيبة في هزارسب ، ومكان نزول ملك خوارزم في « فيل » ، وتمّ الصلح على عشرة آلافِ رأسٍ وعيْن ومتاع ، بشرط أن يساعده على مَلِك خام جرد ، وأن يفي له بما كتب إليه ، فقبل ذلك منه قتيبة ، ووفّى له ، إذْ بعث قتيبةُ أخاه إلى ملك خام جرد - الذي كان يُناصب خوارزم شاه العداء - فقاتله ، فقتله عبد الرحمٰن ، واجتاح حدود بلاده ، وقدم منهم على قتيبة بأربعة آلاف أسير ، فقتلهم . ودفع قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومَن كان يخالفه ، فقتلهم وصادرَ أموالهم ، وبعث بها إلى قتيبة . ودخل قتيبة مدينة « فيل » ، فقبل من خوارزم شاه ما صالحه عليه ، ثم رجع إلى هزارسب .

يومُ سمرقند سنة ثلاث وتسعين هجرية :

ما إنْ أمضى قتيبة الصلح مع حاكم خوارزم - ملكها - حتى تقدّم إليه المجشر بن مزاحم السُّلمي ، وطلب التحدُّث إليه على انفراد ، وعندما تمّ له ذلك ، قال المجشر لقتيبة : « إن أردت السغد يومًا من الدهر ، فالآن ؛ فإنهم آمنون مِن أن تأتيهم من عامك هذا ، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام » . وسأله قتيبة : « هل أشار بهذا عليك أحد ؟ » . وأجابه المجشر بالنفي ، وعاد يسأله : « وهل أعلمتَه أحدًا ؟ » . فأجاب المجشرُ بالنفي أيضًا ، وعندها قال

له قتيبة : « واللهِ لئن تكلّم به أحد لأضربنّ عنقك » . ثم إنّ قتيبة أقام يومه ، فلمّا أصبح من الغدِ ، دعا عبد الرحمٰن فقال : « سِرْ في الفرسان والمُرامية ، وقَدِّمِ الأثقال إلى مَرْو » . ومضى عبدُ الرحمٰن يَتْبعُ الأثقال ، يريد مَرْو يومَه كله ، فلمّا أمسى كتب إليه : « إذا أصبحتَ فوجِّهِ الأثقال إلى مَرْو ، وَسِرْ في الفُرسان والمُرامية نحو السغد ، واكتم الأخبار ، فإني بالأثر أَتْبعك » . ولمّا وصلتِ الرسالة ، أمر عبد الرحمٰن أصحاب الأثقال أنْ يمضُوا إلى مَرْوَ ، وسار حيث أمره ، وخطب قتيبة الناس فقال : « إن الله قد فَتَحَ لكم هذه البلدة في وقتٍ الغَزْوُ فيه ممكن ، وهذه السغدُ شاغرةٌ برجلها - رجالها - قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنّا صالَحْنا عليه طرخون ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله : ﴿ **فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ على نَفْسِهِ** ﴾ [الفتح : ١٠] ، فسيروا على بركة الله ، فإني أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير وقريظة . وقال الله : ﴿ **وأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِروا عَلَيهَا قد أَحَاطَ اللهُ بِهَا** ﴾ [الفتح : ٢١] . ووصل قتيبة إلى السغد وقد سبقه إليها عبد الرحمٰن بن مسلم في عشرين ألفًا ، وقدم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبُخارىٰ ، بعد ثلاثة أيام من نزول عبد الرحمٰن بهم ، فقال : « إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿ **فَسَاءَ صَبَاحُ المُنذَرينَ** ﴾ » . [الصافات : ١٧٧] . وبدأت مرحلة حصار السغد التي استمرّت شهرًا ، حدثت خلاله مجموعةٌ من المعارك والاشتباكات في قطاع واحد .

اشتدّ الحصار على أهل السغد ، وخافوا طول الحصار ، فكتب « غَوْزَك » ملك السغد رسائل إلى ملك الشاش ، وإخشاذ فرغانه وخاقان الترك ، جاء فيها : « إنا نحن دونكم ، فيما بينكم وبين العرب ، إنْ ظفروا بنا عادوا ، فأغاروا عليكم بمثل ما أتونا به ، وأصبحتم أضعف وأذل ؛ فانظروا لأنفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها » . واستجاب الملوك لدعوة « غوزك »

ملك السغد ، وطلبوا إليه مقاومة العرب وخِداعهم ، حتى يباغتوا العرب ، واجتمع هؤلاء الملوك ، فقالوا : « إنما نُؤتَى من سفَلتِنا ، وإنهم لا يجدون لِوَجْدنا ، ونحن معشر الملوك المعنيُّون بهذا الأمر ، فانتخبوا أبناء الملوك ، وأهل النجدة مِن فتيان مُلوكِكم ، فلْيخرجوا حتى يأتوا عسكر قتيبة مُباغتةً ؛ فإنه مشغول بحصار السغد » . وانتخبوا فرسانًا من أبناء المرازبة ، والأساورة الأشداء الأبطال ، وولَّوْا عليهم ابنًا لخاقان ملك الترك ، وأمروهم أن يباغتوا قتيبة بهجوم ٍ ليليٍّ . وبلغ قتيبة ذلك ، فانتخب أهل النجدة والبأس ، حتى بلغ عددهم أربعمائة ، ثم جمعهم وقال لهم : « إن عدوَّكم قد رأوا بلاء الله عندكم ، وتأييده إياكم في مزاحفتكم ومُكاثرتكم ، كلُّ ذلك يَفلُجكم لِينصركم الله عليهم . فأجمَعُوا على أن يحتالوا عزّتكم وبَياتكم ، ليباغتوكم بهجوم ليلي ، واختاروا دهاقينهم وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ، وقد فضّلكم الله بدينه ، فأبلُوا اللهَ بلاءً حسنًا تستوجبون به الثواب ، مع الذَّبِّ عن أحسابكم » . ووضع قتيبة عيونًا - جواسيس - على العدو ، حتى إذا قربوا منه قدْر ما يصلون إلى عسكره من الليل ، دفع الذين انتخبهم ، بعد أن حضّهم على القتال ، واستعمل عليهم صالح بن مسلم ، فخرجوا من المعسكر عند المغرب ، فساروا ونزلوا على فرسخيْن من العسكر ، عن طريق القوم الذين وصفوا لهم ، ففرّق صالِح خيله ، وأكمن كمينًا عن يمينه ، وكمينًا عن يساره ، وأقام مع مجموعة من الفرسان على قارعة الطريق ، حتى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه ، جاء العدو باجتماع وإسراع وصمت ، وهم آمِنون في أنفسهم من أنْ يلقاهم أحد دون معسكر قتيبة ، ولم يعلموا بمكان صالح حتى اصطدموا به ، حتى إذا اختلفت الرماح ، واشتدّتِ المعركة ، خرج الكمينان عن يمينٍ وشمالٍ ، فاقتتلوا قتالًا شديدًا ، حتى قال أحد الذين اشتركوا في قوة الكمين : « حصرناهم ، فما رأيتُ

قَطُّ قومًا كانوا أشدّ قتالًا مِن أبناء أولئك الملوك ، ولا أصبر ، فقتلناهم فلم يفلت منهم إلا نفرٌ يسير ، وحَوَينا سلاحهم ، واحتززنا رءوسهم ، وأسْرْنا منهم أسرى ، فسألناهم عمَّن قتلنا ، فقالوا : ما قتلتم إلا ابن مَلِك ، أو عظيمًا من العظماء ، أو بطلًا من الأبطال ، ولقد قتلتم رجالًا إنْ كان الرجل لَيعدِل بمائة رجل » . وقال مقاتِلٌ آخر : « إنّا لَنختلفُ عليهم بالطعن والضرب ، إذْ تبيّنت تحت الليل قتيبةَ ، وقد ضربتُ ضربة أعجبتني وأنا أنظر إلى قتيبة ، فقلت : كيف ترى ، بأبي أنت وأمي ؟! قال : اسكت ، دقَّ اللهُ فاك . قال : فقتلناهم ، وأقمنا نحوي - نجمع - الأسلابَ ، ونحتزّ الرءوسَ حتى أصبحنا . ثم أقبلنا على المعسكر ، فلم أرَ جماعة قَطّ جاءوا بمثل ما جئْنا به ، ما منا رجل إلا معلّق رأْسًا معروفًا باسمه ، وأسير في وثاقه ، مع ما سلبْنا من جيّد السلاح وكريم المتاع ومناطق الذهب ودوابَّ فُرَّهَةٍ ، فنفلَنَا قتيبة ذلك كله . وقال : جزاكم الله عن الدين والأعراض خيرًا . وأكرمني قتيبةُ ، من غير أن يكون باحَ لي بشيء ، وقَرن بي - في الصلة والإكرام - حيانَ العدوي وحُليًا الشيباني ، فظننتُ أنه رأى منهما مثل الذي رأى مني ، وكسر ذلك أهلَ السغد ، فطلبوا الصلح وعرضوا الفدية ، فأبى وقال : أنا ثائر بدم طَرْخون ، كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي » .

استمرت الحرب ، وأخلص أهل بخارىٰ وأهل خوارزم القتالَ إلى جانب قتيبة ، فأرسل « غوزك » ملك السغد إلى قتيبة ، يقول له : « إنما تقاتلني بإخوتي ، وأهل بيتي من العَجَم ، فأخْرِجْ إليَّ العرب » . فغضب قتيبة ودعا الجدلي ، فقال : « اعرض الناس ومَيِّز أهل البأس » . فجمعهم ، ثم جلس قتيبة يعرضهم بنفسه ، ودعا العُرفاءَ ، فجعل يدعو برجلٍ رجلٍ ، فيقول : « ما عندك ؟ » . فيقول : « العريف شجاع » . ويقول : « ما

هذا ؟ » . فيقول : « مختصر » . ويقول : « ما هذا ؟ » فيقول : « جبان » .
فسمَّى قتيبة الجبناء : الأنتان ، وترك لهم رثَّ السلاح ، ثم زحف بهم فقاتلهم بهم فرسانًا ورجالًا ، واستمرّ الصراع بين الفرسان ، في حين برز قتيبة بسريره ، وقعد عليه ليتابع المعركة ، وحمل السغد على المسلمين حملة حطَّموهم حتى جازوا عسكرهم ، وقتيبة محتبٍ بسيفه ما حَلَّ حَبْوته ، وانطوت مُجنِّبتا المسلمين على الذين هزَموا القلب ، فهزموهم حتى ردُّوهم إلى عسكرهم ، وقُتل من المشركين عددٌ كبير ، ودخلوا مدينة سمرقند وتحصَّنوا بها ، ورمى قتيبة المدينة بالمجانيق ، فثَلَم ثلْمةً ، فسدّوها بغرائز الدَّخن ، وأطال قتيبة المقام ، واستمرّ في رمْي سمرقند بالمنجنيق ، فثلم فيها ثلمة . وقال قتيبة : « ألِحُّوا عليها حتى تعبُروا الثلمة » . فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة ، ورماهم السغدُ بالنشاب ، فوضعوا تُرُسَهم ، فكان الرجل يضع ترْسَه على عينه ثم يحمل ، حتى صاروا على الثلمة ، فقالوا له : « انصرفْ عنا اليوم حتى نصالحك غدًا » . وأجاب قتيبة : « لا نصالحهم إلا ورجالُنا على الثلمة ، ومجانيقنا تخطر على رءوسهم ومدينتهم » . وفشل اقتحام الثغرة (الثلمة) ووقف عليها رجل وهو يشتم قتيبة بالعربية الفصحى ، وأسرع المسلمون نحو الرجل وهو مُلِحٌّ بالشتم ، في حين كان قتيبة مُحتبيًا بشملة ، وهو يردّد - كالمناجي لنفسه -: « حتى متى يا سمرقند يُعشش فيك الشيطان ؟! أمَا واللهِ لئنْ أصبحتُ لأحاولنَّ من أهلك أقصى غاية » . وسمعه أحد القادة ، فانصرف عن قتيبة ، وانضمّ إلى أصحابه ليقول لهم : « كم مِن نفس أبيّة ستموت غدًا منا ومنهم ! » . ثم إنَّ قتيبة الْتفتَ إلى مَن حوله وقال لهم : « اختاروا منكم رجليْن » . فاختاروا ، فقال : « أيُّكما يَرمي هذا الرجل ، فإنْ أصابه فله عشرة آلاف ، وإنْ أخطأه قطعت يده ؟ » . فتلكّأ أحدهما ، وتقدم الآخر ،

فرماه ، فلم يخطئْ عينَه ، وقال هذا الرامي - وهو خالد بن باب مَوْلَى مُسلم بن عمرو - : « كنت في رُماة قتيبة ، فلمّا افتتحنا المدينة صَعِدتُ السُّور ، فأتيت مُقام ذلك الرجل الذي كان فيه ، فوجدتُه ميّتًا على الحائط ، ما أخطأتِ النُّشابة عينَه حتى خرجتْ من قفاه » . ثم أصبح المسلمون مِن غدٍ فرموا المدينة ، فثَلَموا فيها . وقال قتيبة : « ألحوا عليها حتى تعبروا الثلْمَة (الثغرة) » .

وحمل المسلمون بقوة ، فدخلوا مدينة سمرقند ، فصالحهم أهلها ، واشترط قتيبة أنْ يسلّمه أهلُ سمرقند ثلاثين ألفًا ، كرهينةٍ في قبضته ، ليس فيهم صبيٌّ ولا شيخ ولا عيب ، كما اشترط إخلاء المدينة مِن كلّ مقاتِل ، وأنّ يُبنَى له فيها مسجدٌ ، فيدخل ويصلي ، ويُوضع له فيها منبرٌ فيخطب ، ويتغدى ويخرج ، ونفَّذ أهل سمرقند شروط قتيبة ، فقال : « الآن ذلُّوا حين صار إخوانهم وأولادهم في أيديكم » . ودخل قتيبة سمرقند ، فصلّى وخطب ثم تغدَّى ، وأرسل إلى أهل السغد : « مَن أراد منكم أنْ يأخذ متاعَه فلْيأخذه ، فإني لست خارجًا منها ، وإنما صنعتُ هذا لكم ، ولستُ آخذ منكم أكثر مما صالحتكم عليه ، غير أنّ الجندَ يُقيمون فيها » . وبعد ذلك جمع قتيبة ما تحتويه بيوت النيران وحِليةَ الأصنام ، فكانت كالقصر العظيم حين جُمعت ، فأمر بتحريقها ، فقالتِ الأعاجم : « إنّ فيها أصنامًا مَن حَرَقَهَا هلك » ، فقال قتيبة : « أنا أحرقها بيدي » . ودعا قتيبة بالنار ، وأخذ شعْلةً بيده ، وخرج فكبر ، ثم أشعلها ، وأشعل الناسُ ، فاضطرمتْ ، فوجدوا مِن بقايا ما كان فيها - مِنْ مسامير الذهب والفِضَّة - خمسين ألفِ مثقال ، وتلا قتيبة ﴿ **وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى** ﴾ [النجم : ٥٠ - ٥١] .

ارتحل قتيبةُ راجعًا إلى مرو ، واستخلف على سمرقند عبدَ الله بنَ مسلم ، وخلّف عنده جندًا كثيفًا ، وآلةً من آلات الحرب كثيرة ، وقال : « لا تَدَعنَّ مشركًا يدخل بابًا من أبواب سمرقند إلا مختومَ اليدِ ، وإنْ جَفَّتِ الطينةُ قبل أن يخرج فاقتلْه . وإنْ وجدتَ معه حديدةً أو سكِّينًا - فما سواه - فاقتلْه . وإنْ أغلقتَ البابَ ليلًا ، فوجدتَ فيها أحدًا منهم فاقتلْه » .

لله دَرُّكَ يا قتيبة !

ولمّا فتح قتيبة سمرقند ، وقفَ على جبلها ، فنظر إلى الناس متفرّقين في مروج السغد ، فتمثّل قول طَرَفة بن العبد :

وَأَرْتَعَ أقــوام ولولا مَحَلُّنَــا ... بمخشيةٍ رَدُّوا الجِمَال فَقَوَّضُوا

ودعا قتيبة « نهارَ بن توسعة » حين صالح أهلَ السغد ، فقال : « يا نهار ، أين قولك :

ألا ذَهَبَ الغَزْوُ المُقرِّبُ للغِنَى ... وماتَ النَّدىٰ وَالجودُ بعد المهلّبِ
أقامَا بِمَرو الرُّوذِ رهنَ ضريحِهِ ... وقدْ غُيِّبَا عَنْ كلّ شرقٍ ومَغربِ

أفغزوٌ هذا يا نهار ؟ » . قال : « لا ، هذا أحسن ؛ إنّ الذي أنت فيه ليس بالغزو ولكنه الحرب ، وأنا الذي أقول :

وَمَا كَانَ مُذْ كُنَّا وَلَا كَانَ قَبْلَنَا ... ولا هُوَ فِيمَا بعدَنا كابنِ مُسلمِ
أَعَمَّ لأهلِ التركِ قَتْلًا بسيفِهِ ... وَأَكْثَرَ فينا مَقْسِمًا بعدَ مَقْسِمِ »

وقال الشاعر :

كلَّ يومٍ يَحـوي قتيبــةُ نَهْبًا ... ويزيدُ الأمــوال مــالًا جديدًا
باهِـلِيٌّ قَـدْ أُلْبِسَ التــاجَ حَتَّىٰ ... شـابَ منهُ مَفارِقٌ كُنّ سُودَا
دَوّخ الصَّغْـدَ بالكتـائبِ حَتَّىٰ ... تركَ الصغـدَ بالعـراءِ قُعـودَا
فَــوليدٌ يبكـي لِفَقْـدِ أبــيه ... وأبٌ مُــوجَعٌ يُبَكّــي الــوليدَا

كُلّمَا حَلّ بلدةً أوْ أتَاهَا تركتْ خيلُهُ بِهَا أُخْدودَا[١]

غَزْو الشَّاش وفرغانة سنتَي أربعٍ وتسعين وخمسٍ وتسعين هجرية[٢] :

انطلق قتيبة لمتابعة فتوحاته في بداية فصل الربيع - كعادته - عامَ أربعٍ وتسعين هجرية ، ولمّا أنْ عبر نهر سمرقند ، فرض على أهل بخارىٰ و« كس » و« نسف » وخوارزم ، تقديمَ عشرين ألفِ مقاتلٍ ، ثم سار بهم إلى السغد ودفعهم إلى الشاش ، في حين تابع تقدُّمه بقواته إلى فرغانة ، وعندما وصل « خجندة » ، اصطدم بمقاومةٍ قويةٍ نظّمها أهل « خجندة » ؛ ودارت معارك مستمرة ، كانت قوات المسلمين تخرج كلَّ يومٍ منها بانتصاراتٍ جزئية ، دون الوصول إلى نصر حاسم ، وفرغ الناس من قتالهم ذات يوم ، فركبوا خيولهم وانتشروا في كلّ مكان ، فوصل منهم رجل إلى موقعٍ مرتفع يُشْرف على السهل ، ونظر فيما حوله ، فقال لصاحب له : « تاللهِ ما رأيتُ كاليوم غرّة ، لو كان هيجٌ - قتال - اليوم ونحن على ما أرى مِن الانتشار لكانت الفضيحة » . فقال له صاحبه : « كلا ، نحن كما قال عوفُ بن الجزع :

نَؤُمُّ البلادَ لِحُبِّ اللِّقَا وَلَا نَتّقِي طائرًا حيثُ طَارا
سَنيحًا ولا جاريًا بَارِحًا علىٰ كلِّ حالٍ نلاقي النّسارا »

ثم أتى قتيبةُ « كاشان » - مدينة تابعة لفرغانة - وأتاه الجنود الذين وجّههم إلى الشاش ، وقد فتحوها وحرّقوا أكثرها ، وانصرف قتيبة إلى مرو .

كان والي العراق ، الحَجّاج بن يوسف الثقفي يتابع عمليات قادته في أقصىٰ الشرق ، حيث كان محمد بن القاسم الثقفي قد فتح السند -

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٩١ .

(٢) إقليم الشاش : هو الإقليم الذي يقع شمال نهر سيحون ، وأمّا فرغانة : فهو الإقليم الذي يمتدُّ فيما وراء نهر سيحون ، ويُتاخم التركستان .

باكستان - وأخذ في فتح الهند ، وقد عرف الحجّاج أنّ قتيبة في حاجة لمزيد من الدعم ، حتى يستطيع متابعة فتوحاته ، فأرسل الحجاج إلى محمد بن القاسم أمْرًا ، جاء فيه : « وَجِّهْ مَنْ قِبَلَكَ مِنْ أهل العراق إلى قتيبة ، ووجّهْ عليهم جَهْم بن زَحْر بن قيس ؛ فإنه في أهل العراق خيرٌ منه في أهل الشام » . ومضى جهم بن زَحْر إلى قتيبة ، وأصبحت فتوح قتيبة مِن نصيب أهل العراق ، فيما بقيتْ فتوح السند والهند من نصيب أهل الشام .

وصل جيش العراق بقيادة زَحْر إلى مرو في عام خمسٍ وتسعين هجرية ، وقتيبة يستعدّ لهجومه السنويّ ، وانطلق قتيبة حتى وصل الشاش - أو بكشُمَاهن - وهناك بلَغَه موتُ الحجاج ، فَغَمَّهُ ذلك وَقَفَلَ راجعًا ، ووزّع قواتِه ، فترك قوةً في بخارىٰ ، ووجَّه قوةً أُخرىٰ إلى كس ونسف ، ثم أتى مرو فأقام بها ، ومكث ينتظر تعليماتِ أمير المؤمنين ، ولم تمضِ سوىٰ فترة قصيرة ، حتى جاءه كتاب الوليد بن عبد الملك ، يحضُّه على متابعة الجهاد ، وفيه : « قد عرَف أميرُ المؤمنين بلاءك وجهادك في قتال أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعُك وصانعٌ بك كالذي يجب لك ، فالْمُمْ مغازيَك ، وانتظرْ ثواب ربّك ، ولا تُغيِّبْ عن أمير المؤمنين كتُبك ، حتى كأني أنظر إلى بلادِك والثغرِ الذي أنت فيه » .

وهكذا أقرّ الوليدُ العمالَ الذين كان الحجاج قد عينهم ، وكان ذلك حافِزًا لقتيبة حتى يتابع فتوحَه .

نهايةُ فُتوحِ قُتيبةَ : فتح « كاشغر » ، وغزوُ الصِّين ، سنة ستٍّ وتسعين هجرية :

غادر قُتيبة بجيشه قاعدةَ عمليّاته في مرو ، وعندما وصل إلى فرغانة ، بلغه موت أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وانتقال الإمارة إلى أخيه

سليمان ، فتوجَّس قتيبة شرًّا لوجود بغضاء بينهما ، وقرّر اتخاذ ما هو ضروريّ من تَدَابير لتأمين عائلته ، خوفًا من البطش بهم ، فنقلهم إلى سمرقند ، ووضع على نهر جيحون رجلًا من مواليه ، يقال له : الخوارزمي ، وكلّفه بإقامة مركز مراقبةٍ عند مقطع النهر ، ومنع المرور إلّا لمن يحمل إذنًا بالعبور مِن قِبل قُتيبة ، ثم إنّه أرسل قوة استطلاع ، لارتياد شِعب عصام ، وتمهيد الطريق للتقدُّم نحو كاشغر ، وهي أدنى مدائن الصين ، ومضى قتيبة بعد ذلك فأوغل في تقدُّمه حتى قرب من الصين . فكتب إليه ملك الصين : « أنِ ابعث إلينا رجلًا من أشراف مَنْ معكم يخبرنا عنكم ، ونُسائله عن دينكم » . فانتخب قتيبةُ من عسكره اثني عشر رجلًا من أبناء القبائل ، لهم جمالٌ وأجسام وألْسُن وشعور وبأس ، بعد ما سأل عنهم ، فوجدهم من أفضل الرجال الذين يمكن اعتمادهم ، وتحدّث إليهم ، فتأكّد مِن صحة انتقائهم ، رجولةً ورجاحةَ عقلٍ ، فأمر لهم بعُدّة حسنة من السلاح ، والمتاع الجيّد ، من الخزّ والوَشْي ، واللّين من البياض والرقيق ، والنعال والعطر ، وحمَلهم على خيول مُطَهّمةٍ تُقاد معهم ، ودوابَّ يركبونها ، وكان هبيرة بن المشمرج الكلابي مُفّوهًا ، زَلِق اللسان ، فقال : « يا هبيرة ، كيف أنت صانع ؟ » . قال : « أَصلح اللهُ الأمير ! قد كُفيتَ الأدبَ ، وقلْ ما شئتَ أقلْه ، وآخُذ به » . قال : « سيروا على بركة الله ، وبالله التوفيق ، لا تضعوا العمائمَ عنكم حتى تقْدموا البلاد ، فإذا دخلتم عليه ، فأعلموه أني قد حلفتُ ألا أنصرِف حتى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكَهم ، وأجبي خراجَهم » .

وانطلق الوفد بقيادة هبيرة بن المشمرج ، فلمّا قدِموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا الحمَّام ، ثم خرجوا فلبسوا ثيابًا بيضاء تحتها الغلائل ، وتطيّبوا بالبخور والعطور وَلَبِسوا النعال الرقيقة . وارتدَوْا الأرْدِيَة ،

ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا ، فلم يكلّمهم الملك ولا أحدٌ من جلسائه ، فنهضوا ، فقال الملك لمن حضر المجلس : « كيف رأيتم هؤلاء ؟ » . قالوا : « رأينا قومًا ما هم إلا نِسَاء » . فلما كان الغد أرسَلَ إليهم فَلَبِسوا الوَشْي وعمائم الخز والمطارف ، وغَدَوْا عليه ، فلما دخلوا عليه ، قيل لهم : « ارجعوا » ، فقال لأصحابه : « كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ » . قالوا : « هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال مِن تلك الأولى . وهم أولئك » . فلمّا كان اليوم الثالث أرسل إليهم ، فشدّوا عليهم سلاحهم ، ولَبسوا البيض والمغافِرَ ، وتقلّدوا السيوف ، وأخذوا الرماح وتنكّبوا القِسِيّ ، وركبوا خيولَهم ، وغَدَوْا ، فنظر إليهم صاحب الصِّين ، فرأى أمثال الجبال ، فلما دَنَوْا ركزوا رماحَهم ، ثم أقبلوا نحوهم مشمِّرين وقد أثاروا الفزع ، مما حمَل الصّينيين على منعهم والطلب إليهم العودة قبل الدخول إلى مجلس المَلِك ، فانصرفوا . وركبوا خيولهم ، واختلجوا رماحهم ، ثم دفعوا خيولهم حتى كأنها تطير بهم ، فقال الملك لأصحابه : « كيف ترونهم ؟ » . قالوا : « ما رأينا مثلَ هؤلاء قطُّ » . فلمّا أمسىٰ ، أرسل إليهم الملك أنِ ابعثوا إليَّ زعيمكم وأفضلَكم ، فبعثوا إليه هبيرة ، فقال له - حين دخل عليه - : « قد رأيتم عِظَم مُلكي ، وإنه ليس أحدٌ يمنعكم مني ، وأنتم في بلادي ، وإنما أنتم بمنزلة البَيْضة في كفِّي ، وأنا سائلك عن أمرٍ ، فإنْ لم تصدقني قتلتُكم » . قال : « سَلْ » . قال ملك الصين : « لِمَ صنعتم من الزّيّ في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ » . قال هبيرة : « أمّا زِيُّنا الأول ، فلباسنا في أهلنا وريحنا عندهم ، وأمّا يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءَنا ، وأما اليوم الثالث فزيُّنا لِعدوّنا ، فإذا هاجنا هَيْجٌ أو فَزَع ، كنا هكذا ... » . قال الملك : « ما أحسن ما دبّرتم دهركم ! فانصرِفوا إلى صاحبكم ، فقُولوا له ينصرف ؛ فإني عرَفتُ حرْصَه وقلّة أصحابه ، وإلا بعثت عليكم

مَنْ يُهلِككُم ويُهلكه » . قال له هبيرة : « كيف يكون قليلَ الأصحاب من أوّلُ خيلهِ في بلادك وآخرها في منابت الزَّيتون ؟! وكيف يكون حريصًا مَن خلّف الدنيا قادرًا عليها وغزاك ؟! وأمّا تخويفُك إيّانا بالقتل ، فإنّ لنا آجالًا إذا حضرتْ فأكرمُها القتل ، فلسنا نكرهُهُ ولا نخافُه » . قال : « فما الذي يُرضي صاحبَك ؟ » . قال : « إنه قد حلف ألا ينصرفَ حتى يطأ أرضكم ، ويختم ملوكَكم ، ويُعطَى الجزية » . قال : « فإنا نُخرجه مِن يمينه ، نبعث إليه بترابٍ مِن تُراب أرضنا فيطؤه ، ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزيةٍ يرضاها » . ثم دعا ملك الصين بصِحافٍ مِن ذهبٍ فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمانٍ من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسنَ جوائزهم ، فساروا ، فقدِموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية ، وختَم الغلمة وردَّهم ، ووطِئَ الترابَ . وأوفد قتيبة هُبيرة للاتصال بأمير المؤمنين في دمشق ، فمات بقريةٍ مِن فارس .

وهل في الهِمَم فوقَ هذا ؟! وهل العزُّ إلّا هذا .. تَعجزُ كلماتُ الدنيا أمام هذا الأرِيجِ الفوّاح الذي لا يُوصَف بلسان .. وفي هذا قال سوادة ابن عبد الله السّلولي :

لا عيبَ في الوفدِ الذين بَعَثْتَهُمْ ... للصينِ إنْ سَلَكُوا طريقَ المنهَجِ
كَسَرُوا الجفونَ على القَذَى خوْفَ الرَّدَى ... حَاشَا الكريمَ هبيرةَ بنَ مُشَمْرَجِ
لمْ يرضَ غَيْرَ الخَتْمِ في أعناقِهِمْ ... ورهائِنٍ دُفِعَتْ بِحَملٍ سَمْرَجِ
أدَّى رِسالتَكَ التي استَرعيْتَهُ ... وأتاكَ من حِنْثِ اليمينِ بمخْرَجِ

للهِ دَرُّ قتيبةَ ! وأيُّ شأنِهِ لم يكنْ عَجَبًا ؟

كان قتيبة إذا رجع من غزاته كلَّ سنة ، اشترى اثني عشر فرسًا من جياد الخيل ، واثني عشر هجينًا ، فيتركها لمن يرعاها ويعتني بها حتى

موعد الحرب ، فإذا تأهب لذلك ، وأقام معسكره ، قُيِّدَتِ الخيولُ وأُضْمِرَتْ ، فلا يقطع نهرًا بخيلٍ حتى تَخِفَّ لحومُها ، فيحمل عليها مَن يحمله في الطلائع ، وكان يبعث في الطلائع الفرسانَ من الأشراف ، ويبعث معهم رجالًا من العجم ، ممّن يُستنْصَح على تلك الهُجُن - كأدِلّاء - وكان إذا أمر بطليعةٍ ، أمر بلَوْحٍ فنُقش ، ثم يَشقُّه شَقَّتيْن ، فيعطي شقّةً إلى قائد الطليعة ، ويحتفظُ بالشّقّ الآخر ، ويأمره أنْ يدفِن الشّقّ في موضعٍ يحدّده له ، من مخاضة معروفة ، أو تحت شجرة معلومة ، أو خَرِبة مُميّزة ، ثم يبعث بعده مَن يسترجعها ليتأكّد مِن صحّة تنفيذ الطليعة لواجبها الاستطلاعي[1] .

فرحم الله قتيبة وغفرَ له ، مضىٰ إلى ربِّه ، وبقيتْ فتوحاتُه وأيّامُه مناراتٍ تُضيءُ أعماق التاريخ ، وتُرسل بظلالها إلى نهاية التاريخ .

يقول الحافظ ابن كثير - عَن قتيبة - في « البداية والنهاية » (٩ / ١٤٩) : « يُقال : إنه ما كسرت له رايةٌ . وكان من المجاهدين في سبيل الله ، واجتمع له مِن العساكر ما لم يجتمع لغيره » .

ويقول أيضًا في « البداية والنهاية » (٩ / ١٧٥ - ١٧٦) : « كان قتيبة بن مسلم أبو حفص الباهلي مِن ساداتِ الأمراء وخيارهم ، وكان مِن القادة النُّجباء الكُبَراء والشجعان ، وذوي الحروب والفتوحات السعيدة ، والآراء الحميدة ، وقد هدىٰ الله على يديْه خلقًا لا يحصيهم إلّا الله ، فأسلموا ودانوا لله عز وجل ، وفتَح مِن البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئًا كثيرًا ، واللهُ سبحانه لا يُضيّع سَعْيَهُ ، ولا يخيّب تعبَه وجهادَه .

ولكن زلَّ زلَّةً كان فيها حَتْفُهُ ، وفعل فِعْلةً رَغِمَ فيها أنفه ، وخلَع

---

(١) قتيبة بن مسلم لبسّام العسلّي ، من صـ ٢٥ - ٢٨ ، مختصرًا .

الطاعة فبادرتِ المنية إليه ، لكِنْ سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفّر الله بها سيئاته ، ويضاعف بها حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبّل منه ما كان يكابده مِنْ مُناجَزة الأعداء » ، فرحمه الله رحمةً واسعة .

كأنّ أبا حفصٍ قتيبةَ لَمْ يَسِرْ بجيشٍ إلى جيشٍ ولمْ يَعْلُ مِنْبَرا
ولمْ تَخْفِق الراياتُ والقومُ حَوْلَهُ وُقُوفٌ وَلَمْ يشهدْ لَهُ الناسُ عَسْكَرَا

رحمة الله على البطل الذي أذلّ ملوكَ الكُفر .

مضَىٰ ابنُ سعيدٍ حيثُ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ ولا مغربٌ إلَّا لَهُ فيهِ مَادِحُ
كأنْ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِوَاكَ وَلَمْ تَقُمْ عَلَىٰ أحدٍ إلَّا عَلَيْكَ النَّوائِحُ
لَئِنْ حَسُنَتْ فِيكَ المَرَاثي وذكْرُهَا لقدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فيكَ المَدَائِحُ

الأَميرُ الضِّرْغامُ ، قائدُ الجيوش ، الجَرَادَةُ الصَّفراءُ ، أبو سعيدٍ مَسْلمةُ بنُ عبدِ المَلِك :

هكذا نعتَه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٥ / ٢٤١) ، وقال أيضًا : « له مواقف مشهودةٌ مع الروم ، وهو الذي غزا القسطنطينيّة ، وكان ميمونَ النقيبةِ .

قال اللَّيْث : وفي سنةِ تسعٍ ومائة غزا مَسْلمة التُّركَ والسند » .

وقال الذهبي أيضًا (٥ / ٢٤١) : « قلت : كان أَوْلَىٰ بالخلافة من سائر إخوتهِ ، وفيه يقول أبو نُخَيْلَةَ :

أمسلمُ إني يا ابنَ خيرِ خليفةٍ ويا فارسَ الهَيْجَاءِ يا جَبَلَ الأرضِ
شكرتُكَ إنَّ الشكْرَ حَبْلٌ مِنَ التُّقَىٰ وما كلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نعمةً يُغْضِي »

في سنة ستٍ وثمانين : غزا مسلمةُ بلاد الروم ، فقتل وَسَبَىٰ وغنِمَ وَسَلِمَ ، وافتتح حصن « بولق » ، وحصن « الأخرم » ، من أرض الروم .

وفي سنة سبْعٍ وثمانين : غزا مسلمة بلاد الروم ، فقتل منهم خلقًا كثيرًا ، وفتح حصونًا كثيرةً ، وَغَنِمَ غنائمَ جَمَّةً .

وفي سنة ثمانٍ وثمانين : « غزا الصائفةَ مسلمة بن عبد الملك ، وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فافتتحا بمن معهما من المسلمين حِصنَ « طوانة » ، في جمادى من هذه السنة - وكان حصنًا منيعًا - اقتتل الناسُ عنده قتالًا عظيمًا ، ثم حمل المسلمون على النصارىٰ ، فهزمُوهم حتى أدخلوهم الكنيسة ، ثم خرجتِ النصارىٰ فحملوا على المسلمين ، فانهزم المسلمون ، ولم يبقَ أحد منهم في موقفه ، إلَّا العباس بن الوليد ومعه ابن مُحَيْريز الجمحي ، فقال العباس لابن محيريز : أين قُرَّاء القرآن الذين يريدونَ وجهَ الله عز وجل ؟ فقال : نادِهِمْ يأتوك . فنادىٰ : يا أهل القرآن . فتراجع الناسُ فحملوا على النصارىٰ ، فكسروهم ولجئوا إلى الحصن ، فحاصروهم حتى فتحوه »[1] .

وفي سنة تسعٍ وثمانين : « غزا مسلمة وابن أخيه العباس بلادَ الروم ، فقتلا خلقًا كثيرًا ، وفتحا حصونًا كثيرة ، منها حصن « سورية » و« عَمورية » و« هرقلة » و« قمورية » ، وغَنِمَا شيئًا كثيرًا وأَسَرَا جَمًّا غفيرًا »[2] .

وفي سنة تسعين من الهجرة : غزا مَسْلَمَة والعباس بلاد الروم ، ففتحا حصونًا ، وقتلا خلقًا من الروم وَغَنِمَا ، وأسرا خلقًا كثيرًا .

وفي سنة إحدى وتسعين : « غزا الصائفةَ مسلمةُ بن عبد الملك وابن أخيه عبد العزيز بن الوليد ، وفيها غزا مسلمة بلادَ الترك ، حتى بلغ البابَ

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٧٩ .

(٢) البداية والنهاية ٩ / ٨١ .

مِن ناحية أذربيجان ، ففتح مدائن وحصونًا كثيرةً أيضًا »[١].

وفي سنة اثنتين وتسعين : « غزا مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم ، ففتحا حصونًا كثيرةً وَغَنِمَا شيئًا كثيرًا ، وهربتْ منهم الرومُ إلى أقصى بلادهم »[٢].

وفي سنة أربع وتسعين : افتتح مسلمة « سندرة » ، مِن أرض الروم .

وفي سنة خمس وتسعين : فتح مسلمة بن عبد الملك مدينةً في بلاد الروم ، ثم حرّقها ، ثم بناها بعد ذلك بعشرِ سنين .

وفي سنة سبعٍ وتسعين : غزا مسلمة بن عبد الملك أرضَ « الوضاحية » ، ففتح الحصن الذي بناه « الوضاح » صاحب الوضاحية ، وفيها غزا مسلمة أيضًا « برجمة » ففتح حصونًا و« برجمة » وحصن « الحديد » و« سررا » ، وشتّى بأرض الروم .

قال ابن كثير : « قال الزبير بن بكّار : كان مَسلمةُ مِن رجال بني أُميّة ، وكان يُلقَّب بالجرادة الصفراء ، وله آثارٌ كثيرة ، وحروبٌ ونِكاية في العدو ، من الروم وغيرهم . قلتُ : وقد فتح حصونًا كثيرة من بلاد الروم . ولمّا وُلّي غزْوِ « أرمينية » ، غزا الترك ، فبلغ بابَ الأبواب ، فهدم المدينة التي عنده ، ثم أعاد بناءَها بعد تسع سنين .

وفي سنة ثمانٍ وتسعين : غزا القسطنطينية فحاصرها وافتتح مدينة الصَّقَالِبَة ، وكَسَرَ ملكهم « البرجان » ، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية ، وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدَّةً عظيمة ، وجاع المسلمون

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٨٦ .

(٢) البداية والنهاية ٩ / ٨٨ .

عندها جُوعًا شديدًا ، فلما وُلّي عمر بن عبد العزيز ، أرسل إليهم البريدَ يأمرهم بالرجوع إلى الشام ، فحلف مسلمة أنْ لا يقلع عنهم حتى يَبْنُوا له جامعًا كبيرًا بالقسطنطينية ، فَبَنَوْا له جامعًا ومنارةً ، فهو بها إلى الآن ، يصلّي فيه المسلمون الجمعة والجماعة . وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومَسَاعٍ مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصونًا وقلاعًا ، وأحْيَا بعزمه قصورًا وبقاعًا ، وكان في زمانه في الغزوات نظيرَ خالدِ بن الوليد في أيّامه ؛ في كثرة مغازيه ، وكثرة فُتوحه ، وقوّةِ عزْمه ، وشدَّةِ بأسه ، وجوْدة تصرُّفه في نقْضه وإبْرامه . وقد رثاه بعضهم - وهو ابن أخيه : الوليد بن يزيد بن عبد الملك - فقال :

أقـولُ ومَـا البُعْـدُ إلَّا الرَّدَىٰ ... أمَسْـلمُ لا تبعِدَنْ مَسْلمهْ
فقدْ كنتَ نورًا لنا في البـلا ... دِ مُضيئًا فقد أصبَحَتْ مُظلِمهْ
ونكتُمُ موْتَكَ نَخْشَىٰ اليقيـ ... ـنَ فأبدىٰ اليقينُ لنا الجمجُمَهْ »[1]

صَلاحُ الدِّين : سيّدُ المجاهدين ، بَطَلُ حِطِّين ، ومُحَرِّر القُدْس من أَيْدِي الصَّلِيبِيِّين :

سلامًا صلاحَ الدينِ يا خير قائِدٍ ... بأمجـادِهِ تاجُ الفـتوحِ تَزَيَّنَـا
سلامًا صلاحَ الدينِ إنَّا بحاجةٍ ... لِمثلِكَ مَن يُعْلي علىٰ الحقِّ صَرْحَنَا
بِهِ نُدرِكُ الغـاياتِ طُـرًّا وَإِنَّنَا ... على موعدِ الفجرِ الذي قدْ تَأَذَّنَا[2]

قال العلّامة أبو شامة في كتابه « عيون الرَّوْضتيْن في أخبار الدَّوْلَتيْن »: « قال أبو طيّ حميد النجار : كنتُ بالموْصل في سنةِ خمسٍ وخمسين وخمسمائة ،

---

(١) البداية والنهاية ٩ / ٣٤١ - ٣٤٢ .
(٢) « سلامًا صلاحَ الدين » ، من ديوان : « نداء الحق » ، لأحمد محمد الصديق صـ ٢١٠ - ٢١١ - دار الضياء .

فزرتُ الشيخ عمرَ الملّاء ، فدخل إليه رجل ، فقال : أيُّهَا الشيخ ، رأيتُ البارحةَ في النوم كأنّي بأرضٍ غريبة لا أعرفها ، وكأنّها مملوءةٌ بالخنازير ، وكأنَّ رجلًا في يده سيفٌ ، وهو يقتل الخنازير ، والناس ينظرون إليه ! فقلتُ للرجل : هذا عيسىٰ بن مريم ، هذا المهدِي . قال : لا . فقلتُ : مَن هذا ؟ قال : هذا يوسف . ما زادني على ذلك . قال : فتعجَّبتِ الجماعةُ من هذه الرؤيا ، وقالوا : إنه سيقْتُل النصارىٰ رجلٌ يُقال له : يوسف . وحَدَسَتِ الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب المغرب ، وكان المُسْتَنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة ، واسمُه يوسف ، فحَدَس بعض الجماعة عليه . قال : وأُنسِيتُ أنا هذه الواقعة ، فلمّا كانت كسرة « حِطِّين » ذكرتها ، فكان يوسفُ « الملكَ الناصِرَ » ، رحمه الله . قال : وحدّثتني ظِئْرٌ لي من نساء الحَلَبيِّين ، كانت تداخل أختَ السلطان الملك الناصر ، قالت : كانت والدة السلطَان تُخبر أنَّها أُتيتْ في نوْمها - وهي حامِلٌ - بالسلطان . فقيل لها : إنّ في بطنك سيفًا من سيوف الله . رحمة الله عليه ».

استقرّ الأمرُ لصلاح الدين في مصر والشام وكثيرٍ من مدن إقليم الجزيرة ، وقد مرض في إحدىٰ حملاته على إقليم الجزيرة ، فنذَر لَئن شفاه الله ليصرفنَّ كلَّ همّه لقتالِ الفرنجة وفتْح بيت المقدس ، ولَيقتلنَّ صاحبَ الكرك الصليبيَّ بيده ، وكان هذا النذر بإشارةٍ من وزيره القاضي الفاضل : عبد الرحيم البيْسَاني .

بعد هذا بدأ بحملاتٍ مركَّزةٍ على المدن القريبة ، قبل أن يُظفره الله بالفتح الأعظم ، وهو استرجاعُ بيت المقدس ، فقدِ انتصر على الفرنجة في موقعة « مرج عيون » ، سنة ٥٧٥ هـ ، وموقعة « بانياس » ، وأَسر رؤساءهم ، ودمّر حصن « الأحزان » في صفد ، وما زال يناوش الفرنجة حصنًا بعد حصن حتى تجمّع عنده جيش كبير في سهل حطِّين ، حيث كانت الموقعة

الكبرىٰ التي كَسَرت عِظامَ الصَّليبيّين ، ومهَّدتْ لفتح بيت المقدس .

حِطّينُ مَجْزرة للصّليبيّين :

قال أبو شامة في « عيون الروضتيْن » عن سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة : « وهي سنة كسرة حطين ، وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين ؛ برز السلطان - صلاح الدين - مِن دمشق أوَّلَ المحرَّم في العسكر العَرَمْرَم ، ومضىٰ بأهل الجنة لجهاد أهل جَهَنم ، والتقوا واقتتلُوا إلى الليل ، وقد حيل بين الفرنج وبين الماء ، فباتوا حَيَارىٰ ، ومن العطش سُكارىٰ ، وأصبح يومُ السبت الخامس والعشرين مِن ربيعٍ الآخر ، وهو يوم النصرة ووقوع الكسرة ، وقد برّح بالفرنج العطشُ ، وكان النسيم في وجوههم ، والحشيش تحت أقدامهم ، فرمىٰ بعضُ متطوِّعة المجاهدين النارَ في الحشيش ، وهو هشيمٌ ، فتأجّج عليهم استعارها ، وتوهّج أوارها ، فأوَوْا إلى جبل حطّين ليعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطّين بوارقُ البوار ، ولمّا أحسّ القومص بالكسرة ، هرب بطلبهِ ، وثبت الباقون ، واستقبلوا ، فحطُّوا خيامهم على غارب حطّين ، حين رأوا المسلمين بهم مُحيطين ، فأُعْجِلوا عن ضَرْب الخيام بضرب الهام ، وأُحيط بهم مِن حَوَاليهم ، ودارت الدوائر عليهم ، وترجَّوْا خيرًا ، فترجّلوا عن الخيل ، وجرفهم السيف جرْف السيل ، ومُلِكَ عليهم الصليب الأعظم ، وهو صليب الصلبوت ، فأيقنوا بالهلاك ، فما برِحُوا يُؤسَرُون ويُقْتلون ، ووصل إلى مقدّمهم و« إبرنسهم » وملكهم ، فتمَّ أسْر الملك[1] وإبرنس الكرك[2] ، وأخي الملك جفرىٰ ، و «أوك» صاحب جُبيل ، و « هنفرىٰ بن هنفرىٰ »، وابن صاحب إسكندرونة صاحب مَرَقية ، وأُسِـر مَن نجا من القتل ، من

---

(١) الملك جفرىٰ .

(٢) البرنس : أرناط صاحب الشوبك والكرك .

الداويّة ومقدّمها ، والأسبتاريّة ومعظّمها ، ومِن البارونية مَن أخطأ البوار ، فأصابه الإسار ، وأُسر الشيطانُ وجنوده ، وملك الملك وكنوده ، وجبَر الله الإسلام بأسرهم ، وقُتلوا وأُسروا بأسرهم ، فَمَن شاهَد القَتْلَىٰ ، قال : ما هناك أسير . وَمَن عاين الأسرىٰ ، قال : ما هناك قتيل . ومُذِ استولىٰ الفرنج على ساحل الشام ، ما شُفِي للمسلمين كيوم حطّين غليلٌ ، فما أفْلَتَ مِن تلك الآلاف إلَّا آحاد ، وما نجا مِن أولئك الأعداء إلَّا أعداد ، وامتلأ المَلأُ بالأسرىٰ والقتلىٰ »[1] .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢ / ٣٤٢) : « جاءتِ العساكرُ المصرية وتوافتِ الجيوش المشرقيّة ، وسار السلطان قاصدًا بلاد الساحل ، وكان جملةُ مَن معه مِن المقاتلة اثني عشر ألفًا ، غيرَ المتطوِّعة ، فتسامعتِ الفرنج بقدومه ، فاجتمعوا كلُّهم وتصالحوا فيما بينهم ، وصالَح « قومس » طرابلس ، و« برنس » الكرك الفاجر ، وجاءُوا بحدّهم وحديدهم ، واستصحبوا معهم صليب الصلبوت ، يحمله منهم عبّاد الطاغوت ، وضُلّال الناسُوت ، في خلقٍ لا يَعلم عدّتهم إلا الله عز وجل ، يُقال : كانوا خمسين ألفًا ، وقيل : ثلاثًا وستين ألفًا ، وقد خوّفهم صاحبُ طرابلس من المسلمين ، فاعترض عليه البرنس صاحب الكرك ، فقال له : لا أشكُّ أنَّك تحبُّ المسلمين وتخوّفنا كثْرتَهَم ، وسترى غِبَّ ما أقول لك . فتقدّموا نحو المسلمين ، وأقبل السلطان ففتح « طبريّة » ، وحاز البحيرة في حوْزته ، ومنع اللهُ الكفرة أنْ يصلوا منها إلى قَطْرة ، حتى صاروا في عطش عظيم ، فبرز السلطان إلى سطح الجبل الغربي مِن طبريّة ، عند قرية يُقال لها : « حطّين » ، التي

(١) « عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية » لأبي شامة صـ ١٣٥ - ١٣٦ - طبع : وزارة الثقافة السورية .

يُقال : إنّ فيها قبر شُعيب عليه الصلاة والسلام ، وجاء العدو المخذول ، وكان فيهم صاحب عَكَّا ، و« كفرنكا » ، وصاحب الناصرة ، وصاحب « صُور » ، وغير ذلك من جميع ملوكهم ، فتواجه الفريقان ، وتقابل الجيشان ، وأسْفَرَ وَجْهُ الإيمان ، واغْبَرَّ وأقْتَمَ وأظلم وجهُ الكفر والطغيان ، ودارت دائرة السَّوْءْ على عبدة الصُّلبان ، وذلك عشية يوم الجمعة ، فبات الناس على مَصافِّهم ، وأصبح صباح يوم السبت ، الذي كان يومًا عسيرًا على أهل الأحد[1] ، وذلك لخمس بَقينَ من ربيع الآخر ، فطلعتِ الشمس على وجوه الفرنج ، واشتدّ الحرُّ ، وقوي بهم العطش ، وكان تحت أقدام خيولهم حشيشٌ قد صار هشيمًا ، وكان ذلك عليهم مشئومًا ، فأمر السلطان النّفاطةَ أنْ يرموه بالنِّفْط ، فرمَوْه ، فتأجج نارًا تحت سنابك خيولهم ، فاجتمع عليهم حَرُّ الشمس وحرُّ العطش ، وحرّ النار وحرّ السلاح ، وحرُّ رشْق النّبال ، وتبارز الشجعان ، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة ، فحملوا ، وكان النصر من الله عز وجلّ ، فمنحهم اللهُ أكتافهم ، فقُتل منهم ثلاثون ألفًا في ذلك اليوم ، وأُسِرَ ثلاثون ألفًا مِن شجعانهم وفرسانهم ، وكان في جملة مَن أُسِر جميعُ ملوكِهم ، سوىٰ « قومس » طرابلس ؛ فإنّه انهزم في أول المعركة ، واستلبهم السلطانُ صليبَهم الأعظم ، وهو الذي يزعمون أنه صُلب عليه المصلوب ، وقد غلّفوه بالذهب واللآلئ والجواهر النفيسة ، ولم يُسمع بمثل هذا اليوم في عزّ الإسلام وأهله ، ودَمْغِ الباطل وأهله ، حتى ذُكِر أنَّ بعضَ الفلاحين رآهُ بعضهم يقود نيِّفًا وثلاثين أسيرًا من الفرنج ، وقد ربطهم بطُنُبِ خيمةٍ ، وباعَ بعضُهم أسيرًا بنعْلٍ لِيَلْبَسَهَا في رِجلِهِ ، وجرَتْ أمورٌ لم يُسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين ، فللهِ الحمد دائمًا كثيرًا ، طيّبًا مباركًا » .

---

(١) أي : النصارىٰ .

قال أبو شامة في « عيون الروضتين » (٢ / ١٣٦ - ١٣٩) :
« وامتلأ الملأ بالأسرىٰ والقتلىٰ . قال العماد : وعبرتُ بها فألفيْتُهَا محلّ الاعتبار ، وشاهدتُ ما فَعَلَ أهلُ الإقبال بأهل الإدْبار ، فمن قُتِلَ حَصَرَتِ الألسنة عن حصْره وعدِّه ، ومَن أُسر لم يَكْفِ أطْنَابُ الخِيَم لقيْدِه وشدِّه ، ولقد رأيتُ في الحبل الواحدِ ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ، وفي بقعةٍ واحدة مائةً ومائتيْنِ يَحميهم حارس . قال القاضي بهاء الدين بن شدّاد : كان الواحدُ منهم العظيم يخلد إلى الأسْر خَوْفًا على نفسه ، ولقد حكىٰ لي مَن أثِقُ به أنه لقي بـ« حوران » شخصًا واحدًا ومعه طُنُبُ خيمةٍ ، فيه نَيِّفٌ وثلاثون أسيرًا يجرّهم وحده ، لِخُذلانٍ وقع عليهم .

وأمّا مقـدّمو الداويّة والأسبتارية ، فإنَّ السلطان اختار قتْلهم فقُتِلوا كلُّهم ، وأمّا « البرنس أرناط » صاحب الكرك ، فكان السلطان قد نذر دَمَه إنْ ظفِر به ، وسبب ذلك : أنه كان عبرَ به بـ« الشوبك » قَفَلٌ مِن الدّيار المصرية في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الله والصلحَ الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفافَ بالنبي ﷺ ، وقال : قولوا لمحمّد : لِمَ لمْ يُخلّصكم ؟! وبَلغ ذلك السلطانَ رحمه الله ، فحمَلَه الدينُ والحميّةُ على أنه نذَر إنْ ظفر به قتلَه ، فلمّا فتح الله عليه بالنصر والظفر ، جلس في دِهْليز الخيمـة ؛ فإنها لم تكنْ نُصبتْ بعـد ، والناس يتقرّبون إليه بالأسارىٰ وبمَن وجدوه مِن المقدّمين ، ونُصبتِ الخيمة وجلس فرحًا مسرورًا ، شاكرًا لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك جفرىٰ وأخاه والبرنس أرناط ، وناول الملك شربةً مِن جُلابٍ مبردٍ بثلجٍ ، فشرب منها ، وكان على أشدّ حالٍ من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس ، فقال السلطان للترجمان : قُل للملِك : أنت الذي سُقيتَه وإلّا أنا ما سقيتُه ، وكان على جميل عادة العرب وكريمِ أخلاقهم أنَّ الأسير إذا أكل أو شرب مِن

مال مَن أسَرَه أَمِن ، فقصد السلطان بذلك : الجرْي على مكارم الأخلاق[١] ، وأَقْعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس ، ووافقه على ما قال ، ثم قال له : ها أنا أنتصر لمحمد ﷺ[٢]. ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل ، فقام إليه وسلّ المجناةَ وضربه بها ، فحلّ كَتِفه ، وتمّم عليه مَن حضر ، ثم رُمي على باب الخيمة » .

وورد إلى بغداد كتابٌ مِن بعض مَن حضر الوقعة ، يقول فيه : « بلغ ثمنُ الأسير بدمشق ثلاثة دنانير ، ويباع الرجلُ وزوجته وأولاده في النداء بيْعةً واحدةً ، ولقد بيعَ بحضوري رجلٌ وامرأته وخمسة أولادٍ لهما - ثلاثة بنين وابنتان - بثمانين دينارًا ، وأُخذ صليب الصلبوت ، وعُلِّق على قنطاريّة منكّسًا ، ودُخل به إلى دمشق ، وكلّ يوم نرىٰ من رءوس الفرنج مثلَ البطيخ ، وأُخذ من البقر والغنم والخيل والبغال والحمير ، ما لم يجئْ مَن يشتريه ؛ من كثرة السَّبْي والغنائم . قال : وبلغني أنّ بعض فقراءِ العسْكر باعَ أسيرًا بزربول[٣] ، فقيل له في ذلك : فقال : أردتُ أنْ يُقال : بلَغَ مِن كثرتهم وهوانهم أنْ بِيع واحدٌ منهم بزرْبول » .

لله دَرُّكَ يا صلاح !

---

(١) والشرع خلاف ذلك ؛ قال تعالىٰ : ﴿ ما كان لِنبيٍّ أنْ يكونَ لهُ أسْرَىٰ حتَّى يُثْخِنَ في الأرضِ تُريدونَ عَرَضَ الدنيا واللهُ يريدُ الآخرةَ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٧] ، فإنّ مَن أطلقهم كانوا أشدّ الناس عليه بعد ذلك في حصاره لعكّا .

(٢) وفي البداية والنهاية ١٢ / : « نعم أنا أنوبُ عن رسول الله ﷺ في الانتصار لأُمّته » .

(٣) الزربول : الحذاء ، وهي لا تزال تُطلق على ما يُلبَس في القدم بين البدو في سورية .

حَطَطْتَ على حطِّينَ قَدْرَ مُلوكِهِمْ ولَمْ تُبقِ مِن أجناسِ كُفرهِمُ جِنْسَا
سَبَايا بلاد اللهِ مملوءة بِهَا وقَدْ شُرِيتْ بَخْسًا وقد عُرِضَتْ نَخْسَا
يُطافُ بِهَا الأسواقَ لا راغبٌ لَهَا لِكثرتِهَا كَمْ كثرةٍ تُوجِبُ الوَكْسَا
شَكَا يَبَسًا رَأْسُ البرنسِ الذي بِهِ تندّىٰ حُسامٌ حاسِمٌ ذلك اليَبْسَا

وقال الجليّاني:

يا وقعةَ التّلِّ ما أبقيتِ مِن عَجَبٍ جحافلٌ لمْ يَفُتْ مِن جمْعِها بَشَرُ
ويا ضُحىٰ السَّبتِ ما للقومِ قد سَبَتُوا تهوّدُوا أمْ بكأسِ الطعنِ قدْ سَكِرُوا
حطّوا بحطّين مُلّاكًا فيَا عجبًا في ساعةٍ زالَ ذاكَ المُلْك والقدَرُ
أهوىٰ إليهمْ صلاحُ الدينِ مُفترِسًا وهوَ الغَضَنْفَرُ أعدىٰ ظُفْرَهُ الظفرُ
أملىٰ عليهمْ فصاروا وسْطَ كِفّتِهِ كَسِرْبِ طيرٍ حَوَاهَا القانِصُ الذَّكَرُ
وأنجزَ اللهُ للسلطانِ موْعِدَهُ ونذْرَهُ في كَفُورٍ دينُهُ البَطرُ
وعايَنَ الملكُ الأبرنسَ في دمِهِ فماتَ حيًّا وحيي وهو يعتذر
مالي أرىٰ ملكَ الإفرنجِ في قفصٍ أينَ القواضِبُ والعسّالةُ[1] السُّمُرُ
والأسبتارُ إلى الدَّيْويّةِ الْتأمُوا كأنّهم سدُّ يأجوجٍ إذا اشْتجرُوا
يتلُوهُمُ صلبوتٌ سِيق منتكِسًا وحوْلَهُ كلُّ قسِّيسٍ لهُ دبرُ

وقال أبو الحسن الساعاتي لصلاح الدين:

أدْرتَ على الفرنجِ وقدْ تلاقَتْ جموعُهُمُ عليكَ رَحًى طحُونا
ففي بَيْسَانَ ذَاقُوا منْكَ بُؤْسًا وفي صفدٍ أتوْكَ مُصَفَّدِينَا
لقدْ جرَّدتَ عَزْمًا ناصِريًّا يحدِّث عنْ سنَاهُ طُور سينا
فكنتَ كَيُوسفَ الصِّديقِ حقًّا لهُ هَوَتِ الكواكبُ سَاجدينا
لقدْ أتعبتَ مَنْ طلبَ المعالي وحاولَ أنْ يَسوسَ المُسْلمينا

---

(١) رمح عسال وعسول: لَدِن مضطرب.

وإنْ تكُ آخِـرًا فخـلاكَ ذمٌّ فـإنَّ محمـدًا في الآخِرينـا

« وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان يهنِّئه بهذه الكسرة ؛ فإنّه كان غائبًا بدمشق ، مِن جملة الكِتاب : لِيَهْنِ المولىٰ أنّ الله قد أقام به الدين القيّم ، وأنه كما قيل : أصبحتَ مولاي ومولىٰ كلِّ مسلم ، وأنه قد أسبغ عليه النعمتيْن الباطنة والظاهرة ، وأورثه المُلْكَين : مُلْك الدنيا وملك الآخرة ، كتب المملوك هذه الخدمة ، والرؤوسُ إلى الآن لم تُرفع من سجودها ، والدموعُ لم تُمسح مِن خدودها ، وكلّما فكّر الخادم في أنَّ البِيَع تعود وهي مساجد ، والمكان الذي كان يُقال فيه : إن الله ثالث ثلاثة ، يُقال فيه : إنه هو الواحد ، جدّد لله شكرًا ، تارة يفيض من لسانه ، وتارة يفيض من جفنهِ ، وجزىٰ يوسفَ خيرًا على إخراجه الحقَّ من سجنه ، والمماليك ينتظرون أمْر المولىٰ ، فكلُّ مَن أراد أنْ يدخل الحمّام بدمشق ، قد عوَّل على دخول حمّام طبرية .

تلكَ المكارمُ لا قِعْبانَ مِن لَبَنٍ وذلكَ الفتحُ لا سيفَ بنِ ذي يزَنِ

وللألسنة بعدُ في هذا الفتح سبْحٌ طويل ، وقولٌ جليل » .

ولقد فتح صلاح الدين بعد كسرة حطين ، وقبل فتح بيت المقدس ، أكثرَ من خمسين بلدة ومدينة ، ففتح طبرية ثاني يوم الكسـرة . « قال القاضي بهاء الدين بن شداد : ثم رحل السلطان طالبًا عكّا فقاتلها بكرةَ الخميس مستهلّ جمادى الأول ، فأخذها واستنقذ مَن كان بها من الأُسارىٰ ، وكانوا زهَاءَ أربعة آلاف نفس ، واستولىٰ على ما فيها من الذخائر والأموال ، والتجاير والبضائع ؛ فإنها كانت مظنّة التجار ، وتفرّقت العساكر في بلاد الساحـل ، يأخـذون الحصون والقِلاع والأماكن المنيعة ، فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية ، وصفورية والناصرة ، وكان ذلك لخُلوّ الرجال بالقتل والأسر .

وقال العماد : خرج أهل البلد - يعني عكّا - يطلبون الأمان ، فأمّنهم على أنفسهم فقط ، وفتحوا البلد يوم الجمعة ، فجئْنا إلى كنيستها العظمى ، فرتّب بها المنبر والقبلة ، وهي أول جمعة أُقيمتْ بالساحل بعد يوم الفتح[1] ، وفتح العادل حصن « مجدل يابا » ، ومدينة « يافَا » عَنوة . وفُتحت « الفولة » ، وهي قلعة للداويّة حصينة ، وفيها ذخائرهم وأموالهم ، وفتحت « دبوريّة » ، و« جنين » و« زرعين » و« الطور » و« اللّجون » و« بيْسان » و« القيمون » و« مالعكا » و« طبرية » من الولايات ، و« الزيب » و « معليا » و « البعنة » و « إسكندرونة » و « منواث » و « أرسوف » ، واستولى على تلك الشموس والأقمار ، الكُسوف والخُسوف ، وفتح المسلمون « سبسطية » ، وفيها مشهد زكريا عليه السلام ، وقد اتخذه « الأقسا » كنيسةً ، وقد حجبوه وحلّوْه ، ففتح للمسلمين أبوابه ، وأظهر للمصلّين محرابه .

وأرسل السلطان إلى « تبنين » ابنَ أخيه تقيَّ الدين فضايقها ، فراسلوا السلطان وسألوه الأمان ، واستمهلوا خمسة أيام ، فأُمْهِلوا ، وأُطلقوا أُسارى المسلمين ، وهذا دأْبه في كلّ بلدٍ يفتحه ، أنه يبدأ بالأُسارى فيفكُّ قيودَها ، ويُعيد بعد عدَمها وجودَها ، فخلّص - تلك السنةَ - من الأسر أكثرَ مِن عشرين ألفِ أسير ، ووقع في أسْره من الكفار مائةُ ألف ، ثم تسلّم السلطان بعد « تبنين » : « صيدا » ، و« صرفند » ، و« بيروت » و« جبيل » ، وكان صاحب جُبيل في الأسر فسلّمها وسَلِم ، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجُبيل ونابلس مسلمين ، فذاقوا العزَّة بعد الذِّلة ، ورفع المسلمون رءوسهم ، وعرَفوا نفوسهم ، وكان كلّ مَن استأمن من الكفار يمضي إلى

(١) بعد غياب اثنتين وسبعين سنة .

صُور مَحْمِيَّ الذّمار .

ونزل السلطان على عسقلان فحصرها ، وتردّدتْ مراسلاتٌ بين أهلها والملك ، ثم سلَّموها يوم السبت سلْخ جمادى الآخرة ، وخرجوا بنسائهم وأموالهم ، وكان السلطان أخذ في طريقه إليها « الرملة » و« تُبنين » و« بيت لحم » و« الخليل » ، وأقام بها حتى تسلّم حصون : الداوية ، غزة ، والنطرون ، وبيت جبريل ، ولدّ ، والداروم ، ولم يبق في الساحل من جُبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور . وكان السلطان رحمه الله ، قد استدعى بالأساطيل من مصر ، فجاءت مع مقدّمها الحاجب لؤلؤ فطفِق يكسر ويكسب ، ويسلّ ويسلب ، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه ، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه »[1] .

فتْحُ بيْتِ المقدس في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة هجرية :

أرسل شابٌّ من أهل دمشق - كان مأسورًا ببيت المقدس - رقعة إلى صلاح الدين ، فيها هذه الأبيات :

يَـٰأَيُّهَــا المـلكُ الذي ... لمعـالمِ الصُّلبـانِ نَكَّسْ
جَـاءَتْ إليكَ ظُلامـةٌ ... تسعىٰ مِنَ البيت المقدَّسْ
كلُّ المســاجدِ طُهِّــرَتْ ... وأنا علىٰ شرفي مُنجَّسْ

« قال القاضي شدّاد : لما تسلّم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس ، شمّر عن ساقِ الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرّقة ، فنزل عليه يوم الأحد ، خامس عشر رجب ، وكان مشحونًا بالمقاتِلة مِن الخيّالة والرّجّالة ، ولقد تجاوز أهل الخبرة عِدّة مَن كان

(١) عيون الروضتين ٢ / ١٤٨ - ١٥٢ .

فيه من المقاتِلة بما يزيد على ستين ألفًا ، ما عدا النسوان والصبيان .

قال العماد : وكان به مِن مقـدّمي الإفرنج « باليان بن بارزان » والبطرك الأعظم ، والذين أغفلتهم حياطة الفرسان الداويّة والأسبتاريّة ، والبارونية ، وقد حشـروا وحشـدوا ، فكانوا ستين ألفِ مقاتلٍ من فارس وراجل ، من أتباع الشيطان وعبَدة الصُّلبان ، فأقام السلطان بمنزلِهِ - غربيِّ القدس - خمسة أيام ، وسلّم إلى كلّ طائفةٍ من الجيش ناحية من السّور وأبراجه ، ثم تحوّل السلطان إلى ناحية الشام ؛ لأنه رآها أوسع للمجال ، والجلاد والنّزال ، وقاتل الفـرنج دون البلد قتالًا هَائِلًا ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في نصرة دينهم وقمامتهم ، واستُشهد في الحصار بعض أمراء المسلمين ، فحنق عند ذلك كثيرٌ من الأمراء والصالحين ، واجتهدوا في القتال ونصْب المجانيق والعرادات على البلد ، وغنّتِ السيوف والرماح الخطيّات ، والعيون تنظر إلى الصلبان منصوبة فوق الجدران ، وفوق قُبّة الصخرة صليب كبير ، فزاد ذلك أهل الإيمان حَنقًا وشدَّةً للتشمير ، وكان ذلك يومًا عسيرًا على الكافرين غيرَ يسير ، فبادر السلطان إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور ، فنقبها وعلقها ، وحشاها وأحرقها ، فسقط ذلك الجانب ، وخرَّ البرج برُمَّته ، فإذا هو واجِبٌ ، فلما شاهَد الفرنجُ ذلك الحادث الفظيع ، والخطْب المؤلم الوجيع ، قصد أكابرُهم السلطانَ ، وطلب صاحبها باليان الأمانَ ، ليحضر عند السلطان فأمّنه ، فلمّا حضر ترقّق للسلطان ، وذلّ ذُلًّا عظيمًا ، وتشفّع إليه بكلّ ما أمكنه ، فَلَمْ يُجبْه إلى الأمان لهم ، وكانوا من قَبْلُ يقولون : كلّ واحدٍ منا بعشرين ، وكلُّ عشرة بمائتين ، ودون قمامة تقوم القيامة . فأبىٰ السلطان أن يجيبهم إلى الأمان ، وقال : ما آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدىٰ وتسعين سنة ، فإنّهم حينئذ استباحوا القتل ، فأنا أُفني رجالهم قتلًا ، وأحوي نساءَهم سَبْيًا . فقالوا :

إذا أيسْنا من أمانكم ، قاتلْنا قتالَ الدم ، فلا يُجرَح واحدٌ منا حتى يجرح عَشرة ، وأنّا نحرّق الدور ونخرّب القبة ، ونقلع الصخرة ، ونُعمي عيْن سلوان[١] ، ونخسف المصانع[٢] ، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير ، فنبدأ بقتلهم ، ثم نُهلك الأموال ، ونُعدم النساء والأطفال ، فلا يحصل لكم سبي ولا مال . فشاوَر السلطانُ أصحابه ، فقالوا : الصواب أنْ نُبيعهم نفوسهم ، ونُعمِّم بِصَغَار الجزية رءوسَهم ، ونُدخِل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم . واستقرّ بعد مراودات ومعاوداتٍ عن كلّ رجلٍ عشرةُ دنانير ، وعن كلّ امرأة خمسة دنانير ، وعن كلّ صغير أو صغيرة ديناران ، ومَن عجز بعد أربعين يومًا عمَّا لَزِمه ، أو امتنع منه ، وما سَلّمَهُ ، ضُرِب عليه الرِّقُ . ودخل ابن بارزان والبطرق ومقدّمو الداويّة والأسبتار في هذا الضَّمان ، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء ، وسلّموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين مِن رجب ، وكان في القدس أكثر من مائة ألف إنسان ، من رجال ونساء وصبيان ، وأُغلقت دونهم الأبواب ، ورُتّب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النوّاب ، ووكّل بكلّ باب أمير ومقدّم كبير ، وحصّل لبيت المال ما يقارب مائتي ألف دينار ، وبقي مَن بقي تحت رِقّ وإسار »[٣] .

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢ / ٣٤٥ - ٣٤٦) : « كان جملة مَنْ أُسر بهذا الشرط ستةَ عشرَ ألفِ أسيرٍ ، من رجال ونساء ووِلْدان » .

« ولم يتفق للمسلمين صلاة الجمعة يومئذ ، ولكن نظّفوا المسجد

---

(١) وقفها عثمان بن عفان على ضعفاء بيت المقدس . وكانت في ربض مدينة القدس .
(٢) المصانع : الأبنية . في « لسان العرب » .
(٣) عيون الروضتين ٢ / ١٥٣ - ١٥٥ .

الأقصى مما كان فيه مِن الصلبان والرُّهبان والخنازير ، وخُرّبت دُور الداوية ، وكانوا قد بَنَوْهَا غرب المحراب الكبير ، واتخذوا المحراب مَشْتًى - لعنهم الله - فنُظِّف ذلك كلّه ، وأُعيد إلى ما كان عليه في الأيام الإسلامية ، وغُسلت الصخرة بالماء الطاهر ، وأعيد غسلها بماء الورْد والمسك الفاخر ، وأُبرزت للناظرين ، وقد كانت مستورة مخبوءةً عن الزائرين ، ووضع الصَّليب عن قُبَّتها ، وعادت إلى حُرْمتها . ولمّا تطهّر بيت المقدس ممّا كان فيه من الصلبان ، والنواقيس والرهبان والقساقس ، ودخله أهل الإيمان ، ونُودي بالأذان ، وقرئ القرآن ، ووُحِّد الرحمان - كان أول جمعة أقيمت في الرابع من شعبان ، بعد يوم الفتح بثمان ، فنصب المنبر(١) إلى جانب المحراب ، وبُسطت البُسُط ، وعُلّقت القناديل ، وتُلي التنزيل ، وجاء الحقُّ وبطلت الأباطيل ، وصُفّت السجادات وكثرت السَّجدات ، وتنوّعتِ العبادات ، وارتفعتِ الدعوات ، ونزلتِ البركات ، وانجلتِ الكُربات ، وأُقيمت الصلوات ، وأذنَّ المؤذّنون ، وخرس القسّيسون ، وزال البوس ، وطابت النفوس ، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس ، وعُبد الله الأحد الصمد الذي ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص : ٣ - ٤] ، وكبّره الراكع والساجد ، والقائم والقاعد ، وامتلأ الجامع ، وسالت لِرقّة القلب المدامع ، ولمّا أذّن المؤذنون للصلاة قبل الزوال ، كادتِ القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال »(٢).

وجلس الفقهاء في مجالس الرهبان ، وفتحت بهذا الفتح من بيت الله

---

(١) الذي أعده نور الدين محمود زنكي ، فقد كان يرجو أنْ تُفتح القدس على يديْه ، فعاجله الموت ، عامَلَه الله بحسن نيّته .

(٢) تحت الطبع كتاب لي في فضل القدس وشرفها ، وكتاب آخر في حوادث رجب ، وفيه نصّ خطبة القاضي محيي الدين بن الزكي ، التي قالها في ذلك اليوم .

المقدس أبواب الجِنان ، وتزاحم الخارجون من البلد - من الفرنج والنصارىٰ - في دخـول أبواب النيران ، وصَلّى محارب الدين في المحراب ، ورفع الملائكة ما كان تكاثَف بأنفاس الكفر من الحجاب ، وغُسلت الصخرة المباركة من أوضارها بماء العيون الفائض كغزارة الأمواه ، وقُبِّلت بالشفاه ، وبُوشرت بالأفواه ، وطُهِّرت بأهل العلم والحلم مِن أدناس الجهل والسِّفاه :

جندُ السماءِ لهذا المَلْكِ أعوانُ ... مَن شكَّ فيهِ فهذا الفتحُ بُرْهَانُ

هذي الفتوحُ فتوحُ الأنبياءِ وَمَا ... لها سِوىٰ الشكْر بالأفعالِ أثمانُ

تسعونَ عامًا بلاد اللهِ تصرخُ والْـ ... إسْـلامُ نُصّـاره صُمٌّ وعُميانُ

فالآنَ لبّىٰ صلاحُ الدينِ دعْوتَهُمْ ... بأمْرِ مَنْ هـو للمعـوانِ مِعْوانُ

في نصفِ شهرٍ غدا للشركِ مُصْطَلِمًا ... فطُهِّـرَتْ منهُ أقطـارٌ وبلـدانُ

وقال الجليّاني عن صلاح الدين :

فلوْ رآكَ وقد حُزْتَ العلا عمرُ ... في قُلّةِ التَّلِّ قَضَّى كُنْه عَبْرتِهِ

ولوْ رآكَ وأهلُ القدسِ في وَلَهٍ ... أبو عبيدةَ فـدّىٰ مِن مَســرَّتِهِ

غداةَ جَزُّوا النواصي في قمامتِهِ ... وأعْوَلُوا بالتّباكي حوْلَ صخْرتِهِ

دارتْ بكَ المِلَّةُ الحسنَىٰ فَنحنُ علىٰ ... عَهْدِ الصحابةِ في استمرارِ مرّتِهِ

فُتوحاتٌ بعد فتْح القدس :

كان الجهاد قد غلب على السلطان ، فلم يستقرّ في القدس إلا قليلا ، ثم بدأ جولةً أُخرىٰ من الفتوحات ، فأتمّ فتح صيدا وبيروت ، وجبلة ، واللاذقية ، وحصـن صهيون ، وحصن بغراس ، ورجع بعدها إلى صفـد والكرك ففتحها ، ثم قلعة الشقيف . وفي ردة فعْلٍ صليبيةٍ شديدة حاولوا استرجاع عكا ، فحاصروها من جهة البحر ، فأسرع السلطان إليها ووقف بإزائهم ، فكانت الإمدادات تأتي الصليبيين من جهة البحر بشكلٍ دائم ،

فاضطُرّ السلطان والمسلمون لمصابرتهم ستةً وثلاثين شهرًا (رجب ٥٨٥ – شعبان ٥٨٨) ، وفي هذا الحصار ظهرت شخصية صلاح الدين العظيمة ، ثلاث سنوات وهو في حالة قتالٍ وتأهُّب واستعداد .

قال ابن شداد : « كان السلطان يُعاني هذه الأمور بنفسه ، ويصافحها بذاته ، لا يتخلّف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شِدّة حرصه ووفور همّته كالوالدة الثَّكْلَىٰ . ولقد أخبرني بعض أطبّائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد ، لم يتناول من الغذاء إلَّا شيئًا يسيرًا لفرْطِ اهتمامه »[(١)].

فانظرْ إلى الهمّة التي لم يشغلها عن الغزاة شيءٌ .

ولله دَرُّ صلاح الدين وهو في مصافِّه الأعظم على عكا ، وهو يأمر « الجاويش أنْ ينادِيَ في الناس : « يا للإسلام ، وعساكر موحّدين » ، فركب الناس ، وقد باعوا أنفسهم بالجنة »[(٢)].

ويُورد أبو شامة من عُلوّ همّته : « قال القاضي : وكان لا بد له من أن يطوف حوْل العدو كلَّ يوم مرةً أو مرتين ، إذا كنا قريبًا منهم ، وكان إذا اشتدّ الحرب يطوف بين الصفَّيْن ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، يُرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم ، والوقوف في مواضع يراها ، وكان يُشارف العدوَّ ويجاوره ، ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفّين ، وذلك أني قلتُ له : قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ، وما نُقِل أنه سمع بين الصفّين ، فإنْ رأى المولى أنْ يُؤْثَر عنه ذلك ، كان حسنًا ، فأذِنَ في ذلك ، فأحضر جزءًا هناك من له بسماع ، فقُرئ عليه ، ونحن على ظهور الدّوابّ بين الصفَّيْن ، يمشي تارة ويقف

---

(١) « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » للقاضي بهاء الدين بن شداد صـ ١٠٧ .

(٢) النوادر السلطانية صـ ١٠٩ .

أُخرىٰ ، وما رأيتُهُ استكثر العدو أصلًا ، ولا استعظم أمْرهم قطّ ، وكان مع ذلك يذكر بين يديْه الأقسام كلها في حال الفكر والتدبير ، ويُرتِّب على كل قسمٍ مقتضاه ، من غير حِدَّةٍ ولا غضب يعتريه ، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكا ، حتى القلْب ورجاله ، ووقع الكؤوس والعَلَم ، وهو ثابت القدَم في نفر يسير ، وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردّهم ، ويخجّلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى عكر المسلمون على العدو في ذلك اليوم ، وقُتل منهم زهَاء سبعة آلاف ، ما بين راجل وفارس »[١] .

قال ابن شداد : « وكان رحمه الله من عظماء الشجعان ، قوي النفس شديد البأس ، لا يَهُوله أمر ، ولقد وصل في ليلة واحدة من الإفرنج نيِّف وسبعون مركبًا على عكا ، وأنا أَعُدّها مِن بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو لا يزداد إلَّا قوة نفس » . وخلال هذا الحصار الطويل جرت وقعاتٌ كبيرة بينه وبين الفرنجة ، وانتصر فيها ، ولكنّ الإمدادات كانت تتوالى مِن أوربّا عن طريق البحر ، وصابَر الفريقان مصابرة عجيبة ، وكان القتال يتمّ يوميًّا أحيانًا وفي البرّ والبحر ، وفي هذا الحصار استنجد صلاح الدين بملك المغرب أمير دولة الموحِّدين فرفض المساعدة ؛ لأنه لم يذكر في رسالته : « أمير المؤمنين » !! وفي نهاية هذه المعاناة مرض السلطان ، واضطُرّ للصلح مع الإفرنج ، وأخذوا عكا مرة ثانية ، وحاولوا أخْذ يافا ولكنهم لم يفلحوا ، وعاد السلطان إلى القدس يرتّب أمورها ، ويصلح مِن سورها ، « وكان رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته . من الأمكنة البعيدة ، فيقتدي به العسكر »[٢] .

---

(١) عيون الروضتين ٢ / ٣٠٩ - ٣١٠ .
(٢) الكامل لابن الأثير ١٢ / ٧٤ .

شَغَفُهُ بالجهاد :

« قال القاضي ابن شداد : كان رحمه الله شديدَ المواظبة على الجهاد ، عظيمَ الاهتمام به ، ولو حلف حالِف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارًا ولا درهمًا إلّا في الجهاد أو في الإرفاد ، لَصَدَقَ وبرّ في يمينه ، ولقد كان الجهاد وحبُّه والشغَفُ به قد استولى على قلبه ، وسائرِ جوانحه استيلاءً عظيمًا ، بحيث ما كان له حديث إلّا فيه ، ولا نظر إلّا آلَتَهُ ، ولا اهتمام إلّا برجاله ، ولا ميل إلّا إلى مَن يذكره ويحثُّ عليه ، ولقد هجر في محبَّة الجهادِ في سبيل الله أهلَه وأولادَه ووطنه ، وسكنَه وسائرَ مَلاذّه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظلّ خيمة ، تهبّ بها الرياح يمنةً ويسرةً ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلةٍ ريّحة على مرج عكا ، فلو لم يكن في المرج ، وإلّا قتلتْهُ ، ولم يزده ذلك إلّا رغبةً ومصابرة واهتمامًا ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرّب إليه يحثُّه على الجهاد ، أو يذكر له شيئًا من أخبار الجهادِ ، ولقد أُلِّفَ له كتب عدة في الجهاد ، وأنا ممّن جمع له فيه كتابًا ، ولأَحكينَّ عنه ما سمعتُ منه في ذلك : في سنة أربع وثمانين - لمّا ودّع أخاه وعسْكرَ مصر بعسقلان - سرنا على الساحل طالبينَ عكّا ، وكان الزمان شتاءً عظيمًا ، والبحر هائجًا هيجانًا عظيمًا ، وموجُه كالجبال كما قال الله ، وكنت حديثَ عهدٍ برؤية البحر ، فعظُم أمْرُ البحر عندي ، حتى خُيِّل لي أنني لو قال لي قادر : لوْ جُزْتَ في البحر ميْلًا واحدًا ملّكتُك الدنيا ، لَمَا كنت أفعل ، واستخففتُ رأْي من يركب البحر رجاءَ كسْب دينار أو درهم ، هذا كلّه خطر لي ، لعِظَمِ الهوْل الذي شاهدتُه من حركة البحر وتموُّجِهِ ، فبينا أنا في ذلك ، إذ التفتَ إليّ ، وقال : في نفسي أنّه متى يسّر اللهُ تعالى فتْح بقية الساحل ، قسّمتُ البلاد ، وأوصيتُ وودّعتُ ، وركبتُ هذا البحر إلى جزائره أَتبعهم فيها ، حتى لا أُبقي على وجه الأرض مَن يكفر بالله ، أو أموت . قال :

فعظم وقْع هذا الكلام عندي ، حيث ناقض ما كان يَخطر لي ، وقلتُ له : ليس في الأرض أشجع نفسًا من المولى ، ولا أقوىٰ نيّة منه في نصرة دين الله ، وحكيتُ له ما خطر لي ، ثم قلتُ له : ما هذه إلا نيّة جميلة ، ولكنّ المولى يُسيّر في البحر العساكر وهو سور الإسلام ، ولا ينبغي أنْ يخاطر بنفسه . فقال : أنا أستفتيك ، ما أشرف الميتات ؟ فقلت : الموت في سبيل الله . فقال : « غاية ما في الباب أنْ أموت أشرفَ الميتات » . قال : فانظرْ إلى هذه الطويّة ، ما أطهرها ! وإلى هذه النفس ، ما أشجعها وأجسرها ! اللهمّ إنّك تعلم أنّه بذل جهده في نصرة دينك رجاءَ رحمتك ، فارحمْه »[١] .

ويكتب للخليفة العباسي : « وهذه المقاصد الثلاثة : الجهاد في سبيل الله ، والكفُّ عن مظالم عباد الله ، والطاعة للخليفة : هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ، واللهُ العالمُ أنَّه لا يقاتل لعيْشٍ أَلْيَنَ من عيشٍ ولا لِغَضبٍ يملأ العيان »[٢] . وقد ذكرنا كيف أنه كان ينقل الحجارة بنفسه لعمارة سور القدس ، « ولو رأيتَه وهو يحمل حجرًا في حِجْره ، لعلمت أنّ له قلبًا قد حمل جبلًا في فكْره »[٣] . وعندما رجع إلى دمشق وجد وكيل الخزانة قد بنىٰ له دارًا ، فغضب عليه ، وقال : إنّا لم نُخلَق للمقام في دمشق ولا بغيرها ، وإنما خُلِقنا للجهاد .

كتب إليه الأنكتار الملعون صاحب عكا : « إنّ المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخُربتِ البلاد ، وخرجتْ من يد الفريقَيْن بالكليَّة ، وقد تلفتِ

(١) عيون الروضتين ٢ / ٣٠٩ - ٣١١ .
(٢) الروضتين ٢ / ٤٨ .
(٣) الروضتين ٢ / ١٩٦ .

الأموال والأرواح من الطائفتَيْن ، وقد أخذ هذا الأمر حقّه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس فمُتعبّدنا ما ننزل عنه ، ولو لم يبقَ منَّا واحدٌ ، وأمّا البلاد فيُعاد إلينا منها ما هو قاطِع الأردن ، وأمّا الصليب فهو خشبة ، لا مقدار له عندكم ، وهو عندنا عظيم ، فيمنّ به السلطان علينا ، ونصْطَلِح ونستريح من هذا العَناء الدائم » . ووقف السلطان رحمة الله عليه على هذه الرسالة ، واستدعى أرباب المشُورة من دولته ، واستشارهم في جواب ذلك ، والذي رآه السلطان رحمه الله في جواب ذلك أنْ قال : « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم ممّا هو عندكم ؛ فإنه مَسْرى نبيِّنا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصوّر أنْ ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفُّظ بذلك بين المسلمين ، وأمّا البلاد فهي لنا أيضًا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئًا عليها ، لضعف مَن كان بها مِن المسلمين في ذلك الوقت ، وما أقدركم الله على عمارة حَجَر منها ما دام الحرب قائمًا ، وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به ، وأمّا الصليب فهلاكُه عندنا قربَةٌ عظيمة ، ولا يجوز لنا أنْ نفرّط فيها ، إلا لمصلحةٍ راجعة إلى الإسلام ، هي أوْفى منها »[1] .

وكلمات صلاح .. يوسف أحلامنا ، نهديها للأقزام الذين سقطوا في الوَحْل :

بيروتُ في اليمّ ماتَتْ قُدسُنَا انتحرتْ ... ونحنُ في العارِ نسقي وحْلَنا طِينا
أيُّ الحكايا ستُروىٰ عارُنا جَللٌ ... نحنُ الهوانُ وذُلُّ القُدْسِ يَكْفينا
القدسُ في القيْدِ تَبكي مِن فوارِسِهَا ... دمعُ المنابرِ يشكُو للمُصلِّينَا
حُكّامُنا ضيّعونا حينما فَسَقُوا ... باعُوا المآذنَ والقرآنَ والدِّينا

---

(١) النوادر السلطانية صـ ١٩٤ .

أعداؤُنا مَن أضاعوا السَّيفَ مِن يَدِنَا وأَوْدَعونا سُجونَ اللَّيلِ تطوينا
أقزامُنَا مَن توارىٰ صوتُهم فزعًا والأرضُ تُسْبىٰ وبيروتٌ تُنادينا
قُمْ مِن ترابِكَ يا ابنَ العاص في دَمِنا ثأْرٌ طويلٌ لهيبُ العار يكْوينا
قُمْ يا بلالُ وأذِّنْ صَمْتُنَا عَدَمٌ كلُّ الذي كانَ طُهرًا لم يَعُدْ فينا
هَلْ مِنْ صلاحٍ يُعيدُ السيفَ في يَدِنَا أو تبْتُروها فقدْ شُلَّتْ أَيادينا
هَلْ مِنْ صلاحٍ يُداوي جرْحَ أمَّتِهِ ويُطلِعُ الصبحَ نارًا مِنْ ليالينا
هَلْ مِن صَلاحٍ لِشَعْبٍ هدَّهُ أَمَلٌ ما زالَ رَغْمَ عنادِ الجرْحِ يَشفينا
جرحي عنيدٌ وجرحي أنتَ يا وطني جئْنا نُداويك تأبىٰ أنْ تدَاوينا
إنّي أرىٰ القدْسَ في عينَيْكَ ساجِدةً تبكي عليْكَ وأنتَ الآنَ تَبكينا
ما زالَ في العَيْنِ طَيْفُ القْدسِ يَجْمَعُنَا لا الحلمُ ماتَ ولا الأحزان تُنسينا

صبْرُه واحتسابُه في الجهاد :

يقول القاضي ابنُ شدّاد : « لقد رأيتُه رحمه الله بمرج عكّا ، وهو على غايةٍ مِن مرضٍ اعتراه ، بسبب كثْرة دماميل ، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيْه ؛ بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنّما يكون مُتّكِئًا على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع مِن مدّ الطعام بين يديْه لعجْزه عن الجلوس ، وكان يأمر أنْ يُفَرَّق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبًا من العدو ، وقد رتّب الناسَ ميمنةً وميسرةً وقلبًا؛تعبيةً للقتال ، وكان مع ذلك كلِّه ، يركب من بكْرةِ النهار إلى صلاةِ الظهر يطوف على الأطلاب[1] ، ومن العصر إلى صلاة المغرب ، وهو صابرٌ على شدة الألم وقوّة ضربان

(١) جمع طلب ، وهو لفظٌ فارسي ، معناه : الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويُطلَق كذلك على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام ، أيّامَ صلاح الدين .

الدّمامل ، وأنا أتعجّب من ذلك ، فيقول : إذا ركبتُ يزول عني ألمُها حتى أنزل ، وهذه عناية ربّانيّة .

ولقد مَرِض - رحمه الله - ونحن على الخروبة ، وكان قد تأخر عن « تلّ الحجل » بسبب مرضه ، فبلغ الإفرنجَ ذلك ، فخرجوا طمعًا في أنْ ينالوا شيئًا من المسلمين بسبب مرضه ، وهي نوْبة النهر ، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التلّ ، ثم رحل العدوّ في اليوم الثاني يطلبنا ، فركِب رحمه الله على مَضَضٍ ، ورتّب العسْكر ، وجعل أولاده في القلب ، ونزل هو وراءَ القوم بطلبه ، وكلّما سار العدو يطلب رأس النهر ، سار هو يَستدير إلى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو رحمه الله يسير ساعةً ثم ينزل يستريح ، ويُظَلِّل على رأسه بمِنْديلٍ من شدّة وقعْ الشمس ، ولا يَنصبُ له خيمة حتى لا يُري العدوَّ ضعفًا ، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قُبالتهم على تلٍّ مُطِلّ عليهم ، إلى أن دخل الليل ثم أمر العسكر أن تعود إلى مَحِلِّ المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخّر هو إلى قمّة الجبل ، وضُربت له خيمة لطيفة ، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرّضه ونُشاغله ، وهو ينام تارةً ويستيقظ أُخرىٰ ، حتى لاحَ الصباح ، ثم ضرب البُوق ، وركِب رحمه الله ، ورَكِبَتِ العساكر ، وفي ذلك اليوم قدّم أولادَه بين يديْه احتسابًا ، الملك الظاهر والمَلِك الظافر وجميع مَن حضره منهم ، ولم يزل يبعث مَن عنده ، حتى لم يبقَ عنده إلّا أنا والطبيب ، وعارِض الجيش ، والغلمان بأيديهم الأعلامُ والبَيارق لا غير ، فيظن الرائي لها عن بُعد أنّ تحتها خَلْقًا كثيرًا ، وليس تحتها إلا واحد ، بخُلُقٍ عظيمٍ ، رحمه الله .

فانظرْ إلى هذا الصبر والاحتساب ، وإلى أيِّ غاية بلغ هذا الرجل ، اللهمّ إنّك ألهمْتَه الصبر والاحتساب ووفّقتَه له ، فلا تحرمْه ثوابَه ، يا أرحم الراحمين .

ولقد رأيتُه ليلةً على صفد ، وهو يحاصرها ، وقال : لا ننام الليلة حتى تُنصبَ لنا خمسةُ مجانيقَ . ورتّب لكلِّ منجنيق قومًا يتولَّوْن نصْبه ، والرسل تتواصل مُخبرةً بأنه نُصب من المنجنيق الفلاني كذا ، ومن الآخر كذا ، حتى أتى الصباحُ وقد فرَغ منها ، وكانت مِن أطول الليالي ، وأشدِّها بْرْدًا ومطرًا .

وكان رحمه الله شديدَ الشَّغَف والشَّفَقة بأولاده الصغار ، وهو صابرٌ على مفارقتهم ، راضٍ ببعدهم عنه ، وكان صابرًا على مرِّ العيش وخشونته ، مع القدرة التامَّة على غير ذلك ، احتسابًا لله تعالى . اللهمّ إنّه ترك ذلك كلَّه ابتغاءَ مرضاتك ، فارضَ عنه وارحمه »[1] .

قال ابن شدّاد : « ولم يُخلّف السلطان أموالًا ولا أملاكًا ؛ لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم ، حتى إلى أعدائه ، ولم يُخلِّفْ في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعةً وأربعين درهمًا ودينارًا واحدًا ، وكان مُتقلِّلًا في ملْبسه ومأكله ومركبه » .

مات صلاحُ الدين ، « وما مُكِّنوا أنْ يُدخلوا في تجهيزه ما قيمتُه حبةٌ واحدة إلَّا بالقَرْض ، حتى في ثمن التبن الذي يُلَتُّ به الطين » ، وعظُم بكاءُ الناس ، حتى إنّ العاقل يتخيّل أنَّ الدنيا كلها تصيح صوتًا واحدًا ، وغَشيَ الناسَ من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة .

قال القاضي ابن شدّاد عن يَوْم موت صلاح الدين : « كان يومًا لم يُصَبِ المسلمون والإسلام بمثله منذ فُقِدَ الخلفاء الراشدون ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلَّا الله ، وبالله لقد كنتُ أسمع من

---

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤ – ٢٧ .

بعض الناس أنّهم يتمنَّوْن فداءَ مَن يعزّ عليهم بنفوسهم ، وما سمعتُ هذا الحديث إلَّا على ضرب من التجوُّز والترخُّص إلا ذلك اليوم ؛ فإني علمتُ من نفسي ومن غيري أنّه لو قُبل « الفِدَاءُ » ، لَفُدِي بالنفس »[١] .

قال ابن شداد : « وَذُكِرَ أنه دُفن معه سيفُه الذي كان معه في الجهاد ، وكان ذلك برأي القاضي الفاضل . قال : هذا يتوكَّأ عليه في الجنَّة »[٢] .

فأينَ صلاح ... « واقدساهُ .. ولا صلاحَ لها » :

أينَ الذي عَنَتِ الفرنجُ لبأسِهِ ... ذُلًّا ومنها أُدركَتْ ثاراتُهُ
مَنْ في الجهادِ صفاحُهُ ما أُغمِدَتْ ... بالنصرِ حتَّى أُغمِدَتْ صَفَحَاتُه
لَذَّ المتاعبَ في الجهادِ ولم تكنْ ... مُذْ عاشَ قطُّ لِذَاتِهِ لذّاتُهُ
مسعُودَةٌ غَدَواتُهُ محمودةٌ ... رَوْحاتُهُ مَيْمونةٌ ضحواتُه
في نُصْرةِ الإسلامِ يسْهَر دائبًا ... لِيطول في روْضِ الجنانِ سُباتُهُ[٣]
لا تحسبُوهُ ماتَ شخصٌ واحدٌ ... فمماتُ كلِّ العالَمين مماتُه
مَن لليتامىٰ والأرامِلِ راحِمٌ ... متعطِّفٌ مَفْضُوضَةٌ صَدَقاتُهُ
وكعادةِ البيتِ المقدَّسِ يَحْزَنُ الْـ ... ـبيْتُ الحرامُ عليهِ بلْ عَرَفَاتُهُ
بكتِ الصَّوَارِمُ والصواهِلُ إذْ خَلتْ ... مِنْ سَلِّهَا ورُكُوبِها غَزَوَاتُهُ
والقدسُ طامحةٌ إليك عُيُونُهُ ... عَجِّلْ فقد طمحتْ إليه عِداتُهُ

المدنُ والحصونُ التي فتَحها صلاحُ الدينِ مِن ديار الفرِنج :

لَممتْ طيوفُ الذكرياتِ بخاطري ... من الدارِ .. منْ أهلٍ .. مِنَ الزَّهَرَاتِ

---

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٢) عيون الروضتين ٢ / ٢٩٠ .
(٣) أي راحته ، فلَا نوم في الجنة .

مِنَ الصدقِ موْصولًا مع الدهرِ لُؤْلؤًا ... حُليّ صلاحٍ أو حليّ كماةِ
نقيًا بأعطافِ الجهادِ مباركًا ... على السَّاحِ مِن نورٍ ومن نَفَحَاتِ
جمعتْ بها التاريخَ قَبْلَ جَفافِهِ ... وَقَبْلَ ذبولِ العُودِ والغرساتِ
جمعتْ بها التاريخَ ساحًا ومنزِلًا ... وأزمنةً موصولةَ الحَلَقَاتِ
فواعجبًا للدّارِ كيفَ تقطَّعتْ ... حدودًا ومادتْ في أسًى وشَتَاتِ
أَمُرُّ بها ذكرىٰ فلا الدارُ دارُهَا ... ولا حُجُراتُ العِزِّ بالحُجُراتِ
فيا وقفةَ التاريخ يَسكبُ دمعَهُ ... يُودّع مِن ساحاتِهِ الخَضِراتِ
فيا قدسُ هلْ أبقيْتِ دمعًا لنائحٍ ... حَنَانَيْكِ مِن شوْقٍ ومِن عَبَراتِ

قال القاضي ابن شدّاد : « ذكْر المدنِ والحصون التي يسّر اللهُ فتْحها على يديه - رحمة الله عليه - من ديار الفرنج - خَذَلَهم الله - من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ستٍ وثمانين :

(١) طبريّة : على بحر الأردن ، بالسيف (٢) عكا : على البحر الكبير ، بالأمان (٣) حيْفا : على البحر ، بالأمان (٤) الناصرة : التي تنسب إليها النصارىٰ (٥) الرملة (٦) قيسارية : بالسيف (٧) أرسوف : بالأمان (٨) يافا : بالسيف (مدينتها) (٩) عسقلان : بالأمان (١٠) غزّة : بالأمان (١١) الداروم (١٢) صيدا : على البحر (١٣) بيروت : بالأمان (١٤) جُبيل (١٥) هونين (١٦) جبليّة (١٧) تبنين (١٨) أنطرسوس: (دون أخذ بُرْجها) بالسيف (١٩) جبلة: مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان (٢٠) اللّاذقية : مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان (٢١) السرفند (٢٢) مدينة القدس الشريف ، خلّصه الله تعالى (٢٣) نابلس (٢٤) البيرة : بأرض القدس (٢٥) صفورية (٢٦) الطور (٢٧) حصن دُبُّوريّة (٢٨) الفُوله (٢٩) حصن عقربلا (٣٠) حصن جينين (٣١) سفسطية (٣٢) كوكب (٣٣) حصن عفري : شماليّ القدس (٣٤) بيت لحم . (٣٥) حصن العازرية : بأرض القدس (٣٦) البرج الأحمر (٣٧) حصن

الخليل عليه السَّلام (٣٨) بيت جبرين (٣٩) تلّ الصافية (٤٠) حصن مجدل (٤١) يابا (٤٢) قلعة الحبيب الفوقاني (٤٣) الحبيب التحتاني (٤٤) النطرون (٤٥) الحصن الأحمر (٤٦) لُدّ : بأرض الرملة (٤٧) قلنوسة (٤٨) يُبنىٰ (٤٩) القاقون (٥٠) القيمون (٥١) قلعة الكرك : بعد حصارٍ سنة ونصف (٥٢) قلعة الشوبك : بعد حصار سنتين (٥٣) قلعة السلع (٥٤) حصن يازور (٥٥) شقيف أرنوف (٥٦) حصن إسكندرونة : بين صُور وعكّا (٥٧) الوعيرة (٥٨) قلعة الجمع (٥٩) قلعة الطفيلة (٦٠) قلعة الهرمز (٦١) قلعة صفد (٦٢) قلعة أبي الحسن : بأرض صيدا (٦٣) صيدا : أيضًا (حصْن) (٦٤) المرقية (٦٥) حصن يحمور : بأرض عكا (٦٦) بلنياس : بين جبلة والمرقب (٦٧) صهيون (٦٨) بلاطنس (٦٩) حصن الجماهرية (٧٠) قلعة العيذد (٧١) بكّاس (٧٢) الشُّغر (٧٣) بكسرائيل (٧٤) السُّرمانية (٧٥) قلعة بُرزيّة (٧٦) درباك (٧٧) بُغراس : قريبًا من أنطاكية (٧٨) الدانور : بأرض بيروت (٧٩) السوفند : قريبًا من صيدا »[1].

فهلْ دَريْتَ الآنَ حُرْقةَ اللّنْبي ... وقد أكلَ صلاحُ كبدَهُ ؟ وهل دريتَ لِمَ انتشىٰ اللّنْبي ، وقال : الآنَ انتهتِ الحروبُ الصليبية ؟ وهل دريتَ لِمَ وقف « غورو » أمامَ قبرِ صلاح ، وركله بقدمه قائلًا : « ها قد عُدْنَا يا صلاحَ الدين » ؟

تكلَّمْ ... كأنَّ الغدرَ يهدرُ مِنْ فمٍ … وتنطلقُ الأحقادُ مِن كلماتِ
فدوّىٰ هنا يُنهي الصليبُ حروبَهُ … ويُمضي فُنونَ الموتِ والفَتكاتِ
ويُمضي معَ الأيامِ نهْجَ إبادةٍ … وخطةَ تمزيقٍ ووَأْدَ حياةِ
وهذي دمشقُ والليالي تمدُّها … مآتمُ أجيالٍ ونَعْيُ كُماةِ

(١) النوادر السلطانية صـ ٢٤٨ .

أَعيدي صَدَىٰ « غورو » ووقفةَ فاجرٍ　　جَبانٍ وزيفَ المجدِ والدَّعَواتِ
وقفتَ على قبرٍ يضمُّ جدارُهُ　　جلالَ حياةٍ في جلالِ مماتِ
أَراعَكَ هذا القبرُ أَمْ راعَكَ الذي　　يضمُّ مِن الأحداثِ والوَقَعاتِ
حَسِبتَ الذي في القبرِ مَيْتًا .. وإِنَّهُ　　شهيدٌ مضىٰ للهِ في وَثَباتِ
فهذا شهيدُ البِرِّ والحقِّ والهُدَىٰ　　على جَولةٍ للهِ أَوْ خَطَراتِ
صدوقٌ .. إلى الرحمٰنِ صحّ وِثَابُهُ　　وصحَّ يقينُ القلبِ والعَزَمَاتِ
يُرَوِّي الثرىٰ .. يمضي ويُسْكِبُ رَيَّهُ　　مِنَ الصدقِ عطْرًا .. ذَابَ في الخَلَجاتِ
فخانَكَ مِن عزمِ الرجالِ عزيمةٌ　　ورُحْتَ ذليلَ الصوتِ والخُطُوَاتِ(١)
تُنادي صلاحَ الدينِ مهلًا فإِنَّهُ　　يُدَوّي دَوِيّ السَّاحِ والحَلَبَاتِ
دَوِيًّا يَهُزُّ الأرضَ تحتَكَ هِزَّةً　　وينزعُ مِنْ جنبيْكَ أَيَّ ثَبَاتِ
نداؤُكَ كَيْدُ الظالمين وكِبْرُهُمْ　　وزيْفُ حضاراتٍ وزيْفُ دُعَاةِ
نداءُ جبانٍ جَاوَزَ الكبرُ جُبْنَهُ　　فخرَّ صريعَ الكِبْرِ والسَّكَرَاتِ
هُزِمتَ أمامَ القبرِ شرَّ هزيمةٍ　　كما هُزِمَ الأجدادُ في غَزَوَاتِ
نداءُ « صلاحَ الدين » مِلْءُ حواضرٍ　　ومِلءُ زمانٍ زاهرٍ بشُدَاةِ
أُولئكَ إنْ شئتَ الجدودُ فَسَلْهُمُ　　لعلَّكَ تلقىٰ الصَّدْقَ بَيْنَ رُفاتِ
جدودُكَ طوّاهُمْ ترابٌ وغيْهَبٌ　　وواراهُمُ التاريخُ في حُفُرَاتِ
أُولئكَ سَلْهُم عن شِعَارٍ ورايةٍ　　وما زيّفوا مِنْ جَوْهَرٍ وَسِمَاتِ
أَحريَّةُ الإنسانِ خنقُ حَنَاجرٍ　　وزيفُ إخاءٍ في لهيبِ تِراتِ
وزيفُ مساواةٍ على جاهليَّةٍ　　مُؤَجَّجةِ الأهواءِ والنَّزَوَاتِ
وَهذَا صلاحُ الدينِ مجدٌ مُؤَثَّلٌ　　على الصدقِ منشورٌ على صَفَحَاتِ

---

(١) يعني : « غورو » .

حسامُ الدين لُؤْلُؤ العادِلي ، الأسدُ الضِّرْغام : يسير بالقيود إلى الفرنجة قبل لقائهم :

قال عنه الذهبي : « لؤلؤ العادلي الحاجب من أبطال الإسلام ، وهو كان المندوب لحرب فرنج الكرك الذين ساروا لأَخْذ طيبة ، أو فرنج سواهم ساروا في البحر المالح ، فلم يَسِرْ لؤلؤ إلَّا ومعه قيودٌ بعددهم ، فأدركهم عند الفحلتيْن ، فأحاط بهم ، فسلّموا نفوسهم ، فقيّدهم ، وكانوا أكثر من ثلاثمائة مقاتِل ، وأقبل بهم إلى القاهرة ، فكان يومًا مشهودًا »[١].

لله دَرُّك مِن بطل ومن أمير ... تسير إلى أعدائك بقيودك بعددهم ، وأنت على يقين بأسرهم جميعًا !! هذه واللهِ البطولة والرجولة .

قال الذهبي : « خدم مع صلاح الدين ، وعُرِفَ بالشجاعة والإقدام ، وفي آخر أيامه أقبل على الخير والإنفاق في زمن قَحْط مصر ، وكان يتصدّق في كلّ يومٍ باثني عشرَ ألفِ رغيف ، مع عِدَّة قدورٍ من الطعام . وقيل : إن الملاعين التجئوا منه إلى جبل ، فترجَّل ، وصعِد إليهم في تسعة أجناد ، فأُلقي في قلوبهم الرعب ، وطلبوا منه الأمان ، وَقُتِلوا بمصر ، تولّى قتلهم العلماءُ والصالحون »[٢]. بل يُرسل منهم مَن يُذبح في مِنًى ... إي والله .

وللأقزام نقول : هذا حال من خدم مع صلاح الدين ... ومن كان أمير بحْرِه ... أصابته عدوىٰ الشجاعة والإقدام . من سيّده وموْلاه ... فهل تتطامن منكم الرؤوس الجوْفاء وكبْرها الزائف .. أمامَ خادِم صلاح الدين .

يقول العلّامة أبو شامة المقدسي في « عيون الروضتين » (٢ / ٩١ -

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٨٤ - ٣٨٥ .
(٢) السير ٢١ / ٣٨٥ .

٩٥) ، في أحداث سنة ٥٧٩ هـ : « في شوّال مِن هذه السنة : كانت نصرة الأسطول[١] المتوجّه إلى بحر القلزم[٢] لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز ، وذلك أنّ البرنس صاحب الكرك ، لمّا صعُب عليه ما توالى عليه من نِكاية أصحابه المقيمين بقلعة أيلة – وهي في وسط البحر ، لا سبيل عليها لأهل الكفر – أفكر في أسباب احتياله له ، وفتح أبواب اغتياله ، فبنىٰ سُفنًا ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، ثمّ ركّب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال ، ووقف منها مركبًا على جزيرة القلعة ، فمنع أهلها من استقاء الماء ومضىٰ الباقون في مراكب نحو « عيذاب » ، فقطعوا طريق التجّار ، وشرعوا في القتل والنهب والإسار ، ثم توجّهوا إلى أرض الحجاز ، وتعذّر على الناس وجه الاحتراز ، فعظم البلاء ، وأعضل الداء ، وأشرف أهل المدينة النبويّة منهم على خطر ، ووصل الخبر إلى مصر وبها العادل أخو السلطان ، فأمر الحاجبَ حسام الدين لؤلؤًا ، فعمّر في بحر القلزم مراكبَ بالرجال البحريّة ذوي التجرِبة ، من أهل النخوة للدّين والحميّة ، وسار إلى أيلة ، فظفر بالمركب الفرنجي عندها ، فحرق السفينة وأسر جندها ، ثمّ عدا إلى عيذاب وشاهد بأهلها العذاب ، ودُلّ على مراكب العدوّ ، فتبعها فوقع بها بعد أيّام ، فأوقع بها وواقعها ، وأطلق المأسورين من التجّار ، وردّ عليهم كل ما أُخذ منهم ، ثمّ صعِد إلى البرّ فوجد أعرابًا ، فركب خيلهم وراء الهاربين من الفرنج ، فحصرهم في شعب لا ماء فيه ، فأسرهم بأسرهم ، وكان ذلك في أشهر الحجّ ، فساق منهم أسيرين إلى مِنًىٰ كما يُساق الهدْي ، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارىٰ ، فكتب السلطان إليه بضرْب رقابهم ، وقطْع أسبابهم ، بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ،

---

(١) بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، انظر الروضتين ٢ / ٣٥ .
(٢) أي : البحر الأحمر .

ولا أحد يَخبر طريق ذلك البحر أو يعرف . ومن كتابٍ عن السلطان إلى أخيه العادل بالإنشاء الفاضلي(١) :

« وصل كتابه المؤرّخ بخامس ذي القعدة ، المسفر عن المسفر من الأخبار ، المتبسّم عن المتبسّم(٢) من الآثار ، وهي نعمة تضمّنت نعمًا ، ونصرة جعلت الحرم حرمًا ، وكفاية ما كان الله ليؤخّر معجزة نبيّه ﷺ بتأخيرها ، وعجيبةٌ من عجائب البحر التي تُحُدِّث عن تسييرها وتسخيرها ، وما كان الحاجب لؤلؤٌ فيها إلَّا سهمًا أصاب ، وحُمد مُسدِّدهُ ، وسيفًا قطع وشُكر مجرِّدُهُ ، ورسولًا عليه البلاغ ، وإن لم يُجهل ما أثرته يده ، وقد غَبْطناه بأجر جهاده ، ونجْح اجتهاده ، ركب السبيلَيْن برًّا وبحرًا ، وامتطى السابقيْن مركبًا وظهرًا ، وخطا أوسعَ الخطْوَ وغزا ، فأنجح الغزو ، وحبّذا العنان الّذي في هذه الغزوة أطلق ، والمال الذي في هذه الكسرة أنفق » . ومن كتابٍ آخر إلى بغداد(٣) : « كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرًا ، وافتضّوا من البحر بِكرًا ، وعمّروا مراكب حربية ، شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز ، وأثخنوا وأوغلوا

---

(١) الكامل لابن الأثير ١١ / ٤٩٠ - ٤٩١ ، والروضتين ٢ / ٣٦ - ٣٧ .

(٢) تبسّم : هو أقلّ الضَّحك وأحسنُه .

(٣) انظر : الروضتين ج ٢ ص ٣٧ . ولا بدّ لنا من لَفْتِ نظر القارئ إلى أن القاضي الفاضل في كتابه هذا إلى بغداد ، قد عقد مقارنة بين محاولة أبرهة الحبشي الاستيلاءَ على مكة وتدمير الكعبة الشريفة ، وإلى ما أصابه وجيشَه مِن غضب الله تعالى ، وذلك في القرن السادس الميلادي - وبين ما يحصل في القرن الثاني عشر للميلاد ، ومحاولة الصليبيين الاستيلاء على البحر الأحمر والموانئ الهامّة للسيطرة على الموانئ الهامّة على سواحل اليمن والحجاز ، واستباحة الأماكن المقدسة والسيطرة على تجارتها .

في البلاد ، واشتدّت مخافة أهل تلك الجوانب بل أهل القبلة ، لمّا أومض إليهم من خلل العواقب ، وما ظنّ المسلمون إلّا أنّها الساعة ، وقد نُشر مطويُّ أشراطها ، والدنيا قد طُوي منشور بِساطِهَا ، وانتُظِرَ غضب الله لغناء بيته المحرّم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه الأقدم ، وضريح نبيّه الأعظم ﷺ ، ورجوا أن تشحذ البصائرَ آيةٌ كآية هذا البيت ، إذْ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر ، وكان حسبَهم ونعمَ الوكيل ، وكان للفرنج مقصدانِ : أحدهما : قلعة أيلة الّتي هي على فوّهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر : الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله ، وانقسموا فريقين ، وسلكوا طريقين ، فأمّا الفريق الّذي قصد قلعة أيلة فإنّه قدّر أن يمنع أهلها من مورد الماء الّذي به قوام الحياة ، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه ، وأمّا الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن ، فقدّر أن يمنع طريق الحاجّ عن حجّه ، ويحول بينه وبين فَجّه ، ويأخذ تجّار اليمن ، وكارم عدن ، ويلمّ بسواحل الحجاز ، فيستبيح - والعياذ بالله - المحارم ، ويُهيّج جزيرة العرب لعظيمة دونَها العظائم ، وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمّر مراكب وفرّقها على الفرقتين ، وأمرهم بأنْ تطوي وراءهم الشقتين ، فأمّا السائرة إلى قلعة أيلة ، فإنّها انقضّت على مُرابطي الماء انقضاضَ الجوارح على بناتِ الماء ، وقذفتها قذفَ شُهُبِ السماء مُسْتَرِقِي سمعَ الظَّلْمَاء ، فأخذت مراكب العدوّ بُرمتها ، وقتلت أكثر مُقاتِلتها ، إلّا من تعلّق بهضبة وما كاد ، أو دخل في شعب وما عاد . فإنّ العربان اقتصّوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم ، فلم ينجُ منهم إلّا مَن ينهي عن المعاودة ، ومَن قد علم أنّ أمر الساعة واحدة ، وأمّا السائرة إلى بحر الحجاز ، فتمادتْ في البحر الحجازي إلى رابغ سواحل الحوراء ، فأخذت تجّارًا وأخافت رفاقًا ، ودلّها على عورات البلاد - مِن الأعراب - مَن هو

أشدّ كفرًا ونفاقًا ، وهناك وقع عليها أصحابنا وأُخذت المراكب بأسرها ، وفرّ فرنجها بعد إسلام المراكب ، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك ، ومقاطن المعاطب ، وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلّونهم شلًّا ، ويقتنصونهم أسرًا وقتلًا ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلًا ورجلًا نهارًا وليلًا ، حتى لم يتركوا عنهم مخبرًا ، ولم يُبقوا لهم أثرًا ، ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا** ﴾ [الزمر : ٧١] ، وقِيد منهم إلى مصر مائة وسبعون أسرى » . اهـ .

السُّلطانُ محمد بن مراد الفاتِحُ .. فاتحُ القسطنطينيّة :

أنْعِم به من فاتح ! المجاهد العظيم محمد بن مراد بن محمد جلبي بن بايزيد ، الذي رفع راية الإسلام فوق أسوار القسطنطينية ، ولمّا يُكْمل الثالثة والعشرين مِن عمره .

مواقفُ بطولةٍ تدكُّ بعزَمَاتِهَا صُروح الجاهلية الصليبية ، تنكِّس راياتهم ، وتهدِّم ناقوسَهم وأحلامهم ، وتزلزلُ الأرض من تحت أقدامهم ...

مَن كان يظنُّ أنَّ هذا الغلام المبارك ، الذي وُلِدَ في ليلة السابع والعشرين مِن رجب عام ٨٣٥ هـ سيفتح القسطنطينية في الثلاثاء الموافِق العشرين من جمادى الأول عام ٨٥٧ هـ .

لقد كان فتح القسطنطينية أملًا يملك على السلطان محمد الفاتح كلَّ مشاعِره منذ كان فتًى ، ولَشدُّ ما كان يُمضي مع أستاذه ومربِّيه العالم الجليل الشيخ أق شمس الدين ساعاتٍ طوالًا ، يذاكره في الحديث الشريف : « لَتُفْتحنَّ القسطنطينية ، فلَنِعم الأمير أميرها ، ولَنعم الجيش جيشها »(١) .

---

(١) رواه البخاري في تاريخه والحاكم في المستدرك عن بشر الغنوي ، وضعفه الألباني في الضعيفة رقم ٨٨٢ ، وضعيف الجامع رقم (٤٦٥٨) .

وكان التفكير بفتح القسطنطينية يكبر في نفس الفتى يومًا بيوم ، وأصبح فتْحُ القسطنطينية قمةَ طموحِ الفتى المؤمن ، وفي هذا الصدد يروي إسماعيل حامي « دنشمند » أنّ الفاتح كان يُمضي ساعاتٍ طويلة في كلّ ليلة - منذ أول يوم اعتلى فيه عرش السلطنة - في دراسة خريطة للقسطنطينية توضّح جميع نقاط الدفاع الإستراتيجية للبيزنطيين ، ونقاط الضعف في أسوارها .

وكان السلطان رحمه الله يُحيط جميع خُطَطِه ونواياه بالسِّرِّيَّة المطلقة ، وتراءىٰ للسلطان البَدْءُ في بناء قلعة ضخمة على الشاطئ الأوربّي من البوسفور ، وقام بنفسه باختيار موْقعها ، وشارك بنفسه في أعمال البناء وأطلق عليها اسم « روملّي حصار » ، أي : قلعة الروم ، وسيطر بها على مدخلي البوسفور من شاطئيْه : الأسيويّ والأوربي ، وضمن العثمانيون منع وصول أية إمدادات إلى القسطنطينية ، وخاصّةً مِن مملكة ترابزون النصرانية ، وأصبح على كلّ سفينة تريد العبور من البوسفور أن تخضع لتفتيشٍ دقيق ، وأن تدفع رسْمًا مقابل السماح لها بالعبور .

وأَقَضَّ الهَلَعُ مضاجع الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر إمبراطور القسطنطينية ، فبعث يستنجد ببابا روما ودُول أوربا النصرانية ، وبعث برسالةٍ إلى بابا روما يُنْذره فيها بأنه إذا سقطت القسطنطينية في يد المسلمين ، فإنّ هدفهم التالي سيكون روما مركز البابوية . وأبدىٰ الإمبراطور قُسطنطين استعداده للموافقة على توحيد كنيسته الأرثوذكسية بالكنيسة الكاثوليكية تحت زعامة البابا ، مقابل تعهُّد البابا بنجدته ، وبلغ الذُّعر به أنْ جَثَمَ بين يدي الكاردينال « ايزيذور » الكاثوليكي ، طالبًا بركته في القسطنطينية ، مركز الكنيسة الأرثوذكسية .

وأعلن السلطان محمد الفاتح في أحد أيام شهر جمادى الأول سنة ٨٥٦ هـ الحرب على الدولة البيزنطية ، ومنذ ذلك اليوم بدأ السلطان محمد

الفاتح في تشديد حصاره حول القسطنطينية ، وحين تيقَّن أنّ الحصار أصبح مُحْكَمًا ، عاد إلى « أدرنة » لِيمضي فيها موسم الشتاء ، وفي تلك الأثناء كان السلطان يُشرف بنفسه على صنْع مدفع ضخمٍ لم يسبق لأحد أنْ صنع شبيهًا له .

ووضع البيزنطيون السلاسل الحديدية في خليج « إستنبول » ، لمنع السفن الحربية العثمانية من الاقتراب من أسوار القسطنطينية من تلك الجهة .

وفي الخامس والعشرين من شهر ربيعٍ الأول عام ٨٥٧ بدأت طلائع الجيش العثماني بقيادة السلطان محمد الفاتح في الوصول إلى مشارف القسطنطينية ، وكان عدد أفراد ذلك الجيش بين مائةٍ وخمسين ألفِ جنديٍّ كحدٍّ أدنىٰ ، ومائتي ألفِ جنديٍّ كحدٍّ أعلىٰ . وبدأ الجيش زحْفه ، وسيطرت على رجاله فكرة الجهاد في سبيل الله والشهادة ، وألهب مشاعرَ الجنود تكبيرُ المئات من العلماء ، وعلى رأسهم الشيخ أق شمس الدين والشيخ القوراني ، والشيخ خسروي . وكان على الميمنة : إسحاق باشا ، حيث يقع الباب العسكري ، وعلى الميسرة : « دايي كراجا » باشا ، حيث يقع باب أدرنة ، وعلى القلب : السلطان محمد الفاتح باتجاه باب المدفع ، وتمركز « زاغنوس » باشا على رأس قوةٍ فوق المرتفعات المشرِفة على منطقة « قلطة » ، لضمان عدم قيام الجنْويين بنجدة القسطنطينية .

وفي اليوم الثاني من ربيع الآخر ، بدأتِ المدافع العثمانية في دكّ أسوار القسطنطينية ، واستمرّت في ذلك بدون انقطاع لمدة ثمانيةٍ وأربعين يومًا ، ولم تتوقّف إلَّا عندما أزف موعد الهجوم الأخير .

وبدأت السفن الحربية العثمانية بقيادة « بالطا أوغلو سليمان » بك عملياتها العسكرية ، فسيطرت على جزيرة « برينكيبوس » الحصينة .

وفي الثالث عشر من ربيع الآخر فُوجئ المدافعون عن القسطنطينية بأمرٍ لم يكن يخطر لهم على بالٍ أبدًا ؛ فقد كانت حوالي ثمانين سفينة حربية عثمانية تتمركز داخل مياه خليج القسطنطينية ، وظَنَّ قسطنطين وقادته أنّ العثمانيين قد نجحوا في تحطيم السلاسل الحديدية ، التي كانوا قد أغلقوا بواسطتها مدخل الخليج لمنع أيِّ سفينة عثمانية مِن العبور ، ولكنْ سرعان ما جاءتهم الأنباء تؤكِّد سلامة السلاسل ، فتملّكتْهم الدهشة ، وانعقدتْ ألسنتهُم من العجب ، ولئن كان الخوف والهَلَع قد عقد ألسنة نصارىٰ القسطنطينية ، وشلّ تفكيرهم ، فجعلهم ينسبون وجود السفن العثمانية داخل الخليج إلى معجزة وهمية - فإنّ حماس السلطان الفاتح ، وصدْقَ جهاده ، وعلوّ همّته ، قد كشفا عن بصيرته ، وفجّرا كَوَامِن عبقريته ، فابتدع طريقةً لإيصال السفن إلى داخل الخليج ، لا تكاد تخطر على بال ؛ وهل يخطر على بالِ أحد أنَّ السفن يمكن أنْ تمخر عُبَاب « الأرض » مثلما تمخر عباب الماء ؟! ذلك أنَّ السلطان محمد الفاتح - أنعِم به مِن فاتح - قد حطَّم ما ألفه الناس ، وأصرَّ على أنْ تمخر سفُنه عبابَ الأرض لمسافةٍ تزيد على ستة أو ثمانية أميال .

وكانت الطريقة التي اتُّبِعَتْ في تنفيذ تلك الفكرة العبقرية ، تعتمد على رصِّ الآلاف من جذوع الأشجار الضخمة في صفوف منتظمة على طول الطريق ، وسَكْب أطنان من الدهن والزيت فوقها ، لتسهيل عملية انزلاق السفن فوق هذا الجسر الخشبي ، وشارَك بضعةُ آلاف جنديٍّ مسلم في عمليات سَحْبِ السفن فوق الجسر ، وأُوكل إلى مجموعات أُخرىٰ مهمةُ رَبْطِ السفن من جميع جوانبها بحبال متينة ، لضمان توازنها أثناء سحبها ، فإذا مالت أثناء الطريق إلى جهة ، سارع المُمْسكون بالحبال من الجهة المعاكسة بشدِّ حبالهم ، فتستوي السفينة من جديد . وتمكّن المسلمون

في ليلة واحدة من نَقْلِ ثمانين سفينةً ، حتى إذا وصلوا إلى هدفهم ، أنزلوها في مياه الخليجِ ، وامتطَوْها بينما أصواتهم تهدر بالتكبير .

وقام السلطان طوَال يومي ١١ ، ١٢ ربيع الآخر بقصف السفن الحربية البيزنطية المتواجدة في الخليج ، بغية جعلها في حالة من الخراب ، لا تستطيع معه التصدّي للسفن العثمانية عندما يتمّ إنزالها إلى مياه الخليج ، كما قام في نفس الوقت بقصْف أسوار القسطنطينية بكثافة ، وذلك بغية إشغال البيزنطيين طوال الوقت الذي يقوم في أثنائه بسحب السفن ، عبر الطريق البرِّي إلى مياه الخليج ، وأمر السلطان باستعمال مدفعٍ من اختراعه - أطلق عليه اسم « مدفع الهاون » - في قَصْف السفن .

واخترع السلطان بُرْجًا متحرّكًا ، يزيدُ ارتفاعه عن ارتفاع أسوار المدينة ، ويتألَّف مِن عدّة طبقات لدكّ أبراج باب المدفع .

وَصَحَتْ أوربا النصرانية من غفلتها ، وأرسل « هونياد » ملك المجر إلى محمد الفاتح أنّ نصارىٰ المجر سيكونون إلى جانب أبناء دينهم (نصارىٰ القسطنطينية) ، فلم يردَّ السلطان محمد الفاتح إلَّا بأنْ أخذ موفدَهُ إلى مواقع المدافع العثمانية ، وأشار إليها قائلًا : قل لسيدكَ : هذا هو جوابي .

وفي يوم التاسع عشر من جمادى الأول ، بعث السلطان بعشَرات المُنادين ليجُوبوا صفوف الجند ، مُعلنين أنّ السلطان قد أمر بالاستعداد لشنّ الهجوم الفاصل ضدَّ أعداء الإسلام ، وأنه قد أمر برفْع مقام جميع الذين يسبقون إلى اختراق أبواب المدينة إلى داخلها قبل غيرهم ، وأن تسجل أسماءُ هؤلاء السبّاقين إلى اختراقِ المدينة لمنْحهم أُعطياتٍ مُجزية ، تُجْرىٰ على نَسْلهم ما بقي للدولة العثمانية سلطان .

وأصدر السلطان أمره بعد الغروب بإيقاد نيران المشاعل في البر والبحر ، بينما كانت أصوات عشرات الآلاف تتصاعد في السماء ، بالتكبير والتهليل والدعاء والابتهال إلى الله .

وبدأ السلطان في صباح اليوم السابق لدخول القسطنطينية ، فنوىٰ الصيام وندب جنده إلى الصيام ، وبعد الإفطار دعا السلطان مجلس حربه ، وقادة جيشه إلى الاجتماع ، وقال لهم : « إذا أعاننا الله عز وجل ففتح علينا القسطنطينية ، فسيتحقّقُ فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته العظام ، وسيكون من حظِّنا ما تضمّنه حديث رسول الله ﷺ من التقدير والتشريف ، فأبلغوا أبناءَنا العساكر فردًا فردًا أنَّ الظفر العظيم الذي سننجزه ، سيزيد الإسلام قدرًا وشرفًا . ويجب على كلّ جنديٍّ أنْ يجعل تعاليم شريعتنا الغرّاء نصْب عينيْه ، فلا يصدر عن أيّ واحدٍ منهم ما يُنافي هذه التعاليم ، وليتجنَّبوا الكنائس والمعابد ، ولا يمسُّوها بأذًى ، وليدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون .

وفي صباح اليوم التالي ، زحف الجيش الإسلامي يسبقه هديرُ التكبير والتهليل ، وفي مقدِّمته السلطان محمد الفاتح ، ونصب المجاهدون ألفي سُلَّمٍ خشبي ، ليصعدوا إلى أعالي الأسوار والأبراج ، وقذفوا بأكثر من ثلاثين ألف مُجدّلٍ ، لتثبيتها بواسطة الخطاطيف والكلاليب فوق الأسوار ، ليصعدوا بواسطتها لملاقاة جنود النصارىٰ في أعالي الأسوار والأبراج ، وكان تكبير معسكر الترك يتردّد وكأنّه زلزال الحشر ، وكأنّ القوات التركية تريد أن تكسب الدنيا والآخرة في آنٍ واحد . واحتدم القتال ، وبذل المدافعون عن المدينة بقيادة « جوستنيان » الجنويّ غاية جهدهم في صدّ الهجوم الإسلامي ، وانهالت السِّهَامُ والسيوف وقوارير الزَّيْت المغليّ على المسلمين . وطفق القساوسة والرهبان يؤكِّدون للناس أن الملاك الأزرق

لن يسمح للمسلمين بدخول القسطنطينية .

وأمر السلطان بتركيز الهجوم على ثلاث جهات معيَّنة من الأسوار ، كَثُرتْ فيها الفجوات والثغرات التي أحدثها القصْف المدفعي .

وفي يوم الثلاثاء ، العشرين من جمادى الأول من عام ٨٥٧ هـ - وهو يوم فتح القسطنطينية - خطب السلطان فيمن حوله من المجاهدين خطبة ، لم تزد على بضع كلمات ، كما يروي « إسماعيل دنشمند » في كتابه « موسوعة التاريخ العثماني » ، قال فيها : « يا أبنائي ، ها أنا ذا مستعدٌ للموت في سبيل الله فَمَن رغِب في الشهادة فلْيلحق بي » ، لله دَرُّكَ من فاتح !

وتدافع المجاهدون وراء قائدهم العظيم ، كأنهم السيل العَرِم ، وما هي إلّا سُويعات حتى كانت حدّة المقاومة الصليبية تتلاشىٰ شيئًا فشيئًا ، واندفع السلطان بجنوده إلى داخل المدينة ، من ثغرةٍ في جهة باب المدفع ، وتمكّن القائد المسلم « قراجا بك » مِن اختراق فجوة في أسوار المدينة من جهة الشمال ، وانهمر المجاهدون من ورائه ، وتمكّن جنديٌّ مسلم من قتل قائد النصارىٰ في تلك الجهة ، فانهارت مقاومة المدافعين وولّوْا هاربين .

وفي تلك الأثناء تمكّن قائد الأسطول العثماني « حمزة باشا » من إزالة السلاسل الحديدية والدخول بسُفنه ، وانضمَّ بها إلى السفن العثمانية المتواجدة في خليج القرن الذهبي ، واقترب من أسوار المدينة التي تهدّمت بفعل القصف المدفعيّ ، واندفع بجنوده من فوق أنقاضِ الأسوار إلى داخل المدينة من تلك الجهة .

وقُتل « جوستنيان » قائد المدافعين عن المدينة ، وأجهز أحد المجاهدين

على الإمبراطور قسطنطين في المعركة ، ووثب العديد من المجاهدين إلى أعالي الأسوار ، يُزيلون الرايات البيزنطية من فوقها ، ويضعون مكانها الرايات العثمانية ، وقام العشرات برفع أصواتهم بالأذان من فوق أسوار المدينة ، وحين رأى السلطان الفاتح رايات الإسلام تتهادىٰ بِخُيَلَاء وشموخ فوق أسوار المدينة ، وعندما سمع صوت الأذان الهادر - خرّ ساجدًا على الأرض شكرًا لله .

ومضىٰ المسلمون في تقدُّمهم من ثلاث جهات إلى مركز المدينة ، حيث تقع كنيسة أياصوفيا ، ولم يواجهوا مقاومة ذات بالٍ ، وكانت شوارع القسطنطينية وأزقّتها شبهَ خالية من الناس ، فقد الْتجأ معظمهم إلى كنيسة أياصوفيا .

ودخل السلطان العثماني المدينة من باب المدفع « توب كابي » ، واتجه مباشرة إلى كنيسة أياصوفيا ، فوجد بها أعدادًا كبيرة من النصارىٰ ، فطمْأنهم وأمَّنهم على أرواحهم ، وكان وصول السلطان وقتَ الظُّهر ، فأمر المؤذّن فأذّن لصلاة الظهر ، فصلّى المسلمون الصلاة جماعةً في داخل الكنيسة ، بعد أن أُخليت ممّن كان فيها ، وبعد أن تمّ إزالة ما كان بداخلها من تماثيل ، ومنذ ذلك الوقت تحوّلت كنيسة أياصوفيا إلى مسجد « أياصوفيا » ، وأُقيمت أول صلاةِ جمعةٍ في مسجد أياصوفيا في اليوم الثالث والعشرين من جمادىٰ الأول ، عام ٨٥٧ هـ وفق الأول من حُزيران عام ١٤٥٣ م ، وكان خطيب الجمعة وإمامها العالم المجاهد أق شمس الدين . وهناك رواية تقول بأنَّ السلطان الفاتح هو الذي ألقىٰ خطبة الجمعة ، وأنّ الشيخ أق شمس الدين أَمَّ الناسَ في الصلاة .

وكان عدد قتلىٰ النصارىٰ أكثر منْ أربعة آلاف قتيل ، بينما بلغ عدد الأسرىٰ أكثر من خمسين ألف مقاتلٍ ، كان أحدهم إذا رأى جنديًّا مسلمًا ،

يركع على الأرض رافِعًا يديه ، فلا يهدأ روعُه إلَّا بعد أنْ يرىٰ الجنديّ المسلم يكتفي بأسره .

وقبل وصول الفاتح إلى كنيسة أياصوفيا ، وعند بلوغه منتصف المدينة ، توقّف عن المسيرة ، وخطب فيمن حوله ، وقرأ عليهم بلغةٍ عربية فُصْحَىٰ البشارةَ النبوية الكريمة ، وعند وصوله إلى الكنيسة ، سجَدَ لله شكرًا .

هَٰذِي الدِّيَارُ «بَنِي عُثْمَانَ» كَمْ رَفَعَتْ ... للهِ مِـنْ رَايَـةٍ خَفَّاقَـةِ العَـذَبِ
وَكَمْ تُرَىٰ دَفَعَتْ للهِ مِن عُصَبٍ ... تَمْضِي عَلَىٰ سَاحِهَا مَوْصُولَةَ العُصَبِ
هُنَا السَّلَاطِيْنُ كَانَتْ في مَجَالِسِهَا ... نُورًا مِنَ الحَقِّ أَوْ بَرْقًا مِنَ القُضُبِ
هُنَا الوُفُودُ الَّتي جَاءَتْ مُسَلِّمَةً ... فَأَسْلَمَتْ أَوْ تَلَقَّتْ عِزَّة الأَدَبِ
أَحْلَىٰ الأَمَاني لَدَيْهَا أَنْ تَرَىٰ رَجُلًا ... شَقَّ المَيَادِينَ شَقَّ الفَارِسِ الضَّرِبِ
وَجَمَّعَ النَّصْرَ مِنْ وَادٍ وَمِنْ جَبَلٍ ... وَمِنْ بِحَارٍ وَمِنْ نَهْرٍ وَمِنْ شُعَبِ
حَتَّىٰ أَتَىٰ لِمَضِيقٍ غَيْرِ مُنْفَرِجٍ ... وَزَحْمَةٍ مِنْ عَظِيمِ الهَمِّ والنَّصَبِ
ضَاقَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَىٰ مِنْ جَحَافِلِهِ ... جَحَافِلًا وَرَمَىٰ بِالنَّـارِ بالشُّهُـبِ
حَتَّى إذَا اسْتَغْلَقَ اللَّيْلُ البَهِيمُ وَمَا ... رَأَى بِهِ فُرْجَةً تُنْجِيهِ مِنْ كُرَبِ
تَدَفَّقَ النُّـورُ شَـلَّالًا يُضِيءُ لَهُ ... بُشْرَى مِنَ اللهِ لَمْ تَكْذِب وَلَمْ تَرِبِ
لَتُفْتَحَـنَّ بِلَاد الرُّومِ فَاتِحُهَـا ... نِعْمَ الأَمِيرُ وَنِعْمَ الجَيْشُ فَاقْتَرِبِ
بُشْرَىٰ الرَّسُولِ[1] أَضَاءَتْ كُلَّ نَاحِيَةٍ ... وأَشْعَلَـتْ هِمَّـةً مِنْ فِتْيَةٍ نُجُـبِ
وَفَتَّحَتْ سُبُلًا لَانَتْ مَسَالِكُهَا ... لِصَـابِرٍ فِي سَبِيلِ اللهِ مُحْتَسِـبِ
وَأَحْكَمَ الأَمْرَ فَانْسَابَتْ بَوَارِجُهُ ... مَا بَيْنَ مُخْتَبِيءٍ مِنْهَا وَمُنْسَرِبِ
حَتَّىٰ أَحَاطَ بِهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ... وَأَحْكَمَ الطَّوْقَ مِنْ بَابٍ وَمِنْ سَرَبِ

---

(١) حديث : « نعم الجيش جيشها ، ونعمْ الأمير أميرها » : « ضعيف » .

فَرُجَّتِ الأَرْضُ مِنْ زَحْفٍ تَمُوجُ بِهِ ... دُنْيَا البُطُولَاتِ إِعْصَارًا بِكُلِّ أَبِي
كَأَنَّمَا الأَرْضُ شُقَّتْ عَنْهُمُ فَعَلَوْا ... أَكْتَافَهَا وَرَمَوْهَا رَمْيَةَ العَجَبِ
وَأَشْرَقَ الفَجْرُ وَالدُّنْيَا تُطِلُّ عَلَىٰ ... بُشْرَىٰ وَآيَةِ نَصْرٍ أَوْ حَدِيثِ نَبِي
بُشْرَىٰ مَعَ الدَّهْرِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ ... وَلَهْفَةُ الشَّوْقِ مِنْ جُنْدٍ وَمِنْ عُصَبِ
جَالُوا بِهَا فَكَأَنَّ النُّورَ يَغْمُرُهَا ... يَرْوِي وَيَغْسِلُ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْ شُعَبِ
وَأَطْلَقُوا دَعْوَةً للهِ صَادِقَةً ... تُزِيحُ مِنْ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ والحُجُبِ
كَأَنَّمَا فَتَّحُوا غُلْفَ القُلُوبِ بِهَا ... فَتْحًا مِنَ اللهِ لَا فَتْحًا مِنَ القُضُبِ
قُسْطَنْطِينِيَّةُ هٰذَا النُّورُ فَانْتَفِضِي ... وَكَبِّرِي وَاسْجُدِي للهِ وَاقْتَرِبِي
وَهَلِّلِي يَا رُبَىٰ اسْتَنْبُول وَائْتَلِقِي ... وَزَيِّنِي الدَّارَ مِنْ حلْيٍ وَمِنْ قُشُبِ
وَرَفْرِفِي بِالهُدَىٰ مِنْ كُلِّ رَابِيَةٍ ... مَآذِنًا خَشَعَتْ بالآيِ وَالرَّهَبِ
لَوْلَا فُتُوحُ رَسُولِ اللهِ قُلْتُ هُنَا ... فَتْحُ الفُتُوحِ وَهٰذِي زَهْوَةُ الغَلَبِ
تَسَابَقَ الخُلَفَاءُ المُسْلِمُونَ لَهَا ... عَلَىٰ الزَّمَانِ سِبَاقَ الصَّادِقِ الأَرِبِ
فَلَمْ يَنَلْهَا سِوَىٰ هٰذَا الفَتَىٰ قَدَرًا ... للهِ يُمْضِيهِ فِي تُرْكٍ وَفِي عَرَبِ
مُحَمَّدٌ فَاتِحُ الدُّنْيَا وَمَا طَمِعَتْ ... نَفْسٌ لَهُ بِرَخِيصِ الفَتْحِ وَالسَّلَبِ
يَمْضِي إِلَىٰ اللهِ وَالفِرْدَوْسُ غَايَتُهُ ... وَلَهْفَةُ الشَّوْقِ تُنْجِيهِ مِنَ الرِّيَبِ
كَأَنَّ وَثْبَتَهُ للهِ دَفْقُ هُدَىٰ ... يُفَجِّرُ النُورَ في وَادٍ وَفِي هِضَبِ
كَأَنَّمَا أَنْبَتَتْ أَسْيَافُهُ وَرَوَتْ ... وَرْدًا وَعَضَّتْ عَلَىٰ الأَشْوَاكِ وَالغَرَبِ
وَصَارَتِ الأَرْضُ رَوْضًا مِنْ أَزَاهِرِهِ ... طَلَائِعُ الحَقِّ مِنْ صِيْدٍ وَمِنْ نُجُبِ
فَتْحٌ مِنَ اللهِ مَا أَحْلَاهُ مِنْ أَمَلٍ ... بَلَغْتَهُ وَكَرِيمِ السَّعْيِ وَالطَّلَبِ[1]

للهِ درُّ محمد الفاتح مِن فاتح صادق الحبِّ لله ورسوله ، عالي الهمّة في الجهاد والبذْل ...

---

(١) « فتح القسطنطينية » من « ملحمة القسطنطينية » لعدنان النحوي .

كتب رحمه الله إلى سلطان دولة المماليك الشراكسة في مصر « إنيال شاه » : « إنَّ مِن أحسن سنَنِ أسلافنا ، أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لوْمة لائم ، ونحن على تلك السُّنة قائمون ، وعلى تلك الأمنية دائمون ، متمثِّلين بقوله تعالىٰ : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنونَ باللهِ** ﴾ [التوبة : ٢٩] ، ومستمسكين بقوله عليه السلام : « مَن اغبرَّتْ قدماه في سبيل الله ، حرّمه الله على النار » . ولهذا ، فقد هممنا هذا العام ، مُعْتَصمين بحبلِ اللهِ ذِي الجلال والإكرام ، ومستمسكين بفضل الملك العلَّام ، إلى أداء فرض الغزاء (الغزو) الذي فرضه علينا الإسلام ، مُؤْتمرين بأمره تعالىٰ : ﴿ **قَاتِلُوا الذين يَلُونَكُمْ من الكفار** ﴾ ، وجهّزنا عساكر الغزاة المجاهـدين من البر والبحر ، لفتْح مدينةٍ مُلِئَتْ فجورًا وكفرًا ، والتي بقيتْ وسط الممالك الإسلامية تُباهي بكفرها فخرًا » .

لله دَرُّ الفاتح من سلطانٍ بلغت الجزية في عصره حوالي ستة وثلاثين ألف دوقية ذهبية ، وهو مبلغ كبيرٌ جدًّا في وقته !! وجُبِيَتْ هذه الجزية على النحو التالي :

مملكة ترابزون : (٢٠٠٠) دوقية ، ومملكة الصِّرب : (١٢٠٠٠) دوقية ، وجمهورية دوبروفنك : (٣٠٠٠) دوقية ، وبلاد المورة : (١٠٠٠٠) دوقية ، ومستعمـرة سـاكين الجنوية : (٦٠٠٠) دوقية ، ودوقية ميدللي الجنوبية : (٣٠٠٠) دوقية .

ودفع البنادِقَةُ جزيةً سنويةً مقدارها مائتا ألفِ دوقية ذهبية .

لله دَرُّ الفاتح وهو يواجه الحِلْف الصليبيّ الذي عقده ملك المجر « لاديسلاس » ، وملك الصرب « جورج برانكوفيتش » ، فاندفعت قوات المجر بقيادة « هونياد » ، وجيشُ الصرب سنة ٨٥٩ هـ . وانتصر السلطان

محمد الفاتح على هذا التحالف ، واضطُرّ « هونياد » المجَري إلى الفرار داخل المجر ، واضطُرّ « برانكوفيتش » إلى دَفْعِ جزية سنوية ، مقدارها ثلاثون ألف دوقية ذهبية .

ولله دَرُّ الفاتح حين يواجه تحالفًا صليبيًّا آخر من جيش ألبانيا (بلاد الأرناؤوط) ، بقيادة ملكها « إسكندر بك » ، وقوات نابولي الإيطالية بقيادة ملكها ، وتمكّن الفاتح من هزيمة التحالف « الإيطالي الأرناؤوطي » في معركة « بيرات » . واضطُرّ « إسكندر بك » إلى الفرار بعد قَتْل وأسر معظم أفراد جيش التحالف .

ولله دَرُّه وهو يلقِّن الأدبَ فرسانَ القدِّيس « يوحنَّا » ، وكانوا خليطًا من الفرنسيِّين والطَلْيَان والألمان ، ويُوقع خسائرَ كبيرةً في عديد من جُزُرهم !!

ولله دَرُّه وهو يحاصر بلغراد في التاسع من رجب عام ٨٦٠ هـ ، بل ويدخلها في الثامن عشر من شعبان ، ثم يتراجع عنها ثانية ، وتمكّن مَغَاويرُ الإسلام مِن قَتْل القائد المجري هونياد ، وقائد المتطوعين الصليبيين الراهب « كابيسترانو » !!

ولله دَرُّ الفاتح وهو يفتح « أثينا » وبلاد اليونان عام ٨٦٢ هـ ، واستمرّت سيطرة العثمانيين على أثينا ومعظم بلاد اليونان حوالي ٣٧١ عامًا من غير انقطاع !!

ولله دَرُّه حين يكمل السيطرة على جنوب شبه جزيرة المورة عام ٨٦٣ هـ !!

ولله دَرُّه وهو يفتح « سمِندرة » عاصمة مملكة الصِّرب ، ويعلن ضمَّ بلاد الصرب بشكلٍ نهائي ، وجعلِهَا إحدىٰ ولايات الدولة العثمانية !!

ولله دَرُّه وهو يفتح مَحْمِيَّة « أماسرا » التي كان يسيطر عليها الجِنْوِيُّون ،

ثم مقاطعة « سينوب » !!

ولله دَرُّه وهو يُنهي آخر معقل نصراني في بلاد الأناضول ، وهو مملكة « طرابزون » عام ٨٦٥ هـ ، فقد حصّنها النصارىٰ من جميع الجهات ، إلَّا من الجهة المحاذِيَة لسلسلة جبال البلغار ، فلم يكنْ يخطر ببالهم أنْ يستطيع أيُّ جيشٍ اختراقَ تلك الجبال الوَعِرة التي تغطِّيها الغابات العشوائية ، وتكتنِفُهَا الثلوج .

وأصرّ السلطان الفاتح على القيام بتلك المغامرة ، التي لا تقلُّ خطورةً ومشقَّةً عن عملية نقلهِ ثمانين سفينةً حربيةً ، عبر ثمانيةِ أميال فوق الأرض اليابسة . وفوجئ نصارىٰ « طرابزون » ذات ليلةٍ بهديرِ التكبير والتهليل ينطلق من تلك الجهة التي حسبوها في مأْمَن ، وكان وَقْعُ سقوط مملكة طرابزون النصراينة كوقع الصاعقة على نصارىٰ أوربا ، ففاضتْ بالأحزان نفوسُهم بعد نهاية آخر بَصِيصِ أملٍ لهم .

لله دَرُّه حين يُيَمِّم وجهَه شَطْرَ بلاد الأفلاق (رومانيا) ، وينتصر على أمير الأفلاق « داكول » الملقَّب بالشيطان ، ويفرُّ « داكول » الشيطان إلى المَجَر الذي خشي ملكها من غضب الفاتح ، فيسجن داكول ، ويضمُّ الفاتح رومانيا عام ٨٦٦ هـ إلى الدولة العثمانية !!

ولله دَرُّه وهو يفتح جزيرة « ميديللي » ، ويعدم جميع الجنود البيزنطيين والمرتَزِقَة الصليبيين ، جزاءَ ما اقترفوه من جرائم السَّلْبِ ضد السفن العثمانية !!

لله دَرُّه وهو يؤدِّب ملك البوسنة النصرانية « ستيفان توماشوفش » ، ويقتله ويستولي على مملكته عام ٨٦٧ ، ويضمُّها لملك المسلمين !!

ولله دَرُّه حين يضمُّ « قونية » عاصمة سلطنة « قرمان » السلجوقية إلى الدولة ، عام ٨٧١ هـ لتصبح ولاية عثمانية .

ولله دَرُّ الفاتح وهو يؤدّب ستيفان الرابع (فارس المسيح) ، ويُلحق الهزيمة بالجيش البغداني في ربيع الآخر عام ٨٨١ هـ .

ولله دَرُّه حين تُسلّم له مدينة « إشكودرا » آخر معاقل البنادقة في بلاد الأرناؤوط ، لتستمر سيطرة العثمانيين على جميع بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) ، حوالي ٤٣٣ عامًا .

ولله دَرُّه وهو يؤدِّب الكونت « كينيس » ويُوقعه في الأسر هو وبضعة آلاف من جيشه ، من بينهم أكثر من خمسمائة راهب كانوا في عداد المقاتِلين !!

ولله دَرُّه وهو يؤدِّب الإيطاليِّين ، ويضع أول قدمٍ له في إيطاليا في العشرين من جمادى الأولى عام ٨٨٥ هـ ، ويستولي على ميناء ومدينة « أوترانتو » في جنوب إيطاليا ، بعد حصار دام أربعة عشر يومًا ، ويفرّ أهل نابولي من مدينتهم ، ويدبُّ الرعب في قلب بابا روما ، بعد علْمه بأنّ السلطان يُعِدُّ للاستيلاء على نابولي ، ليصل إلى هدفه الرئيسيّ : روما (التفاحة الحمراء) ، لولا موت محمد الفاتح ، « وفي الليلةِ الظلماءِ يُفْتَقَد البدرُ » .

وَوَصَّىٰ الفاتح ولَدَه « بايزيد » : « يا بُنَّي ، ها أنا ذَا أموت ، تاركًا ورائي كلَّ النِّعم الجليلة التي أكرمني بها الله ، إلى نِعَمٍ أكبر وأبقىٰ ، فإنْ رَغِبْتَ في اللِّحاق بي إلى رحاب الله ، فالزمْ طريقي ، واسلك السبيل الذي سلكتهُ مجاهدًا في سبيل الله . يا بُنَّي ، إنّ نشرَ الإسلام في الأرض هو واجب الملوك على الأرض ، فاعمل على نشر دين الله حيثما استطعتَ » .

ونختم بقصة رواها المؤرخ التركيُّ إسماعيل حامي « دنشمند » ، في كتابه : « موسوعة التاريخ العثماني » : أن « سارّة خاتون » شاهدتِ السلطان بحالة من الإنهاك والتعب الشديد ، اضطرته إلى الاضطجاع إلى جذعٍ شجرة ، بعد أن بذل جهدًا كبيرًا في مشاركة جنوده في تقطيع الأشجار ، وإزالة

الثلوج لتمهيد الطريق أمام الجيوش ، فاقتربت منه ، وجرى بينهما الحوار التالي :

قالت سارة خاتون : يا بنيَّ ، ما الذي يُجبرك على تَحمُّل هذا العَناء ، من أجل مدينة صغيرة ؟ فأجابها السلطان الفاتح : يا أُمَّاهُ ، هذا العناء كلُّه في سبيل الإسلام ، وهل تَظنِّين أنّنا نكون أهلًا لنُسمَّى بالمجاهدين ، إذا لم نتحمَّل هذا العناء في سبيل الله ! يا أمَّاه ، إنَّ هذه السيوف التي نحملها ليست للزينة والتَّبَاهِي ، وإنما لِنقاتِل بها في سبيل الله[(١)] .

○ القَبْـوُ الزُّجَـاجِيُّ ○

أَيُّهَا الفَاتِحُ .. ضَيَّعْنَا مَفَاتِيحَ المدائنْ !!
ونسِينا البحرَ .. والموجَ وتهليلَ السفائنْ !!
ونسينا الخَيْلَ والرمحَ .. وأَسرارَ الكمائنْ
سورةُ الفتحِ هَجَرْناها .. وبدَّدْنَا صَدَاها
وتراءَتْ في حنايانا أنينًا وحنينَا
كلّ أشجار الفتوحاتِ أَرَاهَا
عارياتٍ من رُؤَّاها
مِن ثمارِ المجدِ ..
في أوراقها جفَّتْ دماءٌ
كنتَ تُسقِيها شَذَاها
أَيُّهَا الفاتحُ أَقْبِلْ .. أنتَ ما زلتَ فَتَاها

---

(١) انتهى ملخصًا من كتاب : « السلطان المجاهد محمد الفاتح فاتح القسطنطينية » لزياد أبو غنيمة – دار الفرقان .

انْزَعِ السيفَ مِن الغمْدِ فقد تهْنَا وتَاها !!
لم يزلْ سيفُكَ في القَبْو الزجاجيّ سَجينَا
نائمًا في غِمْدِهِ يحرسُ أسيافَ الخلافَهْ !!
وإلى جانبهِ سِيفُ عليٍّ « ذو الفقارْ »
ذلكَ الباترُ في كلِّ غزاةٍ : سيرةَ الكفرِ .. صداهُ وشغافُه
انظرِ الآنَ إليهْ ...
ليسَ إلَّا أثرًا يشهدُه « السُّيَّاحُ » من كلّ القِفَارْ !!
وضعوهُ حِلْيَةً للزَّهْوِ .. واللّهوِ بأزمانِ الفتوحاتِ الكبارْ !!!
أيُّهَا الفاتحُ .. ضيَّعْنَا مفاتيحَ المدائنْ !!
.. خالدٌ .. في عصرنا يُسْجَن في قبرٍ زجاجي ...
وللفاروقِ والصِّدِّيق ذياكَ المصيرْ !!
... هذه أسيافُهُمْ مَثْلُومَةٌ تنعى إلينا
حَدُّهَا المغتال في جَوْفِ القبورْ !!
أيُّهَا الفَاتِحُ أَمْسَى السيفُ ظِلَّا
ووشاحًا ساكنًا فوقَ الصدورْ !!
إنَّهُ أضحى بقصرِ الحُكْمِ مرسومَ ضيافَهْ
إنَّهُ أصبحَ نَقْشًا فوقَ جُدرانِ الطُّلُولْ
كلُّ مَن يشهدهُ ..
يقرأ في جبهتِهِ عصرَ رواياتِ الأُفول
وأنا جئتُ إلى قصرِكَ ضَيْفًا ما معي إلا الهَوِيَّهْ
إنَّهَا « الله ولا ربَّ سواهْ »
إنَّها « لا إلـهَ إلا الله .. محمدٌ رسولُ اللهْ »
جِئتُ والقلبُ بأبواب الفتوحات مُعلَّقْ

جئتُ .. لكنْ
بابُ « إسلامبولَ » في وجهيَ مُغْلقْ !!
صَدَّني عن بابِكَ العالي
انْكِشاريٌّ بلا أيِّ هَوِيَّهْ
جاءَ مِنْ أرضِ الشَّتَاتِ الهَمَجِيَّهْ
جاءَ والصربُ تغذِّيهِ .. ويسقي من كُئُوسِ الروسِ نخْبَ البربريهْ !!
... قلتُ إنِّي ..
مِنْ جنودِ الفاتِح القائدِ حامي أرضِ كلِّ المسلمينْ
قال في القاعةِ لا يُوجدُ إلَّا بعضُ أشلاءَ مِن العهدِ الطعينْ
إنَّهَا رائحةٌ مِن زَمَنٍ
كَانَ .. صُعودًا .. وانحدارًا .. وانكسارًا بين أيدي الخائنينْ !!
إنَّهَا أطلالُ تاريخٍ .. وأشباحُ رجالٍ ...
... سكنُوا القبوَ الرخامِيَّ السجينْ !!
رحلَتْ ذاكرتي في مُدُنِ الشعرِ .....
وأصغتْ لأميرِ الشعراءِ في شرودٍ وعَياءْ
« اللهُ أكبرُ كمْ في الفتحِ مِن عَجَبِ
يا خالدَ التركِ جدِّدْ خالدَ العربِ »
أيُّ فتحٍ .. يا أميرَ الشعرِ في عصرِ الفتوحاتِ العقيمهْ ؟
أيُّ فتحٍ ؟ خالدَ التركِ .. أتاتوركُ ..
... لقدْ ألقَى بماءِ النارِ في وجهِ الخلافهْ !!
شوّه الوجهَ السماويَّ الجميلْ
جعَل البسفورَ ملهًى ...
والعرايَا ... فيهِ يسبحْنَ ويعبرْنَ مضيقَ الدردنيلْ !!

سفنُ الفتحِ ...
ويا للفتحِ أحالُوها مواخيرَ السُّكَارَىٰ العابثينْ
والمحاريبُ
فضاءاتُ نحيبٍ .. حوَّمتْ فيها طيورٌ مِن عويلْ
يَنْعِقُ البومُ بأحشاءِ الثُّريَّات المطفأهْ
آهِ قدْ كانتْ لآلافِ المصلِّين مَنَاراتٍ ...
وللمقرورِ كانتْ مِدْفَأَهْ
وهي كانت بقايا من قناديلِ الفتوحِ المرْجَأهْ ..

* * *

أيُّهَا الفاتحُ ... « إنَّا .. قدْ فتحْنا لك فتحَا ..
كانَ - بِالحقِّ - مبينًا » ..
وأبو أيُّوبَ فوقَ السُّور ما زالَ يكبِّرْ
اللهُ أكبرُ ... اللهُ أكبرُ ... اللهُ أكبرْ
غَلَبَ الرومَ ... وأشجارُ الفتوحاتِ تُهَلِّلْ
والنواقيسُ تلاشتْ
والجيادُ الصافِناتُ المؤمناتُ
في ميادينِ الوَغَىٰ تَصْهَلْ .. بالفتحِ تُحمحمْ
وَعَلىٰ الشاطئِ تختالُ المآذنْ ...
وتصلِّي وتسلِّمْ
إنَّهُ الماءُ يسبِّحْ
والنُّجَيْمَاتُ تسبِّحْ
وَالفَنَارَاتُ تُسَبِّحْ

والمجاديفُ تسبّحْ
إنَّهُ اللهُ ... فسبِّحْ باسمِ رَبِّكْ
إنَّهُ حامي الحِمَى حارسُ دَرْبِكْ
أيُّهَا الفاتحْ .....
في ظِلِّكَ ظلَّ السَّيْفُ مِصْباحًا مُضيئًا
حارسًا شرعةَ ربِّكْ ..
هل أعودُ الآنَ مِن وَهْمِي ..؟ أعودْ ......!!
وأعودُ حامِلًا في القلبِ مشكاةً حزينهْ !!
ضوءها الدُّرِّيُّ مِنْ نيرانِ أشلائي يمتاحُ الوقودْ !!!
نَقْشُهَا الساكنُ في القلبِ تواريخُ لأمجادٍ طَعينَهْ
وفضاءَاتُ غماماتٍ وأسرابُ بروقٍ ورعودْ
أيُّهَا الفاتِحُ «إسلامبولَ» يغزوها الجرادْ
وجهُهَا الأبيضُ أَلقَوْا فوْقَهُ قارَ الفسَادْ
سَلَبُوها العِرْضَ ... والأرضَ وباعُوها جِهارًا في المزادْ
جاءَها من كلّ فَجٍّ أزرقُ النَّابِ ..
وَمَصَّاصُ الدماءْ
أحمرَ الرغبةِ في عينيْهِ أمواجُ الدهاءْ
أصفرَ البسمةِ في خطوَتِهِ ريحُ الفناءْ
أطلقَ الريحَ ... العقيمْ
أياصوفيا في مهبِّ الريحِ شيخُ جِذرٍ في الأرضِ موصولٌ بأسبابِ السماءْ
صُورةُ العذراءِ في محرابِهِ تَغْشَى وجوهَ العابدينْ
مُتْحفًا صارَ لأجسادٍ عُرَاهْ ...
يصلبونَ العمرَ إثْمًا في مساءاتِ الجُنونْ

خطفتْني الريحُ ألقتْني « بوَادٍ غيرِ ذي زرعٍ » ..
سَرَاييفو ...
جبَالٌ من جليدٍ ودماءْ ...
وتلالٌ من عِظامٍ وفَناءْ ...
... أيُّهَا الفاتح « إسلامبولَ » يغزوها الجرادْ .
في سراييفو وبيهاتشَ وفي الشيشان في القِرْم
وُحوشُ الصربِ تغتالُ الطفولهْ ...!!
في دماءِ التائبينَ الراكعينَ الساجدينَ الشهداءْ
هُمْ يخوضُونَ ويَلْهونَ بأجسادِ النساءْ
ويُبيدون الرجولهْ !!
يزرعونَ الرَّحِمَ المؤمنَ كُفرًا .. وشياطينَ عذابْ
في خلايا الطُّهْرِ يُلقونَ المنايا ... شكّلتْها نُطَفٌ
تقذِفها في الرَّحِم المؤمنِ أصلابُ الكلابْ !!
والصناديدُ الصِّلابْ
حُرِّقوا في دارِهم .. لا جُرْمَ إلَّا أَنْ يقولوا : ربُّنَا اللهْ ..
حمَلُوا القبرَ على أكتافِهِمْ ..
لا جُرْمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
أَكَلُوا المَيْتَةَ والعُشْبَ وماتَتْ شَمسُهُمْ
لا جرمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
شهدوا أعضاءَهم تسقُطُ مِن أجسادِهِم لا جُرْمَ إلَّا أنْ يقولوا رَبُّنَا اللهْ
بالمناشيرِ يُشَقُّون
ويقولونَ ربُّنَا اللهْ
بالوحوشِ الطائراتِ القاصِفاتِ

يُمْطَرون ويقولون رَبُّنا اللهْ ..
بالنُّجُوم المرْسَلاتِ العاصفاتِ يُصْعَقُون ويناذُونَ رَبُّنَا اللهْ
بالجواري الذارياتِ الحامِلاتْ
نُذُرَ التِّيهِ وإشعاعَ المَواتْ
يُنْسَفُون وَيَصيحُونَ رَبُّنَا اللهْ
إنَّهم يَحْيَوْنَ في الموتِ الشهادهْ
لهُمُ الحُسْنَىٰ خلودًا وزيادهْ

* * *

أَيُّهَا الفاتِحُ إنِّي طالعٌ مِن هؤلاءْ
إنَّهم مِن شجرِ النارِ يجيئُون ومِنْ شمسِ الهدىٰ والكبرياءْ
إنَّهم ضَوْءُ التجلِّي
... والخيولُ العادياتُ المُورياتْ ..
إنْ أَتَىٰ الطوفانُ واجتاحَ النهاراتِ وإيقاعَ البقاءْ
إنَّهم أحفادُكَ الغُرُّ الميامِينْ ...
يقودونَ سِباقَ الشهداءْ
أَيُّهَا الفاتِحُ إنِّي ... جَمْرةٌ مِن هؤلاءْ ..
ماتَ فِيَّ الشجرُ اليابِسُ
واستيقظَ فِيَّ الفارسُ ... والواحدُ بالأَلْف ...
... وألفيتُ ظِلالَ الوَحْي ..... والتوحيدِ تَمتدُّ وتُلْقي
شُهُبَ الحقِّ وأقمارَ الإباءْ

* * *

أَيُّهَا الفاتحُ .. هلْ ضاعتْ مفاتيحُ المدائنْ ؟!
... المحاريبُ فراغاتٌ وأشلاءُ مآذنْ !!
والمصلُّونَ .. يُغَلُّون .. ويَصْلَوْن سعيرًا !!
أَتُرَانا
نفتَحُ الآنَ كتابَ الماءِ .. نغتالُ الهَجِيرَا
أَتُرَانَا
... نعلنُ الآنَ اكتشافاتِ الفتوحْ
نقبضُ الآنَ علىٰ الجَمْرِ ونغتالُ السَّفُوحْ
أَمْ تُرانا ...
لَمْ نزلْ نغدُو خِمَاصًا .. وكمَا كُنا نروحْ !!
ومفاتيحُ المدائِنِ
لَمْ نزلْ نبكِي عليها ونَنُوحْ
سورةُ الفتْحِ هجرْناهَا ..
ومزّقنْا صدَاها ..
وتراءَتْ في مآقينا دماءٌ وقُروحْ
كلُّ أشجارِ الفتوحاتِ أراها
عارياتٍ مِن رُؤَاهَا
من ثمارِ الفتحِ ...
... في أوراقِهَا جَفّتْ دماءٌ
كنتَ تسقيها شذاها
أَيُّهَا الفاتحُ أقبلْ .. أنتَ ما زلتَ فتَاهَا
انزعِ السيفَ مِن القَبْو الزجاجيّ

فقد تُهْنا وتَاها ......!![1]
وإلى قوّاد جيلنا وفجرنا الآتي مع خَفْقِ البنودْ
وأقولُ للجيل الجديدْ
أقولُ للجيلِ المحصَّنِ بالعقيدةِ والمتَوَّجِ بالصَّباحْ
.. وأقولُ يا جيلَ الكِفاحْ
إنَّا بلَوْنا الليلَ والأشْبَاهَ والموتَ الموجَّلَ والجِراحْ
.. وأقولُ يا جيلَ المصاحِفِ
.. يا خميرَ الأرضِ .. يا طلْقَ الولادهْ
ها أنتَ كاليُنْبُوعِ تَدفَّقُ في صَحَارِينا ..
.. وتمنحُنا الوثيقةَ والشَّهادَهْ ...

* * *

أنتَ الذي سيُبَدِّلُ الأوزانَ والأحزان
.. يزرعُ في العُيونِ نَخيلَها
فلَكَمْ تباطأ في الرَّحِيلِ عنِ القُرىٰ عامُ الرَّمَادَهْ

* * *

وأقولُ حَيّ علىٰ الفلاحْ
.. أقولُ حيّ علىٰ السلاحْ
فإنَّ فيكَ النبضَ يُورقُ بينَ ترتيلِ الظَّهيرة والمساءْ

---

(١) « القبـو الزجـاجي » : رسالة إلى « محمد الفاتح » قائد الفتوح الإسلامية في البلقان ، للدكتور : صابر عبد الدايم - جامعة أمّ القرىٰ .

.. وأقولُ يا جيلَ الفداءْ
.. أكلتْ مواسِمَنا الجنادبُ
.. واستبدَّ بنا الحُواةُ
وغَادَرَتْنَا آخِرُ السُّحبِ الحميمةِ في السماءْ

* * *

أنتَ الذي يقتاتُ جَمْرَ المرحلهْ
ها إنَّ أحبارَ اليهودِ تجمَّعُوا .. ها إنّهم حشدُوا لنا
.. فاقرأْ علىٰ تلكَ الرُّؤوسِ « الزلزلهْ »

* * *

اقرأْ علينا باسمِ رَبِّكَ ما تيسَّرَ يا بلالْ
.. الشمسُ في كَبدِ السماءِ
ونحنُ في وَقَدِ الظهيرهْ
.. كمْ نتوق إلىٰ الظلالْ
اقرأْ علينا « المؤمنونَ » وشُدَّ قوْسَكَ ..
.. إنَّ قَوْسَكَ لا تَطِيشُ بها النِّبالْ
كمْ ذَا سألْتَ فلمْ يُجيبوا
.. كمْ سألْتَ فلمْ يُجيبوا
أنتَ وحدَكَ مَن يُجِيبُ عنِ السُّؤالْ ...

* * *

يَـٰأَيُّـهَا الجيلُ الجديدُ .. ويا سليلَ الطُّهْرِ ... يا بَرْدَ اليقينْ

كُنْ باسمِ رَبِّكَ قلعةً للخائفينْ .. ومنهلًا للظَّامئينْ
.. وكنْ رَصاصًا .. كُنْ قِصاصًا ..
.. كُنْ جُذورًا .. كُنْ طيورًا
كُنْ كما شاءَتْ لكَ « الأعْرافُ » في الزمنِ العَجِينْ(١)

* * *

يَـٰأَيُّهَا الجيلُ الجديدُ
وقفتُ مُنْدَهِشًا علىٰ عَتَبَاتِ خُطْوَتِكَ الجديدَهْ
.. وقرأتُ نَبْضَكَ وانطلقتُ بلا عِنانْ
مِن سورة « الإسْراءِ » جئتَ .. وَمِنْ نقاءِ الفَجْرِ
.. والسبعِ المثاني
ورأيتَ مِن خلفِ الدُّخانِ وجوهَهُمْ
.. وَبَلَوْتَ عربدةَ الدُّخانْ
وحملتَ جَرحكَ والهجيرَ
وحملتَ جرحك والعبيرَ
فما الذي حملَتْهُ أغْرِبَةُ الزمانْ(٢) ؟!

* * *

---

(١) عَجَنَ فلان يَعْجِنُ عَجْنًا : ينهض معتمدًا بيديْه على الأرض كِبَرًا ، أَعْجَنَ : شاخ وأسَنَّ ، العَجِينُ : المُسِنُّ ، والمُخنث ، والأحمق .

(٢) ديوان : « إنها الصحوة .. إنها الصحوة » شعر : محمود مفلح الطبعة الأولىٰ ، القصيدة التاسعة : « جيل الصحوة » ، صـ ٣٧ - ٣٩ .